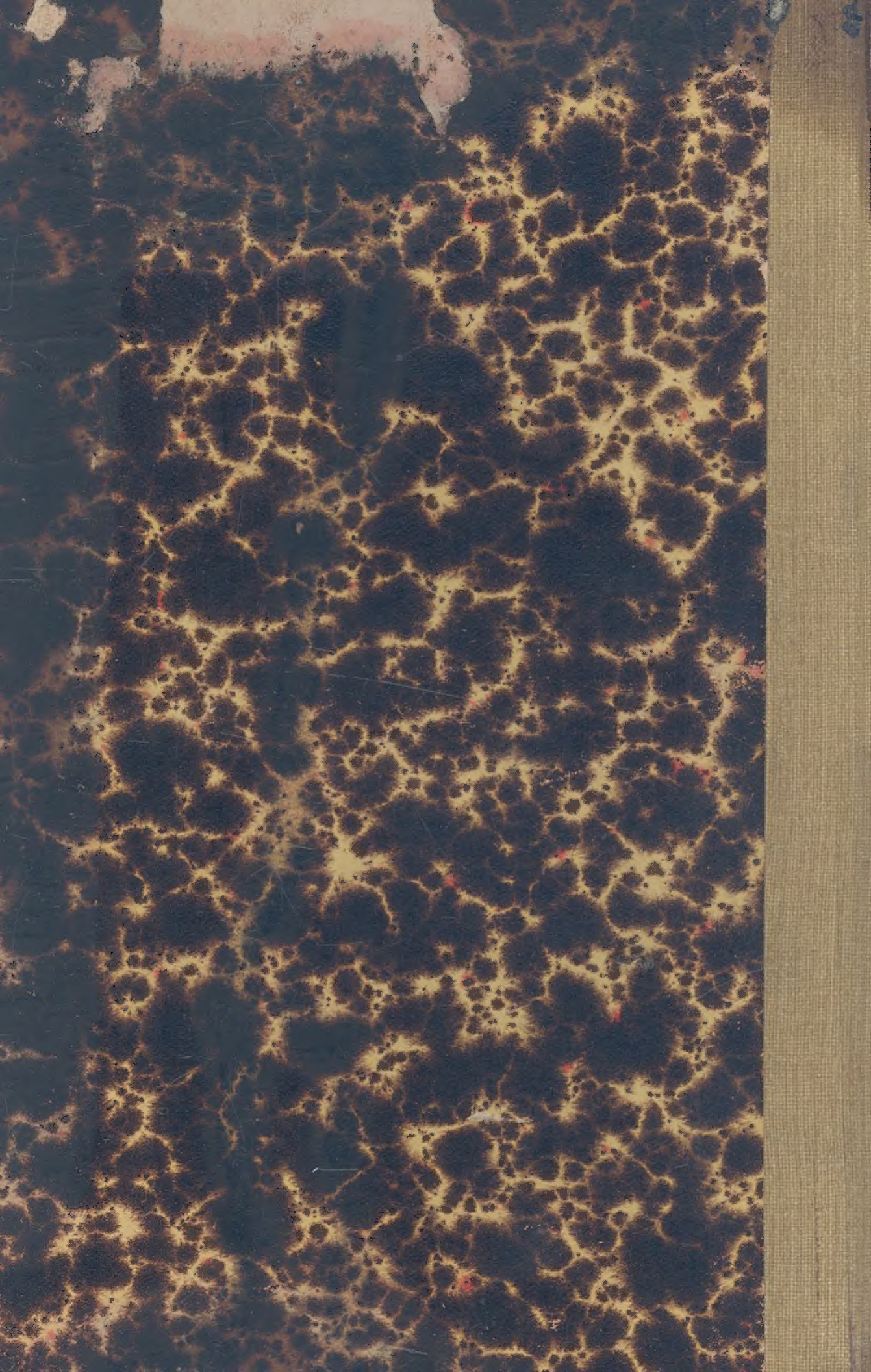


ا.د/ هنري أمين عوض

القاهرة

خلاصة

تاريخ الكنيسة

للمعلم الفاضل لومند الفرنسي

نقل استخرجها من اللغة الافرنسية الى اللغة العربية

الخوري يوسف البستاني

تلميذ مدرسة غزير

وأُضيف اليها اهمّ ما جرى من المجمع التردنتيني الى المجمع الواتيكاني

طبعة جديدة مصحّحة



خلاصة

تاريخ الكنيسة

للمعلم الفاضل لومُند الفرنسي

قد استخرجها من اللغة الافرنسية الى اللغة العربية

الخوري يوسف البستاني

تلميذ مدرسة غزير

الجزء الاوَّل

يتضمن الامور التي جرت من تتويج كارلوس الكبير الى إلتئام المجمع الفاتيكاني المقدس

بمطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

في بيروت سنة ١٩١١

مقدمة الكتاب

الحمد لله تعالى . اما بعد فيقول مؤلفه أن الكنيسة هي الجمهور
الذي اقامهُ يسوع المسيح ليمنح ابناء الله ميلادًا روحيًا وينمي
بالفضل ويثقف بالقداسة الذين سيرتعون يومًا في فسيح جنة
العليا . فلما كان انجاز هذا المقصد مستلزمًا تبليغه الى جميع
الاعصار اقتضى ان الكنيسة تثبت بدون انقطاع الى منتهى
العالم وانها لا تزال منظورة ونقية في ايمانها ومستقيمة في تعليم
ادابها وان لا يخلو منها القديسون وان المحبة تثبت فيها للابد .
قال مار برنردوس : ان نسل المسيحيين لا يبيد بتةً ولا يزول
الايمان من العالم ولا المحبة من الكنيسة لان يسوع المسيح
قدّس جميع الاعصار : انما قد جاء في النبوات ان الكنيسة سوف
تقاسي اضطهادات من قبل اراكنة العالم وتنازعها الارطقات
والانشقاقات وتخللها العثرات ويربو فيها الزوان مخلوطًا
بالحنطة الجيدة فمن المعلوم الواضح انهُ اذا ما حلت بها هذه
الافات لا يمكنها الثبات بدون امداد يد العلي القادرة على كل
شيءٍ كما انها لم تقدر ان تقوى الا بهذه اليد العلوية نفسها ولهذا قد
وعد منشئها الالهي بان يكون معها كل الايام اي بان يعضدها
بوقايتهِ الدائمة الغير منظورة الى انقضاء الدهور

فقد انلدت في برهة المعجزات فلا تثبت الا بمعجزة دائمة وقد اقتضى ان الباري تعالى يظفرها بجميع الموانع التي لم يزل العالم يصدرها للاشانها فلولا الوقاية الالهية لكانت بادت اولاً تحت سيف المضطهدين الذين لم يكلوا في مدة ثلثمائة سنة عن السعي الجهيد في اهلاكها مذ بدايتها. اما الاضطهادات ففضلاً عن انها لم تهلكها قد افادتها نموًّا وامتدادًا لان الله سبحانه القى في قلوب امام كثيرين بسالةً وجلدًا فاقا قوى طبيعتنا الضعيفة فاذهل جلدها وبسالتها جلاديها انفسهم حتى اقبلت بهم الى صراط الهدى. ثانيًا لكانت بادت بمساعي الاراطقة الذين نقضوا بالتوالي جمة من حقائق ايمانها لكن مساعيهم الجهيدة معما كان لهم من المساعدات من قبل اراكنة العالم المقتدرين لم تفسد ايمانها بل افادته بيانًا وايضاحًا وتوطيدًا وقد اقام الله جمهورًا وافرًا من علماء قديسين ليجزوا كل ضلال حال ظهوره وسهل عقد المجامع التي رذلت البدع رذلاً مشتهرًا وايدت الحق باحكام صحيحة وصرحته باقوال جلية عارية من كل لبس وانحراف. ثالثًا لكانت بادت الكنيسة ايضًا بعلة التراخي الذي حل باولادها وحتى بخدامها انفسهم في بعض أمكنة ولكن مع كل ما تراكم عليها احيانًا من الفساد لم تزل سلطة الرعاة معروفةً وتعليمها نقيًا وتهذيبها مقدسًا ولم تفتئ قط تقاوم التراخي والرذائل براسيم

الانجيل المقدسة ولم تكف عن ان تثقف بالكمال اناسًا مسيحيين يدحضون الساد بقداستهم السامية ويشجبون الرذائل جهارًا ويبدون لاخرين العالم جميعه دساتير الفضل وامثال الصلاح

فهذه النصرة الدائمة التي حازتها الكنيسة على الظالمين وعلى الارطقات والرذائل هي معجزة باهرة من يد الله سبحانه القدير على كل شيء . فهطلت الامطار وهبت الرياح وضربت الكنيسة فلم تزعزعها لانها مبنية على الصخرة التي لا تقوى عليها قوات العدو وابواب الجحيم . فما اجمل هذه الكنيسة وما اجلّ قدرها فانها ناقلة في ديمومتها كما في بدايتها دلائل صنع العلي . ليت شعري ما ابهج من جمهور اناس يثبت بدون تغيير في بهرة تقلب دوائر الامور الزمنية وبينما يبيد كل ما حوله يثبت وحده غير متزعزع كصخرة صلدة تلاطمها الامواج . فلا تزال الكنيسة واحدة وهي دائمًا كاثوليكية مقدسة رسولية اي حافظة بدون انقطاع جميع هذه الصفات وكامل هذه المزايا في بهرة العواصف الشديدة فهذا دليل واضح على صدق قول منشئها الالهي القائل : قد أُعطيتُ كل سلطان اذهبوا وتلمذوا الامم جميعها وهوذا انا معكم كل الايام الى انقضاء الدهر : لا شيء يضمن الكنيسة من التقلب الملازم جميع الامور التي على وجه الارض الّا مساعدة ذراع العلي القدير على كل شيء وما من احد يستطيع ان يبني

بناية خالدة البناء لا تقدر قوة ان تهدمها ولا عاصفة ان تزعزع
اركانها الا الى الابد الله سبحانه بل كل ما يُصرَف من الاجتهاد في
اهلاكها فضلاً عن انه لا يضعفها فانه يشدد عزائمها ويفيدها
وقايةً وتوطيداً. قال العلاّمة بوسواسيوس: ما من امرٍ اجلّ
واعظم واحسن دليلاً على الوهية يسوع المسيح من كونه تنبأ من
جهةٍ على ان الكنيسة لا تنتهي من مقاساة الاضطهادات في كافة
اقطار المسكونة من قبل سيف الظالمين او من قبل الارطقات
التي لا تزال تنبع كل الايام او من قبل فتور المحبة المسبب
التراخي في التهذيب ومن جهة اخرى قد وعد بأن مع وجود
هذه الموانع ما من قوة قط تمنع هذه الكنيسة عن ان تحيي للابد
ويكون لها رعاة يخلف بعضهم بعضاً ويسلم الواحد الاخر سلطان
يسوع المسيح ومعها التعليم المقدس والاسرار. فما تجرأ من مبدع
قط من مبدعي الشيع ان يقول بما سوف يصير اليهِ هو نفسهُ ولا
بما سوف يحل بالحزب الذي انشأهُ فيسوع المسيح وحده قد
صرّح بالفاظ جلية وجازمة ليس فقط عن ظروف الامهِ وموتهِ
بل وعن مجاهدات بيعتهِ ونصراتها فقال لرسلهِ: قد وضعتكم
لتذهبوا وتأتوا باثمار وتدوم اثماركم: فان سالت كيف تدوم
اثمارهم فيسوع قد عبر بذلك عن ديمومةٍ لا انتطاع لها ولا نهاية
الا نهاية العالم. فهذا ما وعد بهِ الاثني عشر صياداً وكان خبّاً جنياً

للحق ولقولهِ تعالى. فان الانسان يتوطد اعتقاده بالماضيات عند ما يرى جليًا المستقبل البعيد

ان شيئين يوطدان اركان ايماننا المعجزات التي اجترحها يسوع المسيح على اعين الرسل وتجاه كامل الشعب وتتميم نبواته وانجاز مواعيده تتميمًا وانجازًا جليين منظورين فالرسل لم يشاهدوا الاَّ اولها اما نحن فنشاهد ثانيها فلم يكن هولاء يستطيعوا ان يأبوا الاعتقاد بصحة نبواته وهم يشاهدونه ياتي بمعجزات باهرة كما اننا لا نقدر ان نأبي تصديق هذه الايات العظيمة ونحن نشاهده مشاهدة حسية يتم ما وعد بهِ من الامور العجيبة . قال ماري اغوسطينوس : ان ايماننا وطيد من وجهين ولا يسوغ لنا قط الشك فيهِ لان ما نظره هولاء في اصلهِ حقق لهم ما نشاهده نحن في عواقبهِ وما نشاهده في عواقبهِ يحقق لنا ما شاهدوه واندهلوا منهُ في اصلهِ . واضاف بوسواسيوس قائلاً : ما عدا ما للكنيسة من الفضل ان تكون مبنية على معجزات باهرة رواها المؤرخون جهارًا وبدون خوف من التكذيب في الازمنة التي حدثت فيها هالكان لم يعيشوا في تلك الازمنة معجزة دائمة تثبت صحة غيرها وهي تواصل الديانة الدائم انتصارها على كل ما بُذل من الكد والجهد في اهلاكها : فما اعظم هذه التعزية لابناء الله وما اثبت خضوعهم للحق عند ما يشاهدون

سلسلة الاحبار العظام من البابا الجليل لاون ١٣ الجالس الان على كرسي الكنيسة الى مار بطرس الذي اقامهُ يسوع المسيح امام الرسل واذا ابتدئنا منهُ وصاعدًا يبلغ التخلف الى موسى وهارون ثم الى الاباء ثم الى ابتداء العالم . فما اجمل هذا السلك وما اصدق هذا التقليد وما احسن هذا التواصل العجيب فان كان عقلنا مائلاً الى الارتياب طبعًا وامسى بارتجاجه العوبة في يد تفلسفاتهِ الخصوصية فيحتاج في المسائل الموكول عليها الخلاص الابدي الى ان يتوطد مستندًا على سلطة اكيدة فاية سلطة اعظم من سلطة الكنيسة الكاثوليكية الجامعة فيها كافة سلطات الاعصار العابرة وتقليدات الجنس البشري القديمة المتصلة الى اصلهِ الاول تلك الكنيسة المعلنة في ذاتها حقيقتها بتواصلها والمعلنة في ديمومتها لانها صنع يد العلي



الفصل الاول

في انذار الرسل

ولما صعد يسوع المسيح الى السماء عادت الرسل الى اورشليم واجتمعوا في العلية كما كان امرهم الرب ليتأهبوا بالاختلا والصلوة الى اقتبال الروح القدس الذي وُعدوا بهِ . ففي اليوم العاشر عيد البنديكستي حلَّ الروح القدس عليهم حلولاً منظوراً وجددهم بالروح فتدرعوا بقوة من العلاء واضطرموا بنار الهية وطفقوا يتكلمون بلغات مختلفة ويذيعون عظائم الله وقد تقاطر شعب غفير الى اورشليم اكثر من ذي قبل لان الناس كانوا موقنين في المشرق كله بان المسيح عتيد ان يظهر فبادروا الى الرسل وهم متعجبون منذهلون اذ كانوا يسمعونهم يتكلمون بلغات بلدان مختلفة فاتخذ بطرس حينئذٍ فرصةً لمخاطبتهم وشرع يقول لهم ان العجائب التي عاينتموها اليوم هي تحقيق نبوة النبي يوال القائل : ويكون في الايام الاخيرة اني اسكب من روحي على كل بشرٍ فيتنبأ بنوكم وبناتكم واعطي الايات من السماء وعلى الارض : ثم انذرهم بالوهية يسوع المسيح الذي صلبوه وحقق لهم انه هو المسيح الذي انتظره اباؤهم منذ اوائل العالم وحرضهم على ان يتعمدوا به ليقبلوا

غفران خطاياهم وموهبة الروح القدس : فاهتدى منهم ثلثة الاف وضُموا الى مصاف التلاميذ وكانوا مواظبين على تعليم الرسل ومثابرين على سماع ارشاداتهم وكان الله سبحانهُ يأيد هذا التعليم بايات شتى تذهل الجميع وتلقي في قلوبهم رهبة مقدسة

فلما كان بطرس ويوحنا صاعدين الى الهيكل حين تقدمة الذبيحة صادفا على باب الهيكل رجلاً لهُ من العمر اربعون سنة مخلعًا منذ مولدهِ فسالهما صدقةً حسب عادتهِ فاجابهُ بطرس قائلاً : ليس عندنا ذهب ولا فضة بل نعطيك ما عندنا . بسم يسوع المسيح قُم وامشِ : فللوقت شُفي المخلع وقام ومشي ودخل الهيكل وهو موعب سرورًا يمجد الله . فتقاطر الشعب الى الهيكل عندما بلغهم خبر هذه الاية فانذرهم بطرس واهدى منهم الى الايمان خمسة الاف نفسًا اما مقربو الذبائح ورئيس الهيكل فامتلئوا غضبًا لما كان من نجاح الرسل العجيب في انذارهم فقبضوا عليهم والقوهم في السجن وفي اليوم الثاني اجتمعت اعضاء المجمع الاعلى واستدعوا الرسل وسألوهم قائلين باي سلطان تصنعون ما تصنعونهُ . فامتلأ بطرس حينئذٍ من الروح القدس واجابهم بطمأنينة قائلاً: اننا نصنع ذلك باسم يسوع المسيح الذي صلبتموه: فانبهت حينئذٍ اعضاء المجلس عندما شاهدوا ثبات الرسل اذ لم

يكونوا يعرفوهم الاَّ رجالاً من عامة الشعب فاكتفوا وقتئذٍ بأن ينهوهم عن التعليم باسم يسوع . فاجابتهم الرسل بشجاعة مقدسة اقضوا انتم انفسكم ان كان عدلاً ان نطاعكم احرى مما ان يطاع الله فلا نقدر ان نصمت عما رأينا وسمعنا متى امرنا الله سبحانهُ ان ننذر بهِ . فاطلقوا سبيلهم واتت الرسل الى المؤمنين واخبروهم بكل ما جرى واسدى جميعهم الشكر لله سبحانهُ وسالوهُ ان يأيدهم للانذار بكلمتهِ بدون خوف من نهي البشر وتوعداتهم الواجب ان تُحسب كلا شيءٍ متى اقتضى الامر تتميم ناموسهِ تعالى

وكان المؤمنون يجتمعون في الهيكل للصلوة ولم يتجرأ باقي الشعب ان يجتمع معهم خوفاً من ان تقلقهم الحكومة الاَّ انهم لم ينثنوا عن تكريمهم والاثناء عليهم عند مشاهدتهم الايات التي كانت تجري على ايديهم كل يوم فكانوا ياتون بالمرضى في اسرتهم ويلقونهم على قارعة الطريق حتى اذا جاز بطرس فيها يلقي ظلهُ عليهم فيبرئهم وكانوا يأتون بهم ايضاً من المدن المجاورة ويعودون جميعهم اصحاء فاشتد غضب رئيس الكهنة على الرسل وعاد فالقاهم في السجن لكن ملاكاً من السماء اتى وانقذهم وامرهم ان يمضوا الى الهيكل وينذروا بكلمة الله بلا خوف اما المجمع فارسل امراً للسجن لياتوا بهم فلما فتحوا الباب لم يجدوا احداً لان الملاك كان اخرجهم منهُ والابواب مغلقة فأتى حينئذٍ رجل يخبر بان

المحابيس قائمون في الهيكل يعلمون الشعب فبادر حينئذٍ رئيس
حرّاس الهيكل وصحبته شرط فاتى بالرسل من دون اغتصاب
لان الشرط كانوا يخافون الشعب فلما احضروهم الى المحكمة قال
لهم رئيس المجموع اما نهيناكم نهياً صريحاً عن الانذار باسم يسوع
فلماذا اشحنتم اورشليم بتعليمكم وتريدون ان تحملونا دم هذا
الانسان فاجابهُ بطرس والرسل قائلين: ينبغي ان نطيع الله
احرى من ان نطيع البشر: فمتى كان الناموس البشري مناقضاً
ناموس الله يجب بلا ريب ان نفضل الشريعة الالهية على
الشريعة البشرية فكان هذا الجواب المشعر ببسالةٍ الهية مثالاً
لجميع الشهداء الذين نطقوا بهِ تشبهاً بالرسل امام الظالمين عندما
كانوا ينهونهم عن ان يصنعوا ما يامرهم الله بهِ او يامرونهم بما
ينهيهم الله عنهُ فاستشاطت اعضاء المجلس رجزاً واخذوا يهمون
باهلاك الرسل لكن واحداً منهم يقال لهُ غملايل اتاهم بنصيحة
مشعرة باحسن عدل واستقامة قائلاً: ان كان هذا العمل من
الناس يضمحل سريعاً من تلقاء نفسه وان كان من الله لا تستطيعون
ان توقفوا سبل نجاحه: فاذعنوا الى هذا الشور الاّ انهم ضربوا
الرسل بالقضبان قبل ما اطلقوا سبيلهم وجددوا عليهم النهي
عن التكلم باسم يسوع فمضت الرسل وهم موعبون فرحاً لكونهم
أهلوا لاحتمال هذا العار لاجل اسم يسوع معلمهم فلم يزالوا مواظبين

على الانظار يسوع المسيح في الهيكل وعلى تعليم المؤمنين كل يوم في منازلهم

الفصل الثاني

في توفيق بشارة الانجيل

وكان عدد المؤمنين يزداد كل يوم وكانت كنيسة اورشليم على جانب كبير من النمو لما كتب مار لوقا افعال الرسل فنرى من هذه الاخبار انها كانت مؤلفة من اناس من كل جنس وعمر ورتبة فلم يكن الايمان بفتح الفتوحات في اورشليم فقط بل ان الرسل لما اضطروا الى ان يتبددوا بسبب الاضطهاد الذي ثار عليهم في هذه المدينة قد بذروا في كل مكان زرع كلمة الله وانشأوا في الامصار التي التجأوا اليها كنائس اخرى عديدة مؤلفة من يهود وحنفا جنساً فطاف مار بطرس اقاليم عديدة واشاد فيها كنائس ونصب كرسيه اولاً في انطاكية ثم انطلق الى رومية التي كانت وقتئذٍ مركز عبادة الاوثان لكيما يحارب هذه العبادة في المكان المستحوزة عليه باعظم سطوة وكان ايضاً انذر اليهود المشتتين في البنطوس وغلاطية وكبادوكيا واسيا وبيثينيا وابعث لهم رسالته الاولى وارسل بعضاً من تلاميذه

ليشيدوا كنائس في الغرب وكان مار بولس يبشر الامم بيسوع المسيح ويُدخل الناس في دين الله افواجاً فمضى اولاً الى سيلوقيا ثم الى جزيرة قبرس ونصر واليها الذي كان اسمه بولس واكثر اهل الجزيرة قبلوا البشارة ثم جاز في بيسيديا وبمفيليا ولوقانيا وفريجيا وغلاطية وميزا ومكدونيا وكان انذاره دائماً مقروناً بتنصير الشعوب فاشاد في فيلبسيوس كنيسة استمرت معصومة بتعليم الرسل ومتعلقة بشخصه ثم اقام في تسالونيقي عاصمة مكدونيا واشاد فيها بيعة كانت لغيرها قدوةً في التدين ومن هناك جاز الى اخائيا وبشر في اتينا حيث خطب خطبةً شهيرة بُهرة نادي علمائها ونصر بها مار ديونيسوس وكثيرين غيره ثم انطلق الى رومية واقام فيها سنتين كاملتين وهو ينذر بملكوت الله حتى في بلاط الملك نيرون وفيه نصر انفاراً ليسوا بقلائل وتبدد باقي الرسل في امصار المملكة الرومانية لياتوها ببشارة الخلاص الصالحة المذهلة فكان تنصر الناس في اوائل الكنيسة متواتراً بهذا المقدار ونور الانجيل يشرق في امصار عديدة حتى صار المسيحيون في اواخر الجيل الاول في اكبر قسم المملكة الرومانية فتجاه جميع الامم من يهود وحنفا ويونان وبرابرة وعلماء وجهلاء وشعوب وولاة شهدت الرسل بعجائب ابن الله لاسيما بقيامته من بين الاموات عجائب شهدوها بعيونهم

وسمعوها باذانهم ومسوها بايديهم فصرّحوا هذه الشهادة بدون ادنى غرض زمني لهم بل خلافاً لجميع حجج الحكمة البشرية الى اخر نسمة من حياتهم واخيراً ختموها بدمائهم

فما كان من سرعة انتشار الديانة المسيحية في كل مكان يثبت جليّاً انها ديانة الهية وعمل الله سبحانهُ فهي معجزة باهرة لا يستطيع الكفر على مقاومتها ما لم يغمض عينيهِ لئلا يشاهد النور فكان قد تنبأ يسوع المسيح على ان انجيله يكرز بهِ في العالم كلهِ فاقتضى ان هذه الاعجوبة تحدث حالاً بعد موتهِ لانهُ كان قال: متى ارتفعت عن الارض اي متى عُلقت على الصليب جذبتُ اليَّ كل احد: فلم يكن الرسل بعد تمموا سعيهم واذا بالرسول بولس يقول للرومانيين: ان ايمانكم قد بُشر بهِ في العالم كلهِ: وقال لاهل قولوسايس : ان الانجيل قد سمع في كل الخليقة وبُشر بهِ وينمو مثمراً في العالم باسرهِ: فاننا نعلم من التقليدات الصحيحة ان مار توما اتى بهِ الهند ومار يوحنا اسيا الصغرى ومار اندراوس في السيتية ومار فيلبس اسيا العليا ومار برتولماوس لارمينية الكبرى ومار متى لبلاد فارس ومار سمعان لمابين النهرين ومار يهوذا لجزيرة العرب ومار ماتيا للحبشة ولا حاجة لنا الى تواريخ لاثبات هذه الحقيقة لانها ثابتة بذات الفعل . لعمري ان هذه الكنائس العديدة التي نشاهدها منشاة في

اواخر الجيل الاول لم تنشيد من ذاتها بل توضح بان الرسول مار بولس قد اصاب كل الاصابة بتاويلهِ عن الرسل ما قالهُ الروح القدس على لسان النبي والملك داود: سُمع صوتهم في الارض كلها وخرجت كلمتهم الى اقاصي المسكونة

الفصل الثالث

في فضائل المسيحيين الاولين

قد جاء اجمل الاوصاف عن الكنيسة الاولى في مار لوقا اذ قال في الابركسيس: ان جمهور المؤمنين لم يكن لهم الَّا قلب واحد ونفس واحدة ولم يكن احد منهم يختص بذاتهِ شيئاً مما يمتلكهُ بل كانوا يجعلون كل شيءٍ للعامة ولم يكن بينهم فقير لان جميع الذين لهم عقارات او بيوت كانوا يبيعونها ويأتون الرسل بثمنها فيعطى كل واحد على قدر احتياجهِ وكان المؤمنون مثابرين على تعليم المخلص ومواظبين على الصلوة وكسر الخبز اي تناول الافخاريستيا الالهية: وقال في محل اخر: كانوا جميعاً متحدين معاً وكل ما لهم كان للعامة وكانوا يبيعون املاكهم ومقتناهم و يوزعونها على قدر احتياج كل منهم وكانوا مواظبين

على الذهاب للهيكل بوحدة الروح ويكسرون الخبز في البيوت ويتناولون الطعام بفرح وسذاجة قلب ويسبحون الله وهم محبوبون من كل الشعب وايات كثيرة كانت تجري على ايدي الرسل ولجميعهم نفس واحدة ولم يتجرأ احدٌ على ان يلتصق بهم لكن الشعب كان يجلهم ويتزايد كل يوم عدد المؤمنين بالرب وهكذا نشأت الكنيسة سائرة في خشية الرب ومملؤة تعزية الروح القدس

ان الكتاب المقدس اخبر ذلك عن كنيسة اورشليم ولئن كانت باقي الكنائس المؤلفة خصوصًا من الامم اقل كمالاً منها الاَّ ان عجائب الفضل والقداسة لم تخلُ منها مع الحال الذي كانت عليهِ الامم قبل تنصرها فحالما قبلوا المعمودية لم يعد يُرى فيهم شيءٌ مما كانوا عليهِ قبلاً بل ابتدأوا بسيرة جديدة باطنة روحية واخذوا يستسهلون ما كانوا يعدونهُ قبلاً ضربًا من المحال والذين كانوا متعبدين لشهواتهم صاروا حالاً اعفاء متقنين القناعة ولم يعود اصحاب الطمع والصلف يعرفون عظمةً الاَّ في الصليب فكنت تراهم يردعون جميع اميالهم ويتقنون كامل الفضائل ويزهدون بلذات الحيوة وراحتها ويصبون غرامًا بالشغل والاختلا والصوم والتهذيذ فكانت الصلوة اكبر اشغالهم وهي اول ما امر بهِ الرسول المعظم وحرّضهم على اتقانها

حسب وصية يسوع المسيح فلذا كانوا يستعملون كل الوسائط التي من شانها ان لا تنقطع الا قلّ ما يمكن اتجاه عقولهم لله وللامور السماوية ويقيمون الصلوة جهوريًا بقدر ما يمكنهم لايقانهم بان تكاثف الجمهور على الصلوة واتحاده على طالب النعم منهُ تعالى يزيده قوة لنوالها طبقًا لما جاء من قولهِ تعالى · اذا اجتمع اثنان منكم على الارض كذا يطلبانه يعطيهما ابي السماوي لانهُ اذا ما اجتمع اثنان او ثلثة باسمي فاكون انا بينهم : فلكيما يجددوا اصغائهم لله سبحانهُ تواترًا كانوا يتلون صلوة خصوصية قبل كل عمل يعملونهُ و بعدهُ كانوا يدرسون ناموس الله ويراجعون في بيوتهم ما يكونون سمعوه في محل الاجتماع ويجنون في اذهانهم تعليم المسيح ويتحدثون بها وكانت الاباء على الخصوص يكررون على مسامع اولادهم ما كانوا يتلقنونهُ من الرعاة . وبالنتيجة ان السيرة المسيحية كانت تُقضى بالصلوات والتلاوات والاشغال المتعاقبة حسب نظام الساعات بدون انقطاع الا ما كان بحكمه الاضطرار

ولعمري ان هذه السيرة عجيبة في جمهور اناس كانوا لذلك الحين منهمكين في الفساد ومنعكفين على الاوثان فمن اين ترى انقلبوا هذا الانقلاب البديهي الغريب فلا ريب انهم تاثروا تاثرًا بليغًا من معجزات مبشريهم بتلك الديانة الجديدة ومن فضائلهم فاقتضى ان روح الله سبحانهُ ينفذ مفعول قدرتهِ في نفوسهم

ويصيرهم اناساً جدداً اعفاء يتقنون التقشف والزهد في الغنى لايرغبون الا في الخيرات الغير منظورة فلا شك في ان تغيراً هذه صفته مفعول تلك القدرة التي اخرجت المسكونة من العدم وتزداد بهراً حينما تنتصر على القلوب بدون ان توذي الاختيار فالله سبحانه يتصرف من جهة كسيد وليس من يقاومه بعمله ويريد من قبل الانسان ان يذعن له اذعاناً باختياره تاركاً له امكاناً للمقاومة

الفصل الرابع
في مجمع اورشليم

ان قوماً من اليهود المتنصرين حديثاً بقوا متمسكين بعروة ناموس موسى وكانوا يريدون ايضاً ان الامم المتنصرين يخضعون له فاتى قوم منهم انطاكية حيث كان مار بولس ومار برنابا واثاروا سجساً عظيماً قائلين ان الامم المرتدة الى الايمان لايمكنها الخلاص بدون الختان وباقي الاعمال التي فرضها موسى اما بولس وبرنابا فكانا يقاومانهم مقررين بان يسوع المسيح اتى لينقذ الناس من هذه العبودية وانه لافائدة بنعمته لمن يعتبرون الختان ضرورياً للخلاص. فعمدا حينئذٍ على الذهاب

الى اورشليم ليستفتيا الرسل في هذه المسئلة فلما وصلا قبلتهما الكنيسة باسرها وترحبت بهما وكان بولس باشر هذا السفر بالهام الهي فتفاوض مع الرسل الموجودين في اورشليم اي مع بطرس ويعقوب ويوحنا المعتبرين بمقام عُمد البيعة وقابل مع تعليمهم التعليم الذي كان ينذر الامم به ولم ياخذه من انسان بتة بل من وحي يسوع المسيح فوجد مطابقًا له في جميع قضاياه ثم اجتمعت الرسل الخمسة والكهنة ليفحصوا ويبتوا المسئلة الواقع عليها النزاع وقتيئذٍ وبعد ما طال الكلام بينهم قام بطرس وقال لهم ايها الرجال الاخوة انتم تعلمون انهُ منذ ايام قديمة اختارني الله ليسمع الامم كلمة الانجيل من فمي ويؤمنون والله العارف القلوب شهد لهم معطيًا اياهم الروح القدس كما وايانا (اشار بذلك الى تنصر فورنيليوس) ولم يميز بيننا وبينهم بشيءٍ اذ طهر بالايمان قلوبهم فالان لماذا تجربون الله وتضعون على عنق التلاميذ نيرًا لم يستطع اباؤنا ولا نحن ان نحملهُ لكن بنعمة الرب يسوع نؤمن ان نخلص كما اولئك ايضاً. فلما تكلم بطرس بهذا الكلام سكت الجمهور كلهُ وصغوا لما كان يخبر به بولس وبرنابا من الايات والعجائب التي صنعها الله على ايديهم في الامم ثم تكلم يعقوب مصادقًا على ما قالهُ بطرس بايات الانبياء نظرًا الى دعوة الامم فقال لذلك ارى ان لا يثقل على الراجعين الى الله من الامم بل

يكتب اليهم ان يمتنعوا عن نجاسات الاصنام والزنا والمخنوق والدم فان الرسل نهوا الامم عن الزناء لان جسامة هذه الرذيلة لم تكن بعد معروفة في مذهب الوثنيين اما نظرًا لنهيهم عن المخنوق والدم فهذا كان تنازلاً من الرسل الذين راموا ان تحفظ هذه السنة لوقتٍ ليسهل عليهم ضمّ الامم الى اليهود

فلما خرج الحكم في المسئلة عمدت الرسل والكهنة والكنيسة كلها الى ان يختاروا قومًا منهم ويرسلوهم الى انطاكية مع بولس وبرنابا وصحبتهم الرسالة الناقلة حكم المجمع وكان بهذه الصورة: قد رأى روح القدس ونحن ان لا نضع عليكم ثقلاً اكثر غير هذه الاشياء وهي ان تمتنعوا عما ذُبح للاصنام وعن الدم والمخنوق والزنا فقد اعطت الرسل بهذا المجمع مثالاً للكنيسة فاقتفت آثاره في المجامع العامة ليس فقط لنهي مسائل المعتقد بل ومسائل التهذيب ايضًا بسلطان سامٍ وبدون ادنى تعلق بالسلطان العالمي فيما يأول على وجه الاستقامة لخلاص النفوس . فلما وقع هذا الاختلاف بين المؤمنين ارسلوا يستفتون كنيسة اورشليم حيث كان ابتدأ الانذار بالانجيل وحيث كان وقتئذٍ بطرس فاجتمعت الرسل وشرعوا يتداولون المسئلة وكلٌّ منهم صرّح برائهِ اخيرًا خرج الحكم وكان بطرس متصدرًا في المجمع وهو الذي افتتحهُ واعرض المسئلة واول من اعطى رايهُ الا انهُ لم يكن وحدهُ

قاضياً بل قضى معهُ ايضاً يعقوب وصرّح بان الحكم مبني على الكتب المقدسة ومثبت برضى الرعاة العام ثم سطروهُ بالكتابة لا كحكم بشري بل كوحي من الروح القدس قائلين بكل ثقة : راى روح القدس ورأينا : ثم ارسلوهُ الى الكنائس الخصوصية لا ليجروا عليهِ الفحص بل ليقبلوهُ ويعملوا بموجبهِ بخضوع تام . فالروح القدس اذاً يتكلم بفم الكنيسة ولهذا ان بولس وبرنابا اللذين انفذا للمؤمنين حكم الرسل هذا الاول لم يجزا لهم قط ان يجروا بحثاً جديداً على مراسيم الرسل . فعلى هذا النحو يرتاح ابناء الله الى حكم الكنيسة وهم موقنون بانهم يسمعون من فيها تعليم الروح القدس ومن ثم بعد ما قيل في قانون الايمان اومن بالروح القدس : أردف القول : وبالكنيسة المقدسة الكاثوليكية : فنتعهد بذلك ملتزمين ان نعتقد بان في الكنيسة العامة الحق المؤبد الذي لا غش فيهِ من كون هذهِ الكنيسة نفسها التي نعتقد بها في كل آن تبطل ان تكون كنيسة اذا راغت عن تعليم الحق الموحى بهِ من الله وهذهِ الحقيقة مبنية على وعد يسوع المسيح الباهر الذي صرّحه بهذهِ الاية : قد أُعطيت كل سلطان في السماء والارض : اذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعلموهم كل ما اوصيتكم بهِ وهوذا انا معكم كل الايام الى انقضاء الدهر : فقد اعطى يسوع المسيح كل سلطان ركناً لهذا الوعد وعوناً كلي الاقتدار اذ قال علموا كل

الحق وقاوموا جميع الاضاليل لا يقدر ان يقوى عليكم احد ولا تخلون من معونتي للابد لانني اكون معكم كل الايام الى انقضا الدهر

الفصل الخامس

في وفاه مار يعقوب الاصغر

سنة ٦٢ للمسيح

ان مار يعقوب هذا قد لُقب بالاصغر تمييزًا لهُ عن رسول اخر يُدعى بهذا الاسم فقد أُقيم هذا اي يعقوب الاصغر اسقفًا على اورشليم وهو الذي تكلم في المجمع اولاً بعد بطرس وكان محبوبًا من جميع المؤمنين ومكرّمًا من اليهود انفسهم لسمو قداستهِ وكانت سيرتهُ قشفة جدًّا ولم يكن يشرب خمرًا ولا مسكرًا اخر بتةً وقيل انهُ لم يكن يلبس حذاً في رجليهِ وكان لباسهُ رداءٌ من قماش خشن وجبة فقط ومن عادتهِ ان يمضي الى الهيكل حيث لم يكن احد فيهِ وهناك يخرّ ساجدًا مصليًا لاجل غفران اثام الشعب ويمكث زمانًا طويلاً راكعًا حتى صارت ركبتاه كركب الجمال فلُقب بالصدّيق لاجل مواظبتهِ على الصلوة ومحبتهِ الحارّة . فلما توفي فوستوس والي اليهودية وقبل وصول خليفته اليها اراد

انانوس عظيم الكهنة ان يستغنم هذه الفترة ليوقف سير نجاح الانجيل فعقد مجمعاً كبيراً واستدعى اليهِ مار يعقوب بحجة ان يسالهُ عن امر يسوع المسيح فقال لهُ : ان الشعب يتخذ يسوع مسيّاً فعليك ان تزيل هذا الضلال لان الجميع مستعدون للاعتقاد بما تقولهُ : ثم اقاموه على سطح الهيكل حتى يسمعهُ الكلّ فلما قام في هذا المكان المرتفع صاحت بهِ الكتبة والفريسيون قائلين : ايها الرجل الصديق الواجب علينا جميعاً ان نعتمد قوله فحيث الشعب سائر في الضلال باتباعهِ يسوع المصلوب قُل لنا ما ينبغي علينا ان نرتأيه : فاجابهم يعقوب حينئذٍ بصوت عالٍ قائلاً : ان يسوع ابن الانسان الذي تسألوني عنه هو جالس الان عن يمين العزة الالهية بما انهُ ابن الله وسوف يأتي على سحاب السماء ليدين العالم باسرهِ : فهذه الشهادة الصريحة بالوهية يسوع المسيح قد افادت المسيحيين المتنصرين حديثاً توطيداً في الايمان اما الفريسيون فلما خاب املهم قال بعضهم لبعض : ماذا صنعنا ولماذا اجلبنا هذه الشهادة ليسوع فينبغي ان ندهور هذا الرجل من فوق الى اسفل . ما هذا الامر ان الصديق نفسه في الضلال : فامتلأوا غضباً وصعدوا الى اعلى الهيكل ودهوروا الرسول الى اسفل لكنهُ لم يمت في الحال بل قام جاثياً على ركبتيهِ يصلي بهذا الكلام اغفر لهم يارب لانهم لا يدرون ما يصنعون . ثم قال الظالمون فلنرجمهُ

وفي الحال القوا عليهِ الحجارة كالبرد لكن رجلاً منهم اخذتهُ الشفقة عليهِ فقال للآخرين : ويحكم ماذا تصنعون كفوا عن عملكم فان الصديق يصلي لاجلكم وانتم تقتلونهُ فلم يذعنوا لهُ بل تقدم رجل قصار وتناول مطرقة كبيرة وضرب بها هامة الرسول واتم استشهاده وكان يعقوب شهيرًا بقداستهِ عند الشعب حتى انهم حسبوا دمار اورشليم الذي حدث غب برهة وجيزة عقابًا لهم لاجل قتلهِ . فدُفن هذا الهيكل في محل استشهادهِ واقاموا على قبرهِ عامودًا

وكان يعقوب الاصغر قد كتب رسالةً وهي في العهد الجديد من السبع الرسائل المسماة كاثوليكية اي المرسلة الى كامل الكنيسة فجاد في هذه الرسالة باثبات وجوب الافعال الصالحة للخلاص حيث بلغهُ ان بعض اناس كانوا يزعمون بان الايمان يكفي وحده للخلاص بدون اعمال . فهذا الرسول القديس يعلم الخلاف اي ان البرارة متى كانت حقيقية تتضمن جوهريًا تتميم الوصايا وان عبيد الله هم دائمًا مخصبون بالافعال الصالحة وقد اثبت ذلك بمثال جميع القديسين الذين اشتهروا بافعال الفضائل

الفصل السادس

في الاضطهاد الاول على عهد الملك نيرون سنة ٦٤

سنة ٦٤ للمسيح

ان الكنيسة المقدسة كثيرًا ما تألمت من قبل اليهود والوثنيين لكن هذه الاضطهادات لم تكن عمومية فالملك نيرون هو اول من اجرى السلطان السامي في اضطهاد المسيحيين فلما راى هذا الظالم اناسًا كثيرين حتى من اهل بلاطهِ يتركون عبادة الاوثان اشتد غضبه على المسيحيين واصدر امرًا ينهي بهِ عن اعتناق الدين المسيحي واتخذ حجة لهذا التصرف حرقة عظيمة حدثت في رومية واتلفت اكثرها وكان هو نفسه امر بحريقها لكيما يجدد بناها فيما بعد باحسن جمال فعند ذلك ثارت عليهِ الاشاعات المكدرة فلكيما يحولها عنهُ ويجعل المسيحيين عرضة لبغضة الجمهور قرفهم بهذا الذنب وشرع يضطهدهم اضطهادًا مريعًا فقبض على كثيرين منهم واماتهم على ما اخبر المؤرخون الوثنيون انفسهم لا لانهم وُجدوا مذنبين بحريق المدينة بل لانهم كانوا ممقوتين من الناس لتمسكهم بالديانة الحديثة . فلم يكتفِ نيرون باجراء النكال المالوف عليهم بل امر بلف بعضهم بجلود وحوش ضارية وطرحهم فريسةً للكلاب ومنهم من البسوهم اردية مبلولة بزفت وعلقوهم بالمشانق واضرموا

النار تحتهم ركأ وا على هذه الحال كمشاعيل مضية في الليل فابلك نفسهُ صنعهم مشهداً في جنانهِ واتى بمركبتهِ اليهِ على ضوء هذه المشاعيل الفظيعة . فان الشعب الروماني نفسهُ مع ما هو عليهِ من البغضاء للمسيحيين فكان مع ذلك يشفق عليهم ويشق عليهِ ان يشاهدهم يُذبحون على ايثار قساوة الظالم

ففي هذا الاضطهاد انهى بطرس وبولس حياتهما شهيدين. قيل ان هذين الرسولين بقيا تسعة اشهر مطروحين في سجن بجانب الكابيتول وان اثنين من السجان لما عاينا الايات التي كانت تجرى على ايديهما تنصروا وعمدها مار بطرس مع سبعة واربعين نفراً من الذين كانوا حينئذٍ في السجن معهما . فدبر المؤمنون الذين كانوا في رومية وسيلة لبطرس ليفرّ من السجن وطلبوا منهُ بلجاجة ان يغتنمها ويحفظ حياته العزيزة على قلب الكنيسة فاجاب بطرس اخيراً طلبهما وخرج من السجن فلما بلغ الى باب المدينة ظهر لهُ يسوع المسيح وقال لهُ انهُ ماضٍ لرومية ليُصلب فيها ثانيةً . ففهم بطرس من هذا القول ان يسوع ينبغي ان يُصلب ثانية في اقنوم نائبه فعاد الى السجن وحُكم عليهِ بعذاب الصلب لكنهُ سال ان يُعلق على الصليب منكس الراس اذ لم يعدّ نفسهُ مستحقاً ان يموت كما مات معلمه الالهي . اما بولس فحيث كان عليهِ الشرف الروماني قُطع راسهُ . وقد قيل انهُ

عندما كان ذاهبًا الى منقع العذاب نصَّر ثلثة من الجنود واحتملوا الجهاد بعده بمدة يسيرة . هذا ما كان من بداية الاضطهاد الاول الذي قاسته الكنيسة من قبل الملوك الرومانيين فكان لها فخر عظيم بان يكون عدوًا لها واول مضطهديها اشد الناس شرًّا واقبحهم كفرًا وافظعهم قساوةً وجورًا .

الفصل السابع

في النبوة المهيلة على خراب مدينة اورشليم

ولما حان الآن لتتم نبوة يسوع المسيح على مدينة اورشليم والهيكل اذ قد كان قال الرب يسوع ان هذا الجيل لا يزول قبل ان تحل النوائب المنذور بها . قد ثبت من التقليدات الصادقة المحققة في كتاب التلمود عند اليهود والمثبتة من مشاهير علمائهم انه قبل خراب اورشليم باربعين سنةً وهو زمن موت يسوع المسيح كانت تظهر كل يوم في الهيكل رؤيات عجيبة حتى ان احد العلماء المشهورين اخذ يصيح ذات يوم قائلاً : ياهيكل ياهيكل ترى ماذا يريعك ولماذا تنزل الرعبة في نفسك : وقد سُمع ضجيج في المقدس يوم عيد البنديكستي وصوت مرعب رنَّ في جوف هذا المكان المقدس يقول : اخرجوا اخرجوا من هنا فان

الملائكة القديسين حرّاس الهيكل تركوهُ جهارًا لان الله الذي جعل سكناه فيهِ مدة اجيال كثيرة قد رذلهُ . ثم قبل ما ثارت الحرب التي دمَّرت اورشليم باربع سنوات ظهرت لليهود دلالتها ظهورًا جليًّا على اعين كامل الشعب . وقد روى ذلك يوسيفوس المورّخ اليهودي قائلاً : كان رجل يقال لهُ يسوع بن انانوس عائدًا من حقلهِ يوم عيد المظال وبينما كانت المدينة رائعة باعظم سلم شرع يصرخ بغتةً : الويل للمدينة الويل للهيكل صوت من المشرق وصوت من المغرب وصوت من الاربعة ارياح الويل للهيكل الويل لاورشليم : ولم يكف ليلاً ونهارًا عن التطواف حول المدينة وتكرار هذا الوعيد نفسهُ . فعاقبه الولاة عقابًا شديدًا ليصمت ولم ينطق بكلمة يبرر بها نفسهُ ولم يشكُ من عقاب بل لبث يصرخ كالاول قائلاً : الويل للمدينة الويل للهيكل : فاخذوه حينئذٍ الى الوالي الروماني فامر عليهِ بالضرب فضربوهُ ضربًا شديدًا بالقضبان فلم يلتمس عفوًا قط ولم تخرج من مقلتيهِ قطرة من العبرات بتة مع كل ما كان يقاسيهِ من الم الضرب بل على كل ضربة يُلطم بها كان يكرر قولهُ الاول ويزيد في الاكتئاب : الويل لاورشليم : وكان يزداد صراخهُ ايام العيد ولما كانوا يسالونهُ من انت ومن اين اتيت وما قصدك بهذا الصراخ لم يكن يجيب بكلمة قط بل ما زال يداوم

على الصراخ بعزم كالاول حتى حسبوه مصابًا بالجنون فاطلقوا سبيله ولم يكف عن هذا الكلام ولحظوا ان الصراخ الشديد المتواصل لم يضعف صوته بتةً فلما نصب الحصار على اورشليم كان داخل المدينة يطوف حول اسوارها وهو يصرخ بكل قوى حنجرته قائلاً : الويل للهيكل الويل لاورشليم الويل للشعب : ثم قال اخيرًا الويل لي وفي الحال اصيب بحجر مرشوق بآلة فقتل به

ولعمري ان انتقام الباري تعالى من اورشليم وشعبها استعلن جليًا بهذا الانسان اذ لم يبقَ في قيد الحيوة الاَّ لينذر باحكام العلي الذي ايده بقوته ليعبر بصراخه عن نوائب الشعب ولم يكن نبيها فقط بل وشاهدها وفريستها ايضًا بموته لكيما يبين جليًا توعدات الباري تعالى ويقرّب رويتها فهذا النبي تنبي دواهي اورشليم وكان اسمهُ يسوع دليلاً على ان اسم يسوع اسم الخلاص والسلام اقتضى ان يصير دلالة الرزايا لليهود الذين ازدروا به في اقنوم مخلصنا وان هولاء الكفرة لما انكروا يسوع الذي جاء ينذرهم بالنعمة والرحمة والحيوة ارسل الله لهم يسوعًا اخر ينذرهم بشرور لا علاج لها وبالحكم المحتوم على هلاكهم المريع

الفصل الثامن

في دمار اورشليم

سنة ٧٠ للمسيح

ان اليهود اذ كان يشق عليهم حمل نير الرومانيين عصوا عليهم وكان هذا التمرد علة دمارهم . فخرج عقلاء الامة من اورشليم لعلمهم بما اوشك ان يحلّ فيها من المصائب وحينئذٍ خرج المسيحيون منها وتوجهوا الى قرية بيلاَّ التائمة في وسط جبال سورية كما كان امر الرب تلاميذه لما تنبأ لهم على خراب الهيكل فلما انتشب القتال بين الرومانيين واليهود سكان اورشليم وقعت اولاً الدائرة على الرومانيين فازداد العصاة جرأة اما فسباسيانوس فتسلم ادارة الحرب وضرب اليهود فاستظهر عليهم حالاً ووقع الانقسام بينهم وتحزبوا احزاباً مختلفة في المدينة وارتكبوا اقبح المظالم فكانت هذه المدينة التعيسة تضايقها البلايا من جهتين ففي داخلها كان التحزب يهلكها وفي الخارج كانت جنود الرومانيين تخنقها فلما علم فسباسيانوس ما كان في داخل اورشليم ترك اليهود ان يفني بعضهم بعضاً ليستسهل عليهِ بلوغ ماربهِ . فلما اقيم وقتئذٍ ملكاً كلف ابنهُ طيطوس تكميل الحصار فاتى طيطوس بالعسكر محلاً يبعد عن

اورشليم ميلاً واحدًا وسد جميع منافذ المدينة وحيث قد قرب حينئذٍ عيد الفصح اجتمع في المدينة جمهور غفير من اليهود وفي برهةٍ وجيزة نفذ كل ما عندهم من ذخر الاكل واشتد الجوع عليهم فكانت الاحزاب حينئذٍ يثبون على البيوت وينبشونها ليجدوا طعامًا وكل من خبأ قوتًا عذبوه عذابًا فادحًا ليبينه . فقد أُلجئ الكثيرون من اهل المدينة الى ان ياكلوا كلما يجدونهُ ويخاصم بعضهم بعضًا عليهِ ويخطفون الخبز من الاطفال ويضربونهم بالارض ليفلتوه من ايديهم ومع هذا لم تنثنِ العصاة عن غيهم تجاه هذه النكبات بل كانوا يزدادون غضبًا وعنادًا في مقاومة الحرب

فلما استولى طيطس على القلعة المسماة انطونينا تقدم بالجيوش الى الهيكل وتسلم الرواقين الخارجين فحينئذٍ تفاقمت المجاعة جدًّا حتى انصاعوا من شدتها الى ان ينبشوا في سراديب النجاسة ويأكلوا الاقذار المنتنة . وكانت امراة ضايقها الجوع واستحوذ عليها اليأس فاخذت بين يديها طفلاً لها يرضع ونظرت اليهِ شذرًا قائلةً لهُ ويلك ايها الطفل لماذا ابقيك في الحيوة لتهلك جوعًا او تصير عبدًا للرومانيين قالت هذا وللوقت ذبحته وشوت لحمانه على النار واكلت نصفها وخبأت ما بقي فلما اشتمت الناس رائحة المشوي دخلوا بيتها وتوعدوها

بالقتل ان لم تبين لهم ما اخفته فحينئذٍ قدمت لهم ما بقي من لحمان
ابنها فلما شاهدوه اقشعروا من هذا الخطب المريع وبهتوا
جامدين . اما هي فقالت لهم لا بأس اذا اكلتم هذا من بعدي فهذه
لحمان ابني وانا قتلتهُ بيدي ولستم انتم ارق من امراة ولا احنّ من
والدة . فخرجوا من البيت وفرائصهم ترتعد فرقًا وكان طيطس
امر بضرب سور الهيكل الثاني وحرق ابوابه الّا انهُ امر بحفظ
جزء الهيكل ولكن جنديًا من الجنود الرومانيين اتاه الهام الهي
على ما روى يوسيفوس المؤرخ فاخذ جذوة من النار ورفعهُ
رفاقه عن الارض فالقاها في محل متصل بالهيكل ففي الحال
اضطرمت النار ودخلت الهيكل فافنتهُ برمتهِ ولم يستطع طيطس
ان يخمد سعيرها فقتل الرومانيون كل من وجدوه في المدينة
والقوا في النار كل ما شاهدوه وهكذا تمت نبوة يسوع المسيح فان
طيطس نفسهُ اقرّ ان هذا الظفر لم يكن عملهُ بل انهُ كان آلةً
للنقمة الالهية . فهلك في هذا الحصار الف الف ومائة الف انسان
من سكان المدينة والذين بقوا من هذه الامة التعيسة تبددوا في
كامل اصقاع المملكة . فمن عساه لا يرى ان هذه النكبة المهيلة
هي عقاب عدل الله لليهود عما انزلوه من الاهانات والعذاب في
المسيح . اي نعم ان مدنًا كثيرة غير اورشليم حاصرتها الاعداء
حصارًا شديدًا وضايقتها الجاعة الّا انهُ لم يرَ قط اهلوها يصلون

نيران الحرب فيما بينهم باضرام هكذا شديد ويقتتلون اقتتالاً افظع من اقتتال الاعدا لعمري ان هذا الخطب لم يسبق له مثال في الدنيا ولا يكون له نظير قط الآن كان واجباً لتحقيق نبوة يسوع المسيح ولموازاة عقاب اورشليم للذنب الذي ارتكبته بصلبها الهها فالذنب كان فريداً لم يكن له مثيل في الماضي ولا يكون له في المستقبل

الفصل التاسع

في الاضطهاد الثاني على عهد الملك دوميسيانوس

سنة ٩٣ للمسيح

ان الحروب التي ثارت بين الملوك خلفاء نيرون واخلاق فسباسيانوس وطيطس المشعرة بالسلم اعطت راحةً للمسيحيين الى ان شرع دوميسيانوس خليفتهما بالاضطهاد الثاني العام فكان لهذا الملك كل ما كان لنيرون من الرذائل ومن ثم فقد اقتفى اثره ايضاً ببغضته للمسيحيين واصدر امراً في هدم كنيسة الله التي كانت منشاة في امصار عديدة فكان الله سبحانه انذر عبيده بهذا البلا قبل حلوله ليتاهبوا له باتقان الورع والتدين. وقد تُعرَف شدة هذا الاضطهاد من كيفية معاملة الملك للاشخاص

الممتازين ولاقربائهِ انفسهم اذ انهُ قتل الوالي فلافيوس كليمنص ابن عمه ونفى دومبنيلا زوجته لتنصرها ثم ان اثنين من عبيده وهما ناري واكيلا قاسيا عذابات شتى ثم قُطع راساهما لاعتناقهما الديانة المسيحية وقُتل كثيرون غيرهما وسلبت اموالهم لهذا السبب نفسه ومن جملة الذين اشتهروا بالاستشهاد مار يوحنا الرسول فقبضوا عليهِ واتوا بهِ الظالم فارسله الى رومية وهناك وضعوه في قدر زيت يغلي فلم يؤذهِ لان يسوع المسيح الذي حبه بمعزلٍ عن باقي الرسل منحه مجد الاستشهاد كالاخرين الاَّ انه لم يشاء ان يسلط البشر على تقصير حياتهِ الثمينة وهكذا تمَّ ما كان تنبأ ربنا عنه اي انه سوف يشرب كاسه فهذه المعجزة حدثت بالقرب من المكان المدعو الباب اللاتيني حسب التسليم الذي حفظ في رومية ويُرى الى الان بناية شهيرة وقديمة جدًّا في ذاك المكان وهي كنيسة اشادها المسيحيون على اسمهِ ليخلدوا ذكر هذه الواقعة

فعقب نجاة يوحنا من الموت بمعجزة باهرة نفاه دوميسيانوس الى جزيرة بطمس وهي احدى جزر بحر اجي وهناك كتب الرؤية التي اوحاها الله اليهِ وهو بعيد عن ضوضاء العالم وارسلها نبوات الى اشهر كنائس اسيا لاسيما الكنائس المستودعة لعنايتهِ فبعد ما اعطى في الكتاب الالهي النصائح اللازمة كلاًّ منهنَّ تنبأ

وهو مستنير بالروح القدس بصور سامية عن دثار عبادة الاوثان وانتصار الكنيسة . فلما توفي الظالم الغى مجالس الندوة كل ما كان عملهُ وعاد ماريوحنا الى افسس وبقي فيها الى منتهى حياتهِ يسوس جميع كنائس أسيا ولهُ وقتيئذٍ من العمر تسعون سنة ومع هذه الشيخوخة لم يكن يمتنع عن الذهاب الى الاقاليم المجاورة تارةً ليسيم عليها اساقفة وتارةً ليشيد فيها بيعًا جديدة وفيها كتب انجيله اجابةً لطلب اساقفة اسيا الذين سالوهُ ان يأدّي شهادة صحيحة خطًا بالوهية يسوع المسيح حيث كان قوم من الاراطقة ينكرونها فصنع ذلك بعد ما صام اياماً واستمد الدعاء من الكنيسة وفي الوقت عينهِ كتب رسائله المشعرة في جميع اياتها باحسن المحبة فيبان منها ان قلبهُ كان مضطرماً بهذه النار الالهية التي اقتبسها من قلب المخلص وهو متكٍ على حضنه في العشاء السري فالاولى موجهة الى البرتيين والاثنتان الاخريان الى انفار خصوصيين فلا يسمي نفسهُ فيها رسولاً بل شيخاً كما كانوا يسمونه وقتئذٍ بالاجمال

الفصل العاشر

في اعمال مار يوحنا الاخيرة

رووا عن مار يوحنا قصة مشعرة بالتخشع ومعربة عما كان عليهِ من حرارة المحبة قالوا: انه بعد ما وعظ ذات يوم في احدى مدن اسيا لمح في بهرة الجمع شابًا حسن الخلقة وذكي الفهم فاحبه واوصى بهِ الاسقف امام الجمع قائلاً لهُ: اجعل اهتمامك بهذا الشاب فاني استودعكهُ بحضرة الكنيسة ويسوع المسيح: ثم عاد الى افسس واخذ الاسقف يعلم الشاب المذكور ويأهبه الى اقتبال العماد فعمدهُ وثبته وناوله سر الافخاريستيا وبعد ذلك رأى ان يتركهُ لامر نفسهِ فكف عن السهر عليهِ واطلق لهُ عنان الحرية اما الشاب فاساء العمل بها وعقد صداقة مع ذوي الخلاعة فحملوهُ على ان يرتكب معهم جميع انواع الاثام والفواحش فالتوى الشاب منقادًا الى تاثيرات العشرة السيئة بل فاق اقرانه بالفساد وصار زعيم اللصوص فلما مضى على ذلك بعض اعوام عاد مار يوحنا الى المدينة نفسها وطالب الاسقف بالوديعة فتعجب هذا ظانًا انه يطالبه بوديعة مال. فعند ذلك قال لهُ الرسول: انني اطالبك بالشاب الذي اودعتكه بنفس اخينا في الايمان: فطرق الاسقف نظره في الارض واجابهُ قائلاً: انه مات. فقال له يوحنا

وكيف مات . فقال لهُ الاسقف مات عن الباري تعالى اسي صار شريرًا ولصًّا وهو مقيم باحد الجبال مع جماعة من الاشقياء نظرائهِ . فلما سمع الرسول هذا الكلام صاح قائلاً : ائتوني بفرس وقائد : وفي الحال خرج من الكنيسة طالبًا المكان حيث كانت اللصوص فلما بلغ اليهِ قبضت عليهِ خفراؤهم واتوا بهِ زعيمهم وكان هذا ينتظر قدومه اليهِ ليقتله . اما الشاب فلما عرف مار يوحنا التحف برداء الخجل وفرَّ هاربًا من امامهِ اما الرسول فنسي حينئذٍ ما كان عليهِ من ضعف القوى لسبب شيخوخته واخذ يسير في اثره ركضًا ويصيح بهِ قائلاً : يا ابني ما بالك تهرب من وجه ابيك وهو شيخ لا سلاح معهُ يا ابني ارحمني ولا تخف ضرًّا فلا يزال الرجاء بخلاصك وانا كفيلك عند يسوع المسيح وادفع حياتي لاجلك طوعًا كما دفع يسوع حياته لاجلنا قف مكانك وايقن ان يسوع المسيح ارسلني اليك : فلما سمع اللص هذا الكلام وقف وهطلت العبرات من مقلتيهِ وشرع يبكي بكاء مرًّا فعند ذلك عانقه الرسول وطمن قلبه واعدًا اياه بنوال الصفح عن اثامهِ من المخلص ثم اتى بهِ الكنيسة وصلى لاجلهِ وصام معهُ وكان يحدثه بما فيهِ بنيانه الروحي ولم يتركه قط حتى اعاده الى شركة الاسرار المقدسة

وقد عاش مار يوحنا مائة سنة ولم تكن شيخوخته مكدرة

نكان يروم ان تؤخذ اوقات للتنزه بما لا ذنب فيهِ وقد اعطى
عن نفسه مثالاً في ذلك فانهُ بينما كان ذات يوم ينشرح بملاعبة
حجل داجن صادفه قناص وتعجب من تنازلهِ وهو رجل كبير الى
مثل هذا التنزه فقال لهُ الرسول : ما هذا الذي في يدك : فاجابه
القناص : هذا قوس : قال لهُ الرسول لماذا لا تبقيها موترةً دائمًا :
قال لهُ القناص : ان دام وترها مشدودًا فينقطع : اجابه
الرسول : فلهذا السبب اريح نفسي بعض الاوقات

الفصل الحادي عشر

في الانقسام الذي جرى في بيعة قورنثية

ولما توفي ماربطرس خلفه مار لينوس مقلدًا زمام سياسة
الكنيسة ثم خلف ماركلاتوس للينوس ثم اكليمنضوس لكلاتوس
وهو اكليمنضوس الذي اتى ذكره في رسالة مار بولس الى اهل
فيلبسيوس . ففي ايامهِ حدث شجس كبير في كنيسة قورنثية وذلك
ان بعضًا من العلمانيين ثارت فيهم روح التعصب فتطاولوا على
الكهنة وسعوا في عزل بعض منهم جورًا وعدوانًا فالبابا مار
اكليمنضوس كتب اليهم في هذا الصدد رسالةً موعبة خشوعًا

وارشاداً وهي اجمل ما وجد من اثار الكتابة في قدمية الكنيسة بعد الكتاب المقدس وهذا استهلالها : من كنيسة الله التي في رومية الى كنيسة قورنثية وللمدعوين والمقدسين بمشية الله ربنا يسوع المسيح النعمة والسلام من الله الضابط الكل بكثرات يسوع المسيح على كل منكم . وبعد ما ابان لهم شر الانقسام الذي كان وقتئذٍ ينجس بيعة قورنثية اراهم اجمل صورة السيرة المسيحية فقال: من ترى لم يكن يعتبر فضلكم وثباتكم في الايمان ومن لم يكن يتعجب من حسن تدينكم . فقد كنتم سائرين بناموس الله وكنتم محسنين الطاعة لرعاتكم والكرامة لمشايخكم وكنتم قدوة للشبان في الصلاح والاداب وتنذرون النساء بان يتصرفنَ في كل امر بضمير طاهر وعفيف محبات بعولهنّ كما ينبغي عليهنّ وثابتات في دائرة الرسوم والخضوع ومجدات في تدبير بيوتهنّ باعظم ادب وكنتم جميعاً محسنين الاتضاع بخلوص النية مائلين الى الطاعة اشد ميل مما الى الامر وللعطاء اكثر مما للاخذ راضين بما قسمه تعالى لكم لاجل سفر هذه الحيوة ومجدين في سماع كلمته وحفظها في قلوبكم وكان ناموسه دائماً نصب عيونكم ولهذا كنتم متمتعين باحسن سلام وراغبين اشد رغبة في عمل الخير وتبسطون اياديكم للعلي مستمدين منه تعالى الصفح عن اثام ضعفكم وانتم موعبون غيرةً وثقةً وسلامة نية وتقدمون صلواتكم

نهارًا وليلاً لاجل جميع اخوتكم لكيما يخلص عدد مختاري الله برحمته وبطهارة ضمائركم مخلصين النية ازكياء بلا غش ولا حقد تمقتون كل بلبلة وتكرهون كل انقسام وتندبون زلات قريبكم كما لو كانت زلاتكم وتصنعون كل نوع من الصلاح وتستعدون لكل عمل صالح فكانت هذه السيرة الفاضلة المستحقة الاكرام زينة نفوسكم

ثم ذكر البابا بازاء هذا التقريظ ما سببته الانقسام من الشرور فقال: اما الان فقد تسلط عليكم الحسد والمنازعة والفساد في ما بينكم: ثم اتى بنموذجات من اسفار العهد القديم وبين بها مفاعيل الحسد الشريرة وحرّض اهل قورنثية على اتقان التوبة والمحبة والاتضاع بنموذجات القديسين وباعتبار حسنات الله سبحانه واخيرًا بالرباطات المقدسة التي تعصم المسيحيين فقال: لماذا تملك المنازعات والمخاصمات فيما بينكم اليس لنا جميعنا اله واحد ومسيح واحد وروح نعمة واحد قد افيض علينا ودعوة واحدة بيسوع المسيح فلماذا نمزق جسدنا نفسهُ. العلنا حمقاء حتى ننسى اننا اعضاء بعضنا لبعض اذ قد افسد انقسامكم اناسًا كثيرين والقى الفشل في قلوب كثيرين واوعبنا جميعًا غمًا فانزعوا سريعًا هذه العثرة من بينكم وانطرحوا على اقدام المخلص متوسلين اليه بدموع ليغفر لنا ويثبتنا في المحبة الاخوية. ولعمري

قد جاءت هذه الرسالة بمفعولها طبق رغبة البابا القديس فنال التعزية في انهاء الانشقاق الذي كان يمزق تلك الكنيسة

الفصل الثاني عشر

في الاضطهاد الثالث في ايام الملك ترايانوس
سنة ١٠٦ للمسيح

ان الاضطهاد الثالث ابتدأ في ايام حبرية البابا مار افاريستوس الذي خلف لاكليمنضوس. نعم ان هذا الاضطهاد كان اقل قساوة من الاولين الا انه قد طالت مدته اكثر منهما واستشهد فيهِ شهداء كثيرون جدًّا فالملك ترايانوس ساعد على اجراء القساوة البربرية في المسيحيين مع ان المؤرخين قد اثنوا على حكمتهِ وحلمهِ. فلم يصدر اوامر جديدة باهلاك المسيحيين الاَّ انهُ اراد ان الاوامر التي اصدرها سلفاؤهُ يُعمل بموجبها في امصار المملكة. وبقي لنا اثار شهيرة لهذه الواقعة في جواب هذا الملك لبيلينوس الثاني والي بيتينيا فكان بيلينوس ارسل الى ترايانوس يسأَلهُ عن كيفية التصرف الواجب مع المسيحيين وقرَّر انهم لم يوجدوا مجرمين بذنب بتةً. بل كل ضلالهم قائم في انهم يجتمعون في يوم معلوم قبل بزوغ الشمس فيرتلون مجوقين التسابيح اكرامًا

للمسيح الذي اتخذونهُ الهًا ويتعهدون بقسم الاَّ يرتكبوا ذنبًا بل الاَّ يتورطوا قط في سرقةٍ او فسق او نكث بمواعيدهم او انكار وديعة على وادعها فلم اجد في عبادتهم الاَّ تحفظًا رديًا محمولاً على الغلو ولهذا قد توقفت عن العمل حتى تاتيني الاوامر من دولتكم. لان المسئلة تستلزم التبصر بها لكثرة الذين دخلوا تحت طي هذه الشكوى لان عديدهم كثير وهم من كل عمرٍ وجنس ومقام فهذا الوبآء لم يعم المدن فقط بل استولى ايضًا على القرى والدساكر فلما وصلت الى بيتينيا وجدت هياكل الهتنا مهجورة واعيادنا معطلة ويكاد يوجد من يشترى الذبائح

فيظهر من هذه الرسالة الواردة من والٍ وثني ما اكثر ما قد كانت اتصلت اليهِ الديانة المسيحية من التقدم والنمو في اواخر الجيل الاول وما كان عليهِ المسيحيو ن من طهارة السيرة وحسن الاداب. ولعمري ان هذه الشهادة من كونها صادرة من فم المضطهد نفسهِ ببرارة المسيحيين هي ذات فخر جزيل للديانة. اما ترايانوس فاجابهُ بانهُ لا ينبغي البحث عن المسيحيين ولكن اذا اشكوا وقرروا هم انفسهم جهارًا بانهم مسيحيون فينبغي وحينئذٍ ان يعاقبوا بالقتل. لعمري ان هذا جواب لا يطاق سماعهُ لخلوهِ من اثر الصواب ولما فيهِ مما يوجب التعجب من جهة ملك ذي اعتبار. ليت شعري ان كان المسيحيون مجرمين فلماذا ينهي

عن البحث عنهم وان كانوا ابرياء فلم يعاقبون بالقتل . ما اقصر معارف البشر حينما لا يكونون مستنيرين بنبراس الايمان وما انقص عدلهم واضلهُ

فقتل هذا الملك مسيحيين كثيرين ومن جملة الذين قاسوا الاستشهاد في بداية الامر مار سمعان احد اقرباء الرب يسوع فهذا كان اسقفًا على اورشليم ولهُ من العمر مائة وعشرون سنة فشكوه للوالي بما انهُ مسيحي ومن اصل داود فلهذين السببين اذاقوه عذابات مختلفة فاحتملها بجلاد عظيم فكان جميع من حضروا تعذيبهُ يتعجبون من مشاهدتهم عزمًا وجلدًا هكذا عظيمين في شيخوخة هرمة . اخيرًا حكم عليهِ بالصلب فحاز مجدًا بدفع حياتهِ لاجل يسوع المسيح مائتًا بالعذاب نفسهُ الذي مات بهِ معلمهُ الالهي

الفصل الثالث عشر

في حكم ترايانوس على مار اغناطيوس بالموت

ان الملك ترايانوس ليس فقط ترك الولاة يضطهدون المسيحيين بل هو نفسهُ ايضًا انزل الاضطهاد فيهم فلما جاء بانطاكية ماضيًا لمحاربة الفرس استدعى اليهِ مار اغناطيوس الملقب

بالتاوفورس اسقف تلك المدينة واخذ يخاطبهُ قائلاً : أأنت تجسر كشيطان رجيم ان تخالفني في اوامري وتغرّ الاخرين على اهلاك نفوسهم . فاجابهُ اغناطيوس : ايها الملك ما من احد غيرك سمى تاوفورس شيطاناً رجيماً (نوَّه بذلك الى معنى لفظة تاوفورس التي تاويلها في اليونانية حامل الله) فضلاً عن ان عبيد الله ليسوا باباليسة فاعلم ان الشياطين يرتعدون منهم فرقاً وينهزمون من سماع صوتهم: فقال لهُ الملك: ومنو تاوفورس هذا : قال لهُ اغناطيوس : انا هو وكل من يحمل يسوع المسيح في قلبهِ : قال الملك : افتظن اننا لا نحوي في قلوبنا الهة تقاتل عنا : قال اغناطيوس : انك في غرور ايها الملك والهتك ليسوا الاَّ اباليسة فلا اله الاَّ الاله الواحد الخالق السماء والارض ولا يوجد الاَّ يسوع المسيح وحده ابن الله الوحيد الذي اتوق الى مملكتهِ : قال لهُ الملك : العلك تعني بقولك يسوع الذي علقهُ بيلاطس على الصليب : اجابهُ اغناطيوس : ينبغي ان يقال بالحري ان يسوع هذا علق على التمليب الخطية وصانعها . ومذ ذاك اعطى الذين يحملونهُ في قلوبهم سلطاناً على ان يسحقوا الجحيم وقوته : قال لهُ ترايانوس : أأنت اذاً حامل يسوع في احشائك . اجابهُ اغناطيوس : لا ريب في ذلك لانهُ قيل احلّ بينهم واسير معهم : فلما أفحم ترايانوس باجوبة مار اغناطيوس السديدة اخرج عليهِ

هذا الحكم قائلاً : اننا نحكم بان اغناطيوس المتباهي بحمل المصلوب في نفسهِ يُكبل بالقيود ويؤتى بهِ رومية صحبة خفراء ليطرح للوحوش ويصير مشهدًا للشعب

فلما سمع اغناطيوس هذا الحكم هتف هتاف الفرح قائلاً : اشكرك يارب لانك منحتني حبًّا كاملاً لك وشرفتني بالقيود التي شرفت بها سابقًا ماربولس المعظم رسولك قال هذا وتقدم من تلقاء نفسهِ الى القيود وصلى لاجل الكنيسة واستودعها الله سبحانهُ بدموع غزيرة . ثم اسلم نفسهُ لشرط ذوي قساوة وحشية ازمعوا ان يأتوا بهِ رومية ليجعلوهُ فريسةً للوحوش الضارية ونزهة للشعب . فاذ كان اغناطيوس متعطشًا لسفك دمهِ لاجل يسوع المسيح اسرع بالخروج من انطاكية ليأتي سيلوقيا ويسافر من هناك بحرًا الى رومية فبعد ما قاسى اخطارًا واتعابًا جسيمة في سفرهِ اقبل الى ازمير فحالما نزل الى البر بادر الى القديس بوليكربوس الذي كان اسقف تلك المدينة وتلميذًا لمار يوحنا الرسول مثله فتفاوض معهُ مفاوضة روحية محضًا واظهر لهُ اغناطيوس ما كان عليهِ من السرور لتغلله بالقيود لاجل يسوع المسيح وكان في ازمير وفود من قبل جميع الكنائس المجاورة فاقبلوا يسلمون عليهِ متلهفين للاشتراك بالنعمة الروحية الموعب قلبهُ منها فناشدهم القديس الاسقف جميعًا ولاسيما ماربوليكربوس

ان يقرنوا صلواتهم مع صلواتهِ ليمنّ الله سبحانهُ عليهِ بالموت لاجل يسوع المسيح ثم كتب من هناك الى جميع كنائس اسيا رسالةً موعبة من الروح الرسولي ثم خاطب الوفود الذين اتوا ليسلموا عليهِ واستحلفهم بالأَّ يعيقوهُ في مسيرهِ لكيما يسرع بالمضي الى يسوع المسيح بطريق اسنان الوحوش التي كانت تنتظرهُ لتفترسه

الفصل الرابع عشر

في رسالة مار اغناطيوس الى مؤمني رومية

ولما كان القديس اغناطيوس يخشى من ان يصدَّ المسيحيون الذين كانوا في رومية عن نوال مرغوبهِ في احتمال الموت لاجلهِ تعالى سبق لهم اناسًا افسوسيين واصحبهم برسالة بديعة ينهيهم بها عن المحاولة في انقاذه من الموت ففي ابتدائها يبين لهم ما كان عليهِ من السرور والامل في مشاهدتهم عن قرب ثم يناشدهم بالفاظ سديدة وموعبة خشوعًا بالأَّ يعدموهُ مفعول رغباتهِ بمنعهم اياه بواسطة نفوذهم عن ان يُذبح شهيدًا ليسوع المسيح فقال لهم : انني اخشى محبتكم واخاف من انكم تحبوني حبًّا بشريًّا فربما يسهل عليكم ان تمنعوا الموت عني ولكن ان مانعتم

موتي تنافعون سعادتي فان كنتم تحبوني محبة مخلصة دعوني امضي لا تمتع بالهي فهذه فرصة لي للاتحاد به لا يكون لي اوفق منها فرصة ولا يكون لكم سعة احسن منها المباشرة عمل صالح فحسبكم سعياً لاجلي ان تستكنوا مرتاحين اذا لم تختطفوني من ايدي الجلادين امضي للاتحاد مع الهي ولكن اذا جنحتم لتاثير شفقة محزنة اعدتموني الى التعب وادخلتموني ثانية في مضمار الجهاد فاذنوا لي اذاً ان اذبح حيث قد أُعدَّ المذبح بل استمدوا لي بدعاكم الباس الواجب لي لكيما اقاوم الوثبات الباطنة واطرد الخارجة . فامر زهيد هو ان يظهر الانسان مسيحياً ان لم يكن كذلك حقيقةً فالذي يجعل الانسان مسيحياً لا الكلام ولا الظواهر بل شهامة النفس والثبات في الفضيلة

قد كتبت الى الكنائس انني ماضٍ الى لقاء المنون بفرح بشرط الاّ تصدوني عن ذلك فانني اناشدكم ايضاً بالاّ تودوني مودةً تاول لمضرتي دعوني اصير ماكلاً للاسد والدباب لعمري ان هذا اخص طريق للوصول الى السماء . فانني حنطة الباري تعالى ينبغي ان اطحن لاصير خبزاً اهلاً لان يُقدم ليسوع المسيح فاومل ان لدى وصولي الى رومية اجد وحوشاً ضارية متأهبة لافتراسي ليتها لا تطيل تشوقي فانني اوانسها اولاً لكيما تمزقني ارباً اربا فان لم تتجه هذه الطريقة اهيجها لتعدمني الحيوة

اسالكم الاَّ تواخذوني على هذه الافكار فاعلم بما فيهِ فائدتي وقد ابتدأت ان اكون تلميذًا حقًّا ليسوع المسيح ولست مباليًا بشيءٍ في الدنيا بتةً ولاشيء يهمني الاَّ الامل في امتلاكهِ تعالى ان افنتني النيران وحوّلتني رماد او علقت على الصليب متجرعًا كاس ميتة بطيئة او اطلقت عليَّ النمورة الكاسرة والاسد الضارية وكسرت عظامي وهشمت اعضاءي وسحقت جسدي برمتهِ او افرغت جميع الابالسة رجزهم عليَّ فانني محتمل كل ذلك بفرح بشرط ان اتمتع بيسوع المسيح لان ملك العالم باسره لا يصيرني سعيدًا وانه لاسعد لي بما لا يُحد ان اموت لاجل يسوع المسيح مما ان املك على المسكونة باسرها لان قلبي تائق الى من مات لاجلي ونفسي مشتاقة لمن انبعث من الموت لاجلي فهذا ما اومل نواله بدل حياتي دعوني اقتدي بالام الهي ولا تمنعوني عن الحيوة بمنعكم اياي عن التالم

فمن كان فيكم ناقلاً الله في قلبهِ يسهل عليهِ ادراك ما اقوله وان كان مضطرمًا بذات النار التي تغنيني برق لعذابي. فقد حملتني رغبتي الشديدة في الموت على ان اكتب لكم ذلك لان موضوع حبي الوحيد قد عُلق على الصليب وحبه لي يبتغي ان أُعلق نظيره . فالنار المضطرمة فيَّ والمضيقة عليَّ لا تحتمل ادنى امتزاج ولا ادنى تلطيف بضعف معبرها فالحيّ والمتكلم فيَّ لا

يزال يقول لي في عمق قلبي : هلمَّ سريعاً الى ابي : فلم يعد لي لذة بكلما تبتغيهِ البشر فان الخبز الذي اريدهُ هو جسد يسوع المسيح المسجود لهُ والخمر الذي اشتهيه هو دمه الزكي هو الخمر السماوي الذي يضرم في القلوب ناراً حية خالدة لمحبة لا تفسد فانني زاهد في العالم ولا احسب نفسي فيهِ بين الاحياء . اذكروا بصلواتكم كنيسة انطاكية التي اذا ما فقدت راعيها توجه امالها نحو الراعي السامي لجميع الكنائس واسال يسوع المسيح ان يسوسها في غيابي فانني استودعها عنايته ومحبتكم (انتهى)

فلا حاجة الى القول ان روح الله هو المتكلم بهذه الرسالة وانهُ ليس هذا الكلام مجرد كلام انسان

الفصل الخامس عشر

في جهاد مار اغناطيوس
سنة ١٠٧ للمسيح

وبعد ما مكث اغناطيوس بعض ايام في ازمير سافر من هذه المدينة واسرعت الشرط بهِ الى رومية حيث قد كان دنا الزمان المعين للفرج فارسوا في ترواد ثم جازوا مكدونيا فوجدوا في

احدى اساكل ابيرا مركباً ماهباً للسفر فانزلوا فيهِ اغناطيوس واتوا بهِ بحر توسكانا وكانت الريح توافق تلهف الشهيد فبلغ المركب نهر التيبر الذي يجوز رومية فلما ذاع خبر وصوله تقاطر المؤمنون في رومية لملاقاته فكانوا فرحين بمشاهدته ومحادثته لكن فرحهم كان منغصاً بالحزن لعلمهم بانه مستاق للقتل فاعرض قوم ان يرشوا الشعب كما كان يتوقع ذلك احياناً ليحفظوا حياة هذا الشيخ الجليل اما الاسقف فقد خاطبهم بعزم واستحلفهم بثبات هذه صفته بالاَّ يعدموه السعادة ليمضي اليهِ تعالى سريعاً حتى ارتضوا الطلبته فانطرحوا جميعاً جاثين على ركبهم امامه فرفع يديهِ فوق رؤسهم وباركهم وسال يسوع المسيح ان ينهي الاضطهاد ويرد السلام لكنيستهِ ويحفظ المحبة المتبادلة في قلوب المؤمنين فلما انتهى من صلاتهِ اتت الجنود بهِ الى محل الفرجة

وكان وقتئذٍ في احد الايام المخصصة عند الوثنيين للاعياد المسماة اعياد الختام فتقاطرت اليهِ جميع سكان المدينة فلما دخل القديس منتع العذاب سمع زئير الاسد فلم يرتعب قط ولم يتزعزع ثباته ولم يرتخِ عزمهُ البتةّ بل بالعكس كانت طلعته وهيئته تشيران على الرضى والسرور والسكينة في قلبهِ فلم ينتظر الموت زماناً طويلاً لان اسدين وثبا عليهِ في الحال وافترساه ولم يبقيا من جسمهِ الاَّ العظام الكبيرة فجمعها المؤمنون بكل احترام وارسلوها

الى انطاكية ككنز لاثمن لهُ وكانت تعزية عظمى لجميع الاماكن التي جازت بها هذه الذخائر المقدسة فوضعت في صندوق ودُفنت في مقبرة بالقرب من باب المدينة فختم المخبرون كلامهم عن هذا الجهاد قائلين : اننا قد كنا نحن انفسنا شهودًا لهذه الميتة المجيدة وسكبنا لاجلها العبرات السخينة من مقلنا واقمنا الليل كله بالسهر والصلوة متوسلين الى الرب ونحن جاثون ركعًا امامه ليشدد ضعفنا فظهر لنا الشهيد بهيئة مجاهد خرج ظافرًا من القتال ممجدًا وكان قائمًا امام الرب مكللاً بمجد لا يوصف فامتلأت قلوبنا فرحًا واسدينا الشكر لله سبحانه صانع كل خير وباركناه لاجل السعادة التي منحها لعبده فنعين لكم يوم وفاته ليمكننا ان نجتمع كل عام لتكريم جهاده في اليوم الذي فيهِ نال اكليل الجهاد املاً بالاشتراك يومًا بنصرة هذا المجاهد المجيد الذي داس ابليس باخمص قدميهِ بمعونة ربنا يسوع المسيح الذي لهُ المجد والقدرة مع الآب والروح القدس الى دهر الداهرين امين



الفصل السادس عشر

في مدافعة مار يوستينوس عن الديانة المسيحية

سنة ١٥٠ للمسيح

فبينما كانت الشهداء القديسون يشهدون شهادة باهرة للديانة المسيحية بسفك دمائهم كانت العلماء القديسون يدافعون عنها بمحاماة بليغة في الحجج واول ما اتصل الينا من رسالات المدافعة رسالة مار يوستينوس فلم يخشَ ان يضع اسمه في اولها وان يقدمها للملك انطونينوس ولابنيهِ مرقس اوراليوس وكومودوس . فولد مار يوستينوس في مذهب الوثنية واعتنق الديانة المسيحية ولهُ من العمر ثلثون سنة بعد ما فحصها فحصاً جيداً وامعن التبصر فيها مستنداً على حجج راهنة . فثبات الشهداء وجلدهم ملأاه تعجباً وفتحا عيني عقله ثم اقنعته مطالعة الصحف المقدسة لاسيما النبوات بصحة الديانة المسيحية . ففي رسالته هذه يتوسل الى الملك ان يحكم بموجب الافعال لا لمجرد التسمية على الذين أُشكوا لهُ بما انهم مسيحيون ولا ان يقضي عليهم لمجرد كونهم مسيحيين . فقال : نرجوك ايها الملك الاَّ تصيخ اذناً الى صوت الاغراض ولا الى الاشاعات الكاذبة لتخرج احكاماً توجب عليك الملامة لانها لا تقدر ان تضر بنا حتى ولو اعدمتنا الحزبية

والحيوة فليجرِ الفحص المدقق على الذنوب التي نقرف بها فان ثبتت علينا فلنعاقب لاجلها ولكن اذا لم نوجد مجرمين بذنوب بتةً فيقتضي الصواب المستقيم ألاّ تُظلم الابرياء فكيف يعدوننا كفرة ونحن نعبد الاله الحقيقي الاب الازلي خالق كل شيء ويسوع المسيح ابنه الوحيد الذي صُلب على عهد بيلاطوس البنطي والروح القدس الذي تكلم على لسان الانبياء

فلكيما يبين ان يسوع المصلوب هو اله حقًا قال : ان يسوع المسيح هو الصواب السامي الذي يغير تغييرًا كليًا الذين يعتصمون بتعليمهِ : ثم قال : كنا قبلاً متعبدين للشهوات واصبحنا اليوم نسير سيرة طاهرة عفيفة . كنا مغرمين في احتشاد الغنى واليوم نجعل كل مالنا مشتركًا لنشرك بهِ غيرنا كنا نبغض اعدائنا واليوم نحبهم ونصلي لاجلهم : ثم اورد بعض وصايا ادبية من وصايا يسوع المسيح فقال : ان تنازلتم الى فحص مبادينا وسيرتنا تاكدتم باننا احسن الرعايا خضوعًا وتاهبًا لحفظ السلم والسكينة العمومية . فلا يمكن لنواميسكم ولا لتعذيباتكم ان تردع الاشرار عن شرهم حيث يقدرون ان يخفوا عنكم الذنوب التي يرتكبونها اما نحن فاننا موقنون بان لا يخفى شيئًا عن اعين الله العتيد ان يدينا يومًا ما ويجازينا اجرًا او عقابًا حسب اعمالنا . فلا نعبد الاّ الله وحده ونطيعكم بفرح في كل ما سوى ذلك ونعرفكم ملكًا علينا وسيدًا

على العالم فلا نكف عن التوسل الى الله سبحانهُ لكي يمنحكم مع السلطان السامي روحًا مستقيمًا وسلوكًا مقرونًا بالحكمة

ثم شرع يثبت صدق الديانة المسيحية بالنبوات التي جُمعت وحُفظت على نظام الازمنة التي سطرت فيها ويعتمد بالخصوص على النبوة المتنبأة عن خراب اورشليم وتبدد اليهود ودعوة الامم وبعدما ابان نجاز النبوة الشهيرة الذي كان وقتئذٍ حديثًا وفيهِ دليل واضح على صحة النصرانية استنتج ان باقي النبوات لاسيما تلك التي تلاحظ مجيء يسوع المسيح الثاني والبعث والدينونة العامة تتم في اوانها . اخيرًا اخذ يدحض النمائم والتهم التي كانوا ينزلونها في اجتماعات المسيحيين فرأينا بكل تعزية مطابقة تامة بين ما رواه مار يوستينوس وبين ما يباشر عندنا : وانهى خطابهُ قائلاً : ان رايتم هذا التعليم صوابيًا اعتبروهُ كما يحق لهُ من الاعتبار وان لم يعجبكم فلا تعتنقوهُ ولكن لا تحكموا لاجلهِ بالقتل على اناس لم يصنعوا ادنى شر : فنال يوستينوس الحظ السعيد انهُ ختم بدمهِ الشهادة المشتهرة التي اداها للديانة المسيحية

الفصل السابع عشر

في الاضطهاد الرابع على عهد الملك مرقس اوراليوس
سنة ١٦٦

وكانت الكنيسة في ذلك العهد قد انتشرت في كامل اقطار المسكونة . فليس فقط قد عمت الشرق حيث نشأت اي فلسطين وسوريا ومصر واسيا الصغرى والاغريق بل استولت ايضاً في الغرب ما عدا ايطاليا على قبائل غاليا المختلفة واقاليم اسبانيا وافريقيا وجرمانيا و بريطانيا الكبرى. وامتدت الى الامصار التي لم تبلغها فتوحات الرومانيين فجازت تخوم المملكة ايضاً و بلغت ارمينيا والفرس والهند والشعوب البربرية السرماتيين والداسيين والسيتيين والموريين والجاتوليين حتى الجزائر المجهولة . فعمّ الدين المسيحي كل هذه الامصار لان دماء شهداء الكنيسة كان يؤتيها خصباً فاذ كان الملك مرقس اوراليوس حُمل على التغرض ضد المذهب المسيحي لما بلغه من الوشاية باهله اجرى شديد القساوة على من كان معتقداً به . فيظهر ان الاضطهاد كان شديداً جداً لكثرة الذين قاسوا الاستشهاد وقتئذٍ. فكان منشأه في اسيا واول ما اشتدت قساوته في ازمير فاتوا هناك بمسيحيين كثيرين ليعذبوهم واساقوهم الى

محكمة والي اسيا الذي كان مقيمًا بهذه المدينة فبعد ما اعترفوا
بيسوع المسيح اجروا عليهم جميع انواع التعذيب وقد رُوي
ذلك في رسالة ارسلها مؤمنو ازمير شهود جهادهم الى باقي
الكنائس في هذا الصدد قالوا فيها

ان هولاء الشهداء القديسين قد ضُربوا ضربًا عنيفًا
بالسياط حتى استبانت عروقهم واعصابهم واحشاؤهم وكانوا
في معمعان هذا النكال المهيل ثابتين غير متزعزعين وبينما كان
الحاضرون يتفطرون شفقةً عليهم فلم يسمع من جنود المسيح
هولاء ادنى صراخ ولا ادنى انين بل نراهم يشاهدون
الدماء تجري غديرًا من جراحاتهم العديدة ولم تتغير الوان
وجوههم من شدة العذاب وينظرون احشاءهم تخفق ولم يرتاعوا
ويتقدمون للعذاب بالسرور والابتهاج ويتالمون وهم صامتون
فلم يفتحوا افواههم الا ليباركوا الرب ويسبحوه كانهم لم يكونوا
في اجسادهم او كانوا بالحري منزهين عن الالام بالاصغاء
الى صوت يسوع المسيح الذي يناجي قلوبهم ومن فرحهم
بحضوره يزدرون بجميع العذابات ويعدون نفوسهم سعداء
لاجتناب العذابات الخالدة باحتمال عذاب بعض دقائق والنيران
التي يقاسونها كانت تستبين لهم بردًا بازاء تلك النيران
التي لا تطفى للابد لان عيون قلوبهم كانت شاخصة الى الخيرات

الفائقة طور العقول التي يحفظها الله سبحانه للنابتين خيرات لم تنظرها عين ولم تسمع بها اذن ولم يدركها قلب بشري لكن الله سبحانه كان يريهوها لانهم لم يعودوا بشرًا بعد بل ملائكة

فالذين حُكم عليهم بان يُطرَحوا للوحوش قد قاسوا عذابات شديدة في الحبوس وهم ينتظرون اليوم المعين لجهادهم فكانوا يبسطونهم عراةً مضمخين بالدماء على حجارة مسنونة ويجتهدون بكل انواع النكال في ان يوهنوهم ويكفروهم بيسوع المسيح لان الجحيم لم يدع طريقة الاَّ اخترعها ليحملهم على الكفر لكنه لم يقوَ عليهم بنعمته تعالى. فكان بينهم شاب يقال لهُ جرمانيكوس يشدد عزائم الاخرين بمثله فقبل ما طُرح للوحوش اخذ الوالي يخاطبه بشعائر الشفقة ويحثه على ان يرحم نفسه اما الشاب فاجابه بعزم وطيد انهُ يؤثر فقد حياته الف مرة على حفظها بخسارة برهٍ. ثم تقدم بكل باس الى اسد طالبًا الموت بين مخاليبه واسنانه فترك فيها سريعًا فضلات جسد مضمخة بالدماء وخرج من عالم لا تستنشق فيهِ الاَّ رائحة الكفر والرذائل فحنق الشعب عليهِ حنقًا شديدًا وسمع من المشهد ضجيج واصوات واناسٌ صارخين يقولون فلتعاقب الكفرة وليوتَ بالاسقف بوليكربوس - اه

الفصل الثامن عشر

في القبض على بوليكربوس اسقف ازمير

وكان الظالمون يطلبون بوليكربوس اسقف ازمير ليقتلوه واشتد عليه التفتيش مذ استنشاط الشعب غيظاً وطلبوا بضجيج عظيم ان يُدفع لهم. اما الاسقف فلم يضطرب بتةً ورام ان يبقى في المدينة لكن المؤمنين طلبوا اليه بمجاجة ان يخرج منها فاجاب طلبتهم وانحاز الى بيت لم يكن يبعد عنها كثيراً فلما كانوا مواظبين على البحث عنه بعد ايام قلائل جاز الى بيت اخر في الدسكرة فحال ما خرج منه دخل فيه المفتشون فلم يجدوه فقبضوا على شابين وعذبوهم ليقروا عنه فانغلب احدهما للعذاب ودلهم على المكان الذي كان فيه الاسقف فاته الرماة بالسهام وهم مدججون بالسلاح كانهم خارجون في اثر لص وكان وصولهم الى المكان المذكور نهار الجمعة وبوليكربوس راقدٌ وقتئذٍ في مخدع عالٍ وكان قديراً ان يفر منهم لكنه لم يشاء بل قال: فلتكن ارادة الله ونزل الى طالبيه واخذ يخاطبهم اما هم فلما شاهدوا شيخوخته وثباته. قال بعضهم لبعض: هل من الواجب ان نجدّ للقبض على هذا الشيخ الجليل. وشق عليهم تخوفهم هذا الامر المكروه. انما شق عليهم اكثر من ذلك فوات فرصة ارباح

ثانيهم حسب العادة من اجراء مثل هذه الاوامر. فترحب بوليكربوس بهم وصنع لهم غذاء فاخرًا فنال منهم زمنًا ليصلي صلاته فقام واقفًا مدة ساعتين يصلي لاجل الكنيسة وعيناه مرفوعتان للسماء فاذهل بتدينه جميع الحاضرين حتى اعداءه انفسهم

فلما حان زمان السفر اركبوه حمارًا واتوا بهِ المدينة واقاموه في المشهد حيث كان الشعب كله مجتمعًا ثم احضروه امام الوالي فاخذ يغريهِ بالامتحان لاوامر الملك لكي ينجي حياته فقال له : ارحم شيخوختك اتحسب انك تطيق عذابات ترعب فرائص الشبان الاشد باسًا من مجرد النظر اليها وكان الوالي يلح عليهِ قائلاً : العن المسيح وانا اطلق سبيلك : اجابه بوليكربوس لي ثمانون سنة اخدمه ولم يصنع معي شرًا بتةً فكيف يحل لي ان اجدف على ملكي الذي خلصني . ثم قال له الوالي : اقسم بحظ قيصر : قال له بوليكربوس : انك تتعب نفسك عبثًا ان كنت تجهل ما انا فاقول لك علانيةً : انا مسيحي وان شئت ان تعلم ما هو التعليم المسيحي فاطلعك عليهِ : فتوعده الوالي بان يطرحه للوحوش قال له الاسقف : ان اعظم فوزي هو الوصول الى البر الكامل بواسطة الالام : قال له الوالي : فمن كونك لا ترهب الوحوش الضارية احرقك حيًا : اجابهُ الاسقف : انك تتوعدني بنار تطفى

في هنيهة من الزمن لانك لا تعلم النيران الخالدة المعدّة للكفرة . فلا تبطئ في ما انت صانعه . اصنع ما يحسن لديك . وبينما كان يتكلم هكذا وقلبه موعب ثقة وسرورًا كان الوالي يندهل من النعمة المسكوبة على طلعتهِ . فصاح الشعب حينئذٍ قائلاً : فليطرح للوحوش هذا ابو المسيحيين وعدو الهتنا واذ انتهى زمن الملاعب العمومية حكم عليهِ الوالي بان يُحرَق حيًّا

الفصل التاسع عشر

في استشهاد بوليكاربوس

سنة ١٦٦ للمسيح

فحالما خرج الحكم اخذ الشعب كله يتقاطر افواجًا سائرين يطلب الحطب ليقيموا المحرقة فنزع الشهيد حينئذٍ منطقتهُ عن حقويهِ وتجرد من ثيابهِ وكمل مختار من بين قطيع برمتهِ صعد الى المحرقة كعلى مذبح ليذبح وكانوا مستعدين لان يغللوهُ حسب العادة بقيود من حديد اما هو فقال للجلادين دعوني على ما انا عليهِ فان الذي يايدني على احتمال النار يثبتني على المحرقة بدون احتياج الى قيودكم . فاكتفوا اذًا ان يربطوا يديهِ وراء ظهرهِ . فحينئذٍ رفع عينيهِ نحو السماء وتلا هذه الصلوة : ايها الاله القادر

على كل شيء ابا وربنا يسوع المسيح ابنك الحبيب الذي نلنا النعمة منهُ ان نعرفك اشكرك لانك اوصلتني الى هذا اليوم السعيد حيث اوشكت ان ادخل في شركة شهدائك واشترك في كاس ابنك لكي ابعث الى الحيوة الخالدة : اقبلني اليوم في حضرتك ضحية رضية . فانني اسبحك وابارككك وامجدك بالحبر الحي الازلي يسوع المسيح ابنك الذي معهُ يكون لك المجد وللروح القدس الان والى دهر الداهرين : فلما انتهى من صلاتهِ اضرموا النار في المحرقة فارتفع للوقت لهيب كبير وبمعجزة باهرة لم يمس قط جسم الشهيد بل احدق بهِ بهيئة قبة والشهيد في وسطها كالذهب في البودقة وتفوح رائحة ازكى من رائحة الطيوب فلما شاهدت الوثنيون جسد الشهيد لا يحترق طعنوهُ بالسيف فجرى منهُ دم وافر بهذا المقدار حتى طفى النار

وقد روى قصة هذا الشهيد المعظم شهودٌ عيان لجهاده وقالوا ايضاً ان الوثنيين لم يسمحوا قط باخذ جثته بل افنوها بالنار لئلا يترك المسيحيون المصلوب بزعمهم ويعبدوا بوليكربوس فاجابهم المخبرون : الا يعلمون اننا لا نقدر ان نترك يسوع المسيح الذي تالم لاجل خلاص الجميع ولا ان نكرم غيره لاننا لا نعبدهُ الاَّ لكونه ابن الله ولا نعتبر الشهداء الاَّ تلاميذ لهُ فنوقرهم بعدل لاجل اعتنائهم حتى الامانة لملكهم وسيدهم : ثم انهوا الرواية قائلين :

ثم اخرجنا من النار عظامه وهي اثمن لدينا من الجواهر الكريمة ووضعناها في محل لائق حيث نؤمل ان نجتمع كل عام لنحتفل عيد الشهيد بفرح تحريضاً للذين يأتون بعدنا على التاهب للجهاد. فيُرى من هذه الاقوال الاخيرة ان الكنيسة منذ الاعصار الاولى كانت تكرم القديسين بما انهم عبيد الله وخلانه وانها في كل آن قد كرمت ذخائرهم وفضلات اجسادهم تكريمًا دينيًا بما انهم كانوا ضحايا لله سبحانهُ بواسطة الاستشهاد او التوبة واعضاءً حية ليسوع المسيح وهياكل الروح القدس. فهذه العبادة اذًا هي مؤيدة بالتسليم المتواصل في جميع الاجيال وبالتالي مبنية على اساس الدين نفسه

الفصل العشرون

في آية جرت على ايدي جنود مسيحيين لقبوا لذلك بعسكر الرعد

ان الملك مرقس اوراليوس قد كفَّ عن هذا الاضطهاد لاجل نعمة باهرة نالها منهُ تعالى عن يد جنود مسيحيين كانوا تحت لوائهِ لان المعسكر والمدن والعساكر كانت قد امتلأت مسيحيين

وكان الله سبحانهُ يستخدم العساكر الرومانيين كرسل ينذرون بالدين المسيحي في الامصار القاصية حيث يرسلون للقيام بخدمة المملكة ويصنع احيانًا على ايديهم معجزات باهرة . اما التي اجراها على يد الجنود الذين دعوا لذلك عسكر الرعد فقد عظمت شهرتها . فبينما كان الملك يحارب السرمانيين وقبائل اخر غيرهم في جرمانيا توغل العسكر الروماني في جبال بوهاميا القحلة واحاطت بهِ الشعوب البربرية وكانت اكثر منهُ عددًا ولما كانت الحرب في ايام معمعان الحر ولم يكن ماءٌ في ذاك المكان امسى الرومانيون في خطر الهلاك من العطش . ففي هذه الشدة العظيمة جثا المسيحيون الذين بينهم على ركبهم وقدموا لله سبحانهُ صلوات من صميم الفواد والعدو يشاهدهم ويسخر بهم ففي الحال تغطى اديم السماء بالسحاب وهطل مطر غزير في ناحية الرومانيين فاخذوا يرفعون رؤوسهم ويستلقون الماء بافواههم ثم ملأوا خودهم وشربوا هم وخيولهم . اما البرابرة فظنوا ان ذاك الوقت هو الانسب لمقاتلتهم وعندما كانوا يشاهدونهم ملهين بالشرب ليطفئوا ظمأهم كانوا يتاهبون للوثوب عليهم لكن الفلك تجند للرومانيين وانزل على اعدائهم بردًا مهيلاً ممزوجًا بصواعق تحق طوابيرهم بيد ان جيوش مرقس اوراليوس كانت تستقي مطرًا عذبًا جيدًا . فهذه المعجزة اولت الرومانيين الظفر فطرحت

البرابرة اسلحتهم واتوا الى وسط اعدائهم فارين من الصواعق المنقضة

فتيقن الجميع ان هذه الواقعة معجزة ولُقب الجيوش المسيحيون الذين نالوا هذه النعمة منهُ تعالى بعسكر الرعد او ضموا الى العسكر الملقب بهذا الاسم . وكتب الملك الى مجلس ندونة يخبره بهذه الاية . وروى اوسابيوس المؤرخ ان مرقس اوراليوس اعرب في رسالتهِ هذه ان عسكره كان اشرف على الهلكة فنجا بصلوات المسيحيين فاحسن الملك ميله للمسيحيين وامر بتخفيف القساوة في معاملتهم ونهى عن البحث عنهم لعلة ديانتهم . وشيّد في رومية بناية ثابتة ليخلد ذكر هذه الاية . ويرى فيها الى يومنا هذا تمثال هذه الواقعة في اسفل العامود الانطونياني الذي نصب في ذلك الحين وعليهِ صورة الرومانيين مدججين بالسلاح وبارزين لمقابلة البرابرة وهولاء منكبين مع خيولهم على الارض والصواعق منقضة عليهم وساحقتهم . ففي هذا الاثناء اتحف العسكر الملك بلقب امبراطور لسابع مرة وان يكن ليس من عادتهِ ان يقبل هذا اللقب قبل ما يصدر بذلك امر الندوة فقبلهُ حينئذٍ كأنهُ آتيه من السماء

الفصل الحادي والعشرون

في الاضطهاد الذي جرى في غاليا

سنة ١٧٧ للمسيح

فعقب مرور ثلاث سنوات من واقعة معجزة عسكر الرعد عادت نيران الاضطهاد تستعر على اسم الملك مرقس اوراليوس وبسلطانهِ . اما لانهم اقنعوه فيما بعد بان هذه المعجزة اتتهُ من الهتهِ واما بسبب غضب الشعب او بغضة روساء العسكر الروماني الذين كانوا يعيدون الاوامر القديمة على ايثارهم . فحلت عاصفة الاضطهاد خاصة في ليون قبل ان الايمان اتاها من تلاميذ الرسل وان مارتروفينوس اول اسقف مدينة ارل ارسلهُ مار بطرس اليها ومن هناك انبث نور الايمان الى الاقاليم المجاورة . فسرعة انتشار الانجيل في هذه الامصار هيج رجز الوثنيين فشرعوا يعاملون المسيحيين معاملة العدوان فيمنعونهم من الدخول الى الاسواق وسائر المحلات العمومية ويوعبونهم بالاهانات والشتائم كلما كانوا يشاهدونهم ويضربونهم ويرمونهم بالحجارة واخيرًا اخذوا يحضرونهم امام الولاة

فقد وردت الاخبار بالتفصيل عن هذا الاضطهاد في

رسالة بعث بها موءمنو ليون الى مسيحيي اسيا قائلين فيها ان الذين سئلوا في امر الديانة اعترفوا بها بدون خوف فقبض المضطهدون عليهم وضايقوهم الى ان وصل الوالي المنتظر قدومه . فعقب ايام قلايل بعد ما اتى الوالي ليون احضرهم في محكمتهِ واجرى عليهم قساوة هذا عظم شرها حتى ان شابًا يقال لهُ اباغاث كان حاضرًا هناك لم يملك نفسه عن اظهار الغضب فكان مسيحيًا ومضطرمًا حبًا لله سبحانهُ ومودة مقدسة للقريب وطاهرًا في سيرتهِ وزاهدًا في العالم مع سن الالام الذي كان فيهِ وقتئذٍ وكان يسير في طريق الرب بلا لوم متممًا وصاياه ومستعدًا دائمًا لخدمتهِ تعالى والكنيسة والقريب ولم يزل مضطرمًا غيرة على مجد سيده وموعبًا اجتهادًا في خلاص اخوته فطلب اذًا ان يُسمح لهُ بان يحامي عن برارة المسيحيين مقدمًا للاثبات بان شكوى الكفر المنزلة بهم ليست الّا افتراءً ولكن في الحال صاحت عليهِ اعضاءُ المجلس ليسكتوه وقد سئم القاضي بنفسهِ من طلبهِ التكلم لاجل المسيحيين فسألهُ هل هو مسيحي . فاعترف اغابات جهرًا بالدين المسيحي وللوقت ضُمَّ الى مصاف الشهداءِ فلقبهُ القاضي بمحامي المسيحيين تهكمًا ولم يدرِ انهُ مدحه بهذا اللقب . فانعش بمثلهِ باقي المسيحيين فاعترفوا جهارًا بالايمان واقروا بهِ اقرار شهداء وقلوبهم تخفق بهزة الفرح اللائحة علائمها

على طلعاتهم والواضحة برنات اصواتهم

فقد كان صدر الامر بالقبض على الطوباوي بوتينوس اسقف ليون فقبضوا عليهِ وكان في شيخوخة هرمة يبدي عزائم نفس كانهُ في ريعان الشباب . فحملتهُ الجنود ووضعوهُ في اسفل مكان في المحكمة والشعب يتبعهُ ويوعبهُ اهانةً وتعييرًا . فأدى حينئذٍ هذا الشيخ القديس شهادة جليلة لالوهية سيدهِ لان الوالي سألهُ من هو اله المسيحيين . فاجابهُ الاسقف : لكنت تعرفهُ إن كنت تستحق ذلك : ففي الحال خطفوهُ من ذاك المكان واخذوا يجرونهُ بعنفٍ ويعزرونهُ وكان القائمون بالقرب منهُ يرفصونهُ بارجلهم ويلطمونهُ بايديهم والذين كانوا بعيدين منهُ يرشقونهُ بكلما يصادفونهُ بدون وقار لشيخوختهِ . وجميعهم يحسبون انهم يرتكبون كفرًا عظيمًا اذا تهاونوا في تعزير عدو الهتهم . فرفعوهُ من بين ايدي الظالمين كانهُ ميت وطرحوهُ في سجن حيث توفي بعد يومين

الفصل الثاني والعشرون

فيما احتملهُ الشهداء في ليون من العذابات

ثم اشتد غضب الوالي والشعب على سنكتوس شماس كنيسة

ليون وعلى رجل يقال له ماتوروس كان بعد موعوظاً فقط وعلى اخر يسمى أتال وابنة اسمها بلنذينا كانت عبدة . فكان يخشى على هذه الابنة من ان تتغلب للعذاب لنحافة جسمها لكنها اذهلت الحاضرين بجلدها واكلّت المعذبين الذين عذبوها نوباً من الصباح الى المساء فبعد ما انزلوا في جسدها كل ما حملتهم عليهِ القساوة الوحشية من ضروب النكال المختلفة اعيوا من تعذيبها واقروا بان الابنة غلبتهم . فلم يدركوا كيف انها بقيت حيّة . وكلّ من ضروب نكال قاستها كافٍ لقتلها لكن هذه الابنة العجيبة كانت تتجدد قواها حيناً كانوا يغيرون لها انواع التعذيب ويستبين ان الشهادة التي شهدتها ليسوع المسيح كانت تشدد عزائمها وتجديها قوة جديدة . وتجد راحةً وفرجاً في قولها انا مسيحية وعند المسيحيين لا يُصنع سوء

ثم كابد الشماس سنكتوس عذابات لا تُقدَّر من الوثنيين فكانوا يؤملون ان ياخذوه بكلمة تشينهُ اما هو فلم يقل لهم لا عن اسمهِ ولا عن وطنهِ ولا عن حالهِ وعلى كل سوال يلقونهُ عليهِ يجيبهم انا مسيحي . فاحتدم الوالي غيظاً من ثباتهِ وبعد ما اجروا عليهِ النكال المألوف حموا صفائح حديد ووضعوها على اعضاء جسدهِ اللطيفة فكان الشهيد يشعر باحتراق لحمانهِ ولم يظهر ادنى علامة للتوجع . فتركهُ المعذبون

وجسده كأنهُ جرح واحد ويكاد لا يعرف فيهِ اثار الصورة البشرية لان اعضاءه جميعها تقصرت وتهشمت وزاغت عن امكنتها الطبيعية لكن هذا الجسم المشوَّه كان موضوعاً يذهل العقول لانهُ كان حيًّا يسوع المسيح الصانع فيهِ عجائب قدرتهِ غير المتناهية وبهذه الرمائم العديمة الهيئة كان يخزي الظالمين ويقهر ابليس ويسحق قدرته ويستبين حسيًّا ان محبتهِ تعالى متى كانت حارة تطرد كل خوف وتزيل شعائر الوجع . فلما كان الظالمون ظمئانين لسفك الدماء اخذوا الشهيد ليعذبوه ثانيةً وكانوا يعللون نفوسهم بامل الظفر على جلده ففتحوا كلومه الملتهبة وجعلوا عليها ايضاً الحديد المحمي وهي في حالة حيث لا يطاق اخف لمسها باليد . لكنهم قد خُذلوا بانتظارهم لان التعذيب الجديد بمفعول العناية الالهية الظاهر افاد الكلوم الاول علاجاً وشفي جسد الشهيد شفاء تاماً

. فلما لم يستفيدوا شيئاً من هذه العذابات جميعها طرحوا الشهداء في سجن مظلم وجعلوا القيود في ارجلهم فكانت هذه القيود التي من خشب تفرق ساقي الشهيد الواحد عن الاخر بعنفٍ فيحصل من ذلك الم مبرّح. ففي هذه الحالة الفائقة طور العقول بفظاعتها تلظت قلوب الظالمين غيظاً لانغلابهم من اناس قاربوا الموت فافرغوا ضدهم كل انواع التعذيب واجروها

على الشهداء . فكان هذا التكال شديدًا بهذا المقدار حتى ان كثيرين منهم توفوا فيه فالله سبحانه سمح بذلك لتمجيده لكنه حفظ غيرهم من الموت واعاد الصحة لاجسادهم وزاد نفوسهم عزمًا مع زيادة المجاهدة . ولو انهم كانوا معدومين كل عون بشري فكانوا مع ذلك مشددين يعزون الحاضرين ويقوون عزائمهم وباسهم

الفصل الثالث والعشرون

في ما كان للشهداء من التواضع والمحبة

اما ما كان يزيد التعجب من هؤلاء الشهداء فهو تواضعهم العميق في بهرة الفضائل السامية المتلألئة بهم ومع انهم اعترفوا بيسوع المسيح مرارًا شتى وقاسوا بجلد عذابات اليمة ووسمت اجسادهم بسمة الظفر المجيد فلم يعدوا مع ذلك نفوسهم مستحقين ان يسموا شهداء ولم يحتملوا قط ان يُدعوا بهذا الاسم . قال الراوون : اذا ما اتفق لنا حينًا وسميناهم شهداء اما في معرض الحديث او بكتابة فكانوا يحزنون حزنًا شديدًا ويلوموننا لذلك لومة وديع فيقولون ان هذا اللقب المجيد لا يليق الاَّ بمن تمموا

سعيهم ونقلهم يسوع المسيح اليه حيث اعترافهم بهِ وليس بنا نحن الخلائق الدنية ثم يقبضون على ايدينا ويسكبون العبرات من مقلهم مناشدينا لننال لهم بصلواتنا نعمة لينهوا سعيهم نهاية سعيدة ٠ فكانوا مع ذلك مالكين كامل فضائل الشهداء ٠ فوداعتهم وجلدهم ولاسيما باسهم الشديد كان يرفعهم فوق كل خوف ويؤهلهم لفخر الشهداء الذي كانوا يرفضونها ٠ ثم كانت المحبة مالكة قلوبهم كما كان التواضع مالكًا عقولهم

فكانوا يبذلون اهتمامهم واقصى اجتهادهم في الاقتداء بمحبة يسوع المسيح وفي تهذيب اخلاقهم على مثال المخلص الالهي الذي احب الناس حتى مات لاجلهم فاقتداء بهِ كانوا يغفرون لاعدائهم ويقدمون لله صلوات حارة لاجل مضطهديهم ولم يشجبوا احدًا بل يرفقون بجميع الناس لاسيما بالاثمة المبادرين للتوبة ٠ وقد اتفق ان البعض فشلوا خوفًا من العذاب في الاستنطاق الاول ومع ذلك قد طرحوهم في السجن نفسه حيث كانت الشهداء فلم يسمع قط ان الشهداء المذكورين عاملوا هولاء المسيحيين الجبناء بادنى نوع من الجفا بل كانوا يبسطون لهم الايدي ويساعدونهم لينهضوا من سقطتهم ويعاملونهم معاملة والدة حنونة بنيها ٠ ونالوا بالدموع الغزيرة التي سكبوها امام الرب مصالحة اخوتهم من رحمتهِ تعالى الغير متناهية ٠ لان الذين كانوا سقطوا عرفوا ذنبهم

واصلحوه فيما بعد معترفين بالايمان اعترافاً بلا خوف ولم يكن ارتدادهم اقل تمجيداً ليسوع المسيح مما كان منذهلاً للوثنيين لان القاضي لما استنطقهم ثانية على انفراد لكيما يطلقهم حالاً قد تعجب اذ سمعهم يعترفون بيسوع المسيح . وقد وطدهم بهذا العزم احد المسيحيين الحاضرين الذي يقال له اسكندر فهذا كانت مهنته الطب فتقدم الى المحكمة واخذ يحرضهم بعلامات كثيرة على ان يثبتوا في الايمان . فشعر الشعب به واذ كان امتلأ غضباً عندما شاهد الذين كفروا عادوا يعترفون بالايمان بدون خوف صوّب اسهم غضبه على اسكندر وشكاه الى الوالي فسأله الوالي من انت قال اسكندر انا مسيحي وفي الحال ادرجوه مع مصاف الشهداء وحكم عليه بان يُطرح للوحوش

الفصل الرابع والعشرون

في معاركة الشهداء الاخيرة

فعقب بقاء الشهداء في السجن بعض ايام اخرجوهم منه ليجروا عليهم الحكم بالموت على انحاء مختلفة فماتوروس وسنكتوس وبلندينا وأتال عُينوا ليطرحوا للوحوش ويكونوا نزهة للشعب . واختاروا يوماً لهذا المشهد . فاجروا عليهم ثانية النكال كافتتاح

لعذابهم الاخير ثم طرحوهم للوحوش الضارية فلم توذهم فطلب الشعب حينئذٍ ان يجلسوا ماتوروس وسنكتوس على كرسي من حديد محمى. فاجلسوهما ولكنهما حيث بقيا في الحيوة ضربوا اعناقهما بالسيف ضربة تم بها جهادهما اما بلنذينا فعلقوها على مشنقة مبسوطة اليدين وكانت هكذا مصلوبة مثل المخلص الالهي ومنظرها في هذا الحال يولي الشهداء باساً وعزماً في الجهاد فلما طرحوها للوحوش ولم توذها حفظوها ليوم اخر اما الشعب فكان يتلظى بجمرات الغيظ فطلب أتال لانهُ كان من المشهورين. فاداروا بهِ حول المشهد وامامهُ لوح مكتوب عليهِ هذه الكلمات: أتال مسيحي: وكان الوثنيون يشتعلون بنيران الغضب عليهِ ولم يزالوا يلتمسون موته. اما الوالي فلما علم انهُ روماني شرفاً اعاده للسجن مع باقي الشهداء وكتب للملك بشانهِ فاجابهُ الملك انهُ يجب ان يُقتل جميع الذين يصرون على الاعتراف بيسوع المسيح ويُطلق سبيل الذين يكفرون بهِ فجلس حينئذٍ الوالي في محكمتهِ واستدعى المحابيس وسالهم ثانية في امر الدين فجميعهم ثبتوا في الاعتراف بالايمان ومن ثم اخرج الحكم عليهم بالقتل ❊

ففي اليوم التالي اتوا باسكندر واتال الى المشهد ليطرحا للوحوش لان الوالي كان حكم عليهما بهذا العذاب نزهة للشعب ولم يبالِ بما كان عليهِ اتال من الشرف الروماني فبعدما

اجروا عليها جميع العذابات المألوفة قطعوا عنقيهما. وفي اخر يوم المشاهد اتوا ببلنديتا وبشاب مسيحي اسمهُ بونتيكوس لهُ من العمر خمس عشرة سنة . فعذبوهما عذابات مختلفة ولم يبالوا الا بعمر احدهما ولا بجنس الثانية فكان كلاهما يسيران نحو الموت بفرح كانهما سائران الى وليمة . فالشاب تمم جهاده اولاً وبقت بلنديتا وحدها في مضمار الجهاد . فلفوها بحبال وطرحوها لثور مستكلب فوثب عليها وهزها زماناً اما رجاها بالحيوة الخالدة وحبها لهُ تعالى فاذهلاها عن حاسة العذاب اخيرًا قدمت عنقها للجلاد كضحية نقية وخاضعة فذبحت اجلالاً لله الذي تعبده . وقد اقرَّ الوثنيون انفسهم بانهُ لم توجد قط امراة قاست عذابات شديدة وعديدة مثلها . اما الظالمون فلم يشبعوا بغضتهم من الشهداء بل انزلوها في جثثهم ايضاً . فانهم اذ كانوا عارين من كل شعائر الانسانية طرحوا اجساد الشهداء للكلاب فنهشتها ثم جمعوا ما بقي من عظامهم المتبددة فحرقوها وطرحوا رمادها في نهر الرون لكن الوثنيين لم يقووا على قدرة الرب الضابطة الكل بجميع هذه الاحتياطات لان المسيحيين قد عرفوا بوحي الهي المكان الذي حرقت فيهِ فجمعوا ما بقي من هذا الرماد بكل احترام وجعلوه تحت مذبح الكنيسة التي بنيت على اسم الرسل القديسين وهي اليوم تُدعى كنيسة مارتيرِيار وكان عدد الشهداء المذكورين

ثمانية واربعين وحفظت اسماءهم جميعاً

الفصل الخامس والعشرون

في جهاد مار ايبود ومار اسكندر

ان دم الشهداء المسفوك غديراً لم يطفئ نيران الاضطهاد لان كثيرين من غيرهم قاسوا الاستشهاد في غاليا . ومن جملتهم اثنان وهما ايبود واسكندر شرفا باستشهادهما مدينة ليون وطنهما فكان كلاهما شريفي الاصل مرتبطين بينهما بحبل الصداقة فشددت التقوى رباطات هذه المحبة . فلما شكاهما الوثنيون الى الوالي خرجا من المدينة واختبأا في كوخ امراة ارملة مسكينة ومكثا فيه زماناً امنين ولكن لما كانت الشرط تفتش عليهما بتدقيق واجتهاد وجدوهما وطرحوهما في السجن وبعد ثلثة ايام اخرجوهما منه واتوا بهما امام الوالي في المحكمة وايديهما مغللة بالقيود وراء ظهريهما فسالهما القاضي عن اسميهما وديانتهما فقالا له عن اسميهما واقرا له جهراً بانهما مسيحيان ففي الحال سمع ضجيج عظيم من الجمهور ضدهما واستشاط القاضي غيظاً وصاح بهما قائلاً . ويحكما اتجسران ايضاً على ان تخالفا ولاتنا في اوامرهم فما الفائدة اذاً من العذابات

التي اجريناها على الاخيرين . فحينئذٍ فرقوها لئلا يشجع بعضها بعضاً . فاتوا باسكندر السجين اذ كان اكبر من الاخر سناً وانزلوا النكال في ابيود حيث كان يستبين لهم اضعف من اسكندر . ولكن قبل ما شرعوا بتعذيبهِ كان يؤمل القاضي ان يكتسبهُ برقة الحديث فاخذ يقول لهُ : لا ينبغي ان تصر معانداً في اهلاك نفسك . فنحن نعبد الهة خالدة البقاء وتعبدها ايضاً جميع شعوب الارض والسلاطين فنكرم هذه الالهة بالافراح والولائم والملاعب اما انتم فتعبدون انساناً مصلوباً لا يرضى منكم الاَّ بنبذ جميع هذه اللذات . فدع عنك الزهد وتمتع بنعيم الحيوة الموافقة كل الموافقة للسن الذي انت فيهِ

فاجاب الشهيد وقال : ان شفقتك التاسية لا تاثر بي قط . لا تعلم ان يسوع المسيح بعد ما صُلب قام من بين الاموات واذ هو انسان واله معاً بسر لا يوصف ينهج لعبيدهِ مدخل الملكوت السماوي . ولكن ينبغي ان نخاطبك بما يقرب ادراكه لعقلك لعلك تجهل ان الانسان مركب من جوهرين اي من نفس وجسد فالنفس عندنا تامر والجسد يطيعها . فاللذات التي تعكفون عليها اجلالاً لالهتكم تلذ الحواس لكنها تقتل النفس . فنحن نحارب الجسد وما ذاك الاَّ لنحيي النفس ونحفظ لها تسلطها . اما انتم بعد ما تكونون سعيتم في استيفاءَ شهوات الجسد كالبهائم

فلا تصادفون في اخرتكم الأمينة هائلة اما نحن حينما تقتلوننا فننتقل الى حيوة البقاء

فاحتدم القاضي غيظاً من هذا الجواب وامر بان يلطموه على فيهِ ثم يعلقوه على مركبة من حديد واثنان من الجلادين يمزقان جنبيهِ باظفار من حديد اما قساوة القاضي فلم تشفِ غليل الشعب المستجن غضباً على الشهيد لانها استبانت لهم بطيئة فطلبوا بصراخ عظيم ليدفعوه لهم لكي يقطعوه اربا اربا . فخاف القاضي من ان يشان سلطانه وامر بقطع راسهِ . فغب فترة يوم اراد الوالي ان يشفي غليل رجزه ورجز الشعب بالنكال الذي كان يعده لاسكندر فاحضره في محكمتهِ وقال لهُ عليك ان تتأدب بمثل غيرك فاننا قد حاربنا المسيحيين حرباً شديدة حتى اهلكناهم ولم يبقَ منهم احد الآن : فاجابهُ اسكندر انني اشكر الله من كونكم تشددون عزائمي بذكركم لي نصرات الشهداء لكنكم تخدعون نفوسكم اذ تظنون انكم ابدتم المسيحيين لان الاسم المسيحي لا يباد قطعاً : فامر الوالي ان يبسطوه على المركبة مفرقين جنبيهِ الواحد من الاخر بعنف ويضربهُ ثلثة من الجلادين نوباً . فكان الشهيد في العذاب الشديد يستغيث بالله سبحانهُ فنال منهُ عوناً عظيماً حتى عيَّ الجلادون عن تعذيبهِ ولم يعيَ هو عن احتمال العذاب فلما رآه القاضي لا يتزعزع قضى عليهِ بالصلب وفيهِ تمت شهادتهُ

الفصل السادس والعشرون

في استشهاد مار سيمفوريانوس

وفي هذا الاضطهاد نفسهُ كانت مدينة اونون مشهدًا جليلاً بما جرى فيها للقديس سيمفوريانوس وهو شاب شريف الحسب فبينما كان الوثنيون يعيدون عيدًا حافلاً لسيبال احدى الهتهم اظهر سيمفوريانوس كراهةً من هذه العبادة الكفرية فقبض الوثنيون عليهِ واتوا بهِ الوالي وكان وقتئذٍ بطلب المسيحيين ليقتلهم. فقام الوالي في محكمتهِ وقال لهُ كيف امكنك ان تفر الى الان من التفتيش على المسيحيين لانني اظن بانني طهرت المدينة من الذين يدعون مسيحيين. فقل لي لِمَ ابيت ان تعبد سيبال العظمى. اجابهُ سيمفوريانوس انني مسيحي ولا اعبد الاَّ الله الواحد المالك في السماء اما صورة ابليس فضلاً عن كوني لا اعبدها فانني اسحقها واحوّلها الى رماد ان اذنتم لي بذلك: قال لهُ القاضي لابد من ان شرف اصلك يوليك هذه الجسارة الكفرية أتعلم اوامر السلطان. قال هذا وتلا عليهِ الامر المبرز بقتل كل من يأبي ان يقدم ضحايا للالهة. ثم قال لهُ ما جوابك على ذلك هل لك ان تخالف الملك في اوامرهِ: اجابهُ سيمفوريانوس وقال: ان هذا الصنم هو اختراع ابليس الذي يستعملهُ لاهلاك الناس. فمن من

المسيحيين يرتكب ذنباً يسقط في الهاوية لان الهنا عنده عقابات للمعاصي كما عنده ايضاً جزاء وسيع للفضيلة فانني لا ابلغ الى مينا السعادة الابدية الا بالثبات في الاعتراف باسمهِ القدوس

فلما سمع القاضي هذا الجواب امر ان يُضرَب بالقضبان ثم ارسلهُ الى السجن وبعد ايام امر باخراجه منهُ وقدم لهُ هدية من الخزنة الملوكية ووظيفة في الجندية ان شاء ان يعبد الصنم . قال لهُ الشهيد : ان القاضي لا يسوغ لهُ ان يقطع الزمان باحاديث باطلة ولا ان يصطاد الابرياء بشرك الخادعة . فلا اخشى من الموت لاننا نلتزم ان ندفع حياتنا لمن هو مالكها فلماذا لا ندفع اليوم ليسوع المسيح هدية ما نلتزم يوماً ان ندفعهُ لهُ ديناً . فانعاماتك ليست هي سوى سم مكنون تحت طعم الخيانة فان الزمان يذهب باموالك وخيراتك كغدير سريع جريهِ فالله سبحانهُ وحده يقدر ان يمنحنا سعادة راهنة غير فاسدة . فلم ينظر الاقدمون بداية مجده ولا سوف تعاين الاعصار المستقبلة نهايته : فسئم القاضي هذا الجواب وقال لهُ : قد اعييت صبري وان لم تضحِ لسيبال قضيت عليك اليوم بالقتل بعد ان اكون انزلت فيك امر النكال . قال لهُ سيمفوريانوس : لا اخاف الا الله القادر على كل شيء الذي خلقني ولا اعبد الهاً سواه . فلك سلطان على جسدي اما نفسي فليس لك عليها ادنى سلطان :

فاستشاط القاضي حينئذٍ غيظًا وابرز الحكم عليهِ قائلاً : فليُقتل سيمفوريانوس المنافق بالسيف انتقامًا للالهة وللنواميس

فبينما كانوا سائرين بهِ الى منقع العذاب بادرت اليهِ والدتهُ لا لتفشل عزائمهُ بل لتوطدهُ في عزمهِ وتثبتهُ في مقصدهِ فاخذت تصيح بهِ من علو الاسوار قائلة لهُ: ياولدي سيمفوريانوس يا ولدي العزيز اذكر الله الحيّ وتشجع يا ابني لا تخشَ موتًا يُقبل بك امنًا الى الحيوة ارذل العالم وارفع الحاظك الى السماء واحتقر عذابات لا تستمر الا هنيهة من الزمن فان ثبت تُبدل لك بسعادة خالدة .

لعمري ان الايمان الذي بهِ غلبت هذهِ الام الباسلة شعائر الحنية الطبيعية ليس هو مذهلاً اقل من الايمان الذي ظفر بهِ ابنها باهوال الموت

الفصل السابع والعشرون

في مدافعة ترتوليانوس عن المسيحيين

وكانت انوار العلوم تساعد الاستشهاد ايضًا على تاييد الدين المسيحي وكانت مصنفات علماء البيعة الماهرين تنتصر لها كما كان باس شهدائها الظافر يشرفها على حدٍ سواء فقد صنف

ترتوليانوس كاهن قرطاجنة كتاباً تأييداً للدين المسيحي سماه المحاماة عن المسيحيين واخزى بهِ دين الوثنيين ففي بدايتهِ انزل اللوم على الظالمين لانهم يشجبون المسيحيين ولا يريدون ان يسمعوا لهم . اذ قال : ان المسيحيين وحدهم يعدمون الحرية للمحاماة عن نفوسهم امام قضاتهم والاستطلاع منهم على ما ينبغي معرفته ليحكم عليهم بموجب العدل والانصاف . ثم بين ان النواميس التي تقضي على المسيحيين هي جائرة محضاً وقد سنتها ولاة اشقياء يمقت الوثنيون انفسهم ذكرهم واعمالهم . ثم دحض الملامة المنزلة في المسيحيين لعدم تقديمهم العبادة لالهة المملكة . وبعد ما ابان اصل الهة الوثنيين وشناعة عبادتهم وقباحة طقوسهم ختم القول بان هذه الالهة لا تستحق العبادة السامية وانهم ابالسة يخدعون البشر . فقال ايتوني بانسان ممن تحسبون ان الالوهية حالة فيهِ ويتكلم بالغيب وانا اتيكم بمسيحي ايًّا كان يامره ان يتكلم فيضطر الى ان يقر بانهُ ابليس حقًّا وانهُ مع ذلك يغش الناس فيعبدونهُ كالهٍ . وان لم يقر بذلك ويتجاسر على ان يكذب على المسيحي فانا اقبل ان هذا المسيحي يُقتل : فيظهر من هذا القول ان هبة طرد الابالسة كانت عمومية في الكنيسة حتى تجرأ ترتوليانوس ان ياتي الوثنيين جهرًا بهذا التعهد

ثم برَّأ المسيحيين من دعوى الكفر معلناً موضوع عبادتهم

لحقيقي . فقال: ان اله المسيحيين هو الذي اخرج العالم من العدم بقدرتهِ وينظم كل شيء بحكمتهِ ويدبر جميع المخلوقات بعنايتهِ . فلهذا الوجود السامي تشهد الكائنات الجليلة شهادة باهرة والوثنيون انفسهم مهما اظلمت قلوبهم من قبل الاوهام الكاذبة الناتجة عن سوء مربام والصادرة عن الاغراض النفسانية فانهم يشهدون لهُ من تلقاء نفوسهم شهادة نفس مسيحية طبعًا اذ يهتفون عندما تدهمهم الاخطار قائلين : يا الله العظيم ايها الاله الصالح خلصنا : وهذا الوجود في كل آن شهد لنفسهِ مشافهةً وبالكتب بواسطة الانبياء الذين اقامهم وملأهم من روحهِ . فلا يمكن وقوع الريب في صحة هذه الكتب اذ هي بين ايدي اليهود اعدائنا فيتلونها جهرًا في مجامعهم . ومن المؤكد ان موسى اول مصنف عاش قبل ما عُرف اليونان والرومانيون بزمن مديد ولم تكن الانبياء الذين اتوا من بعدهِ اقل قدمية من اول مؤرخيكم واول واضعي سننكم

ثم نجاز هذه النبوات يثبت جليًا انها الهية وتحقق صحة تلك التي ستتم في اوانها . فانذرت الكتب بنكبات اليهود ونحن نشاهدها اليوم تامةً كما انذر بها حرفيًا . فكان الله سبحانهُ اتم عليهم نعمهُ لاجل تقوى ابائهم ولم يزل حاميهم بوقايتهِ حتى استحقوا ان يرذلهم . فما من احد لا يرى يد الله الصانعة النقمة

وهو يشاهد حالة التعاسة التي بلغوا اليها اذ نُفوا من بلادهم تائهين في العالم باسره لا سنن لهم ولا ولاة ولا وطن وهذه النبوات نفسها التي انذرت بهذه النكبات شهدت بان الله سيختار من بين جميع الامم وفي كافة الامصار عبادًا يحسنون له العبادة فيمنحهم نعمته اكرامًا لاستحقاقات من سوف يكون لهم راسًا ومعلمًا : ثم تكلم ترتوليانوس عن يسوع المسيح وسر تجسده واثبت الوهيته بالنبوات والمعجزات وبانبعاثه وقال ان ظروف موته كانت باهرة بهذا المقدار لاعين الوثنيين انفسهم حتى ان بيلاطس شار على الملك طيباريوس ان يحفظ قصته في سجلات رومية وان طيباريوس نفسه لكان امن به لو امكنه ان يكون قيصرًا ومسيحيًا معًا

الفصل الثامن والعشرون
في الموضوع المتقدم ذكره

وبعد ان اثبت ترتوليانوس صحة الدين المسيحي اخذ يدحض بعزم الافترا آت التي كان الوثنيون ينزلونها في المسيحيين فقال : انهم يشكوننا بعدم تكريمنا الملوك بالضحايا : اي نعم لا نقدم ضحايا

اجلالاً لهم لكننا نتوسل الى الله الحقيقي الازلي لاجل خلاص الملوك ونوقرهم لكننا لا ندعوهم آلهةً لاننا لا نعرف الكذب ومع ذلك لا ريب في امانتنا لهم ولكم دليل قاطع لذلك في صبرنا على احتمال الاضطهاد . فغالبًا يرجمنا الشعب بالحجارة ويحرقون مساكننا في ضوضاء اعياد باكوس (اله السكر) ولا يعفون عن الموتى انفسهم فانهم ينبشون جثثهم من الاجداث ويقطعونها اربًا اربًا فماذا عملنا انتقامًا من هذه المظالم أفهل لو شئنا ان نثير حربًا مشتهرًا لعلنا لا نجد لنا قوات وجنودًا . فنحن كاننا اولاد أمس وها قد اشحننا مدائنكم وقلعكم ودساكركم ومعسكركم وبلاطكم ومجالسكم وساحاتكم ولم نترك لكم الاّ هياكلكم . ولو افترضنا اننا لا نوازيكم عددًا أنخشى ان نحاربكم ونحن لا نخشى الموت لولا ان سنننا تامرنا بان نحتمله ولا ان ننزله بغيرنا . فحسبنا انتقامًا منكم ان نترككم وننهزم من المملكة . فتقفر بلادكم بغيابنا وترتاعون من دثارها

ثم اتى ترتوليانوس بالاخبار عما يحدث في اجتماعات المسيحيين دحضًا لدعواهم بانها مستجسة فقال : اننا جميعنا كجسم واحد لان ديانتنا واحدة واصول ادابنا للجميع وامالنا هي عينها للكل . فنجتمع لنتضرع الى الله سبحانه جمهوريًا كاننا نغتصبه على ان يمنحنا ما نلتمسه منه وهذا الاغتصاب مقبول لديه . فالمصدَّرون في الاجتماعات هم شيوخ ذوو فضيلة مختبرة قد حازوا هذه الكرامة لا بالدراهم بل

بحسن السيرة المشهود لهم بها لان في بيعة الله لا يتم شيء بالمال فان كان عندنا خزينة فلا تشين ديانتنا قطعاً فكل يساعد بها كما يشاء ولا يجبر احد على العطاء فالمجموع على هذه الكيفية هو وديعة مقدسة لا نصرفها قط في الولائم الباطلة بل نستعملها لاعالة الارامل ولمساعدة المساكين وجميع اصحاب البلايا . فما اغرب من هذا الامر وهو ان هذه المحبة تكون للبعض علة لذمنا . فيقولون انظروا كيف يحب بعضهم بعضاً انظروا كيف انهم مستعدون لان يبذلوا حيوة بعضهم لاجل البعض . لعمري ان اتحادنا يذهلهم لانهم يبغضون بعضهم بعضاً . وحيث لنا نفس واحدة وروح واحدة فلا نستصعب قط الاشتراك بالمال ولا عجب اذاً من كون محبة هذه صفتها تحملنا على عمل ولائم مشتركة تُدعى اغاب ومعناها محبة فيقبل اليها الجميع اغنياء وفقراء ولا يتم فيها الاّ ما كان مشعراً بالحشمة والادب . فقبل ان نجلس على المائدة نقيم الصلوة ثم ناخذ في المحادثة على الطعام كاننا موقنون بان الباري تعالى سبحانه قائم بيننا ثم ينتهي الاكل بالصلوة كما ابتدا : فهذه كانت اجتماعات المسيحيين التي كان يسودها الوثنيون بالنمائم الفاضحة

ثم قال ترتوليانوس : كيف يصح القول بان لا فائدة منا لاسباب المعيشة في العالم : فاننا نعيش مثلكم ونستعمل ما تستعملونه

انفسكم من القوت واللباس والامتعة فلا نرفض شيئًا مما خلقه تعالى غير اننا نتصرف فيه باعتدال مسدين الشكر لخالقه. ونسافر في البحار معكم ونحرث الارض ونخدم في الجندية ونتاجر معكم. ففي اي شيء اذًا نستوجب القتل. فيا من تقضون على المجرمين تكلموا هل وجدتم مسيحيًا مجرمًا بينهم . فانني استشهد سجلاتكم فيما بين الاشقياء الذين تقضون عليهم كل يوم هل تجدون مسيحيًا واحدًا صانع شر. فان وجد احد فيكون ذنبه اسمه وان كان عليه ذنب اخر فلا يكون مسيحيًا. فالبرارة عندنا دين فنعرفها جيدًا لكوننا تعلمناها من الله سبحانه المعلم الكامل ونحفظها بامانة بما انها مامورة من ذاك القاضي الذي لايمكنه ان يغش: فهاك سيرة المسيحيين في الجيل الثاني للكنيسة

الفصل التاسع والعشرون
في الاضطهاد الخامس في عهد الملك سافاروس

سنة ٢٠٢ للمسيح

وبعد ما ملك مرقس اوراليوس تمتعت الكنيسة بسلم وقتًا لان الملك سافاروس الذي خلف مرقس اوراليوس ابدى في

بداية ملكه انساً نحو المسيحيين حتى قيل انه كان يأويهم ولكن قد
تبين فيما بعد انهُ قد تركهم ينمون عدداً ليكثر ضحايا غضبه منهم
ففي السنة العاشرة من ملكه ابرز الاوامر بسفك دمائهم وتمت
بقساوة بليغة حتى انهُ خيل للمسيحيين بان المسيح الدجال قد ظهر
فابتدأ الاضطهاد في مصر وكان شديداً جداً ومن جملة الشهداء
الذين سُفكت دماؤهم لتمسكهم بعروة الايمان عبدة اسمها بوتاميانه
اشتهرت في الاستشهاد. فهذه كان مولاها حاول مراراً شتى افساد
بكارتها لكنها قاومت اغراه بعزم وثبات. فلما خاب امله منها
احتدم غيظاً عليها وعمد على اهلاكها فشكاها الى والي اسكندرية
بانها مسيحية وندبه الى ان يساعده على استيفاء امله منها واعداً اياه
بمبلغ وافر من المال ان استمالها الى رغباته القبيحة وانه لا يحكم عليها
الا ان استمرت مصرة في ابائها

فاحضرها الوالي الى المحكمة واستعمل معها جميع الوسائط
الممكنة لاغرائها لكن هذه الابنة الشديد عزمها بقيت ثابتة ولم
تتزعزع لا بالوعد ولا بالوعيد ولم ترهبها قط العذابات التي كان
القاضي يتوعدها بها فسئم الوالي من ثباتها وحكم عليها بان
تُطرح في قدر زيت يغلي فلما عمدوا على ان يعروها من ثيابها
توسلت الى مجزي الامر الا ينزعوا عنها ثيابها وبدلاً عن هذه
النعمة التي كانت تقتضيها منها فضيلة الاحتشام رضيت بان

تُنزل في القدر على مهل لتكون طولة عذابها دليلاً على قدرة يسوع المسيح وعلى مراعاة الامانة التي تعهدت لهُ بحفظها فمنحها الجلادون مرغوبها واجروا عليها نكالاً بطيئًا استقام ثلث ساعات حتى تيقنوا انفسهم بان نعمة يسوع المسيح ترفع خدامه فوق اطول العذابات واشدها وكان من جملة الحراس الحاضرين رجل اسمه بازيليد هذا عامل القديسة بادب ومنع رعاع الشعب عن اهانتها فشهدت لهُ القديسة بمعرفة الجميل نحوهُ و وعدته بان تشفع من اجله لديهِ تعالى وانجزت وعدها . ومن ثم بعد ايام قليلة مست قلب بازيليد نعمته تعالى فاشهر نفسه مسيحيًا فظنوهُ يمزح اولاً لكنهم لما راوهُ ثابتًا على الاعتراف بالايمان قبضوا عليهِ واتوا بهِ القاضي فطرحه في السجن فاتى المؤمنون يفتقدونه ومنحوهُ سر العماد وفي اليوم التالي قُطع راسهُ بعد ما اعترف بيسوع المسيح اعترافًا مجيدًا فلعمري ليس الاَّ الديانة الواحدة الالهية يمكن الاقتناع بها هكذا والثبات عليها في بهرة امرّ العذابات

الفصل الثلثون

في استشهاد مار ايريناوس

ثم امتد الاضطهاد حتى الى غاليا وتحقق ان مار ايريناوس اسقف ليون نال فيهِ اكليل الاستشهاد· فكان ايريناوس تلميذًا لمار بوليكربوس ومن مدرستهِ استقى علم الديانة الذي جعلهُ من مصابيح البيعة فهذب بوليكربوس عقلهُ وقلبهُ معًا بتعليمهِ وامثالهِ وكان التلميذ يحترم معلمه احترامًا وافرًا لاجل فضائلهِ السامية ويراقب كلاًّ من اعمالهِ ليتخلق بروحه وقد قال هو نفسهُ : انني كنت اسمع ارشاداتهِ بكل اصغاء وارسخها لا على الواح بل في عمق قلبي ولم ازل اتصور بازاء عيني عقله ورزانته في مشيهِ وهيبة طلعته وطهارة سيرته وكانني اسمعه يخبر عن كيفية مفاوضتهِ مع يوحنا الرسول وكثيرين غيره الذين شاهدوا يسوع المسيح ويتلو الكلام الذي سمعه من افواههم ويقص مفصلاً كلما علمهُ من ايات هذا المخلص الالهي وتعليمه وكل ما كان يخبر بهِ كان مطابقًا للكتب المقدسة· وقد اختير ايريناوس ليخلف مار فوتينوس في كرسي اسقفية ليون وكانت فيهِ كل المزايا المطلوبة لتعزية هذه الكنيسة وعضدها في تلك الازمنة الشاقة· اي كانت فيهِ غيرة

حارة ومهارة في العلوم وقداسة عظمى ولعمري انهُ لم يكن يطلب منهُ اقل من ذلك ليعوض الخسائر التي قاستها ويهذب شعباً جديدًا من الشهداء الذين كانوا مزمعين عن قرب ان يجددوا انتصاراتها

وقد تحقق ان الملك سافاروس لما شاهد المؤمنين في ليون يزدادون عددًا بعناية اسقفهم القديس عمد على اجراء مشروع وفق قساوته الوحشية فامر جنوده بان يحيطوا بالمدينة ويقتلوا كل من جاهر بالنصرانية فكانت المقتلة عمومية واخذوا ايريناوس الى الظالم فامر بقتلهِ وسر القديس سرورًا جزيلاً لذبحهِ الراعي ورعيته . وقد علمنا ذلك من رواية مار ايريناوس نفسهُ وثُبت ايضاً باثار اخر قديمة . وروى مار ادون في تاريخهِ ان ايريناوس احتمل الاستشهاد مع جمهور لا يحصى عديدهُ من المسيحيين وتُوجد الى الان كتابة في ليون تدل على ان عدد الشهداء كان تسعة عشر الفًا ما عدا النساء والصبيان وهذه الكتابة صادقة باعتبار قساوة الملك سافاروس وثبات المؤمنين ولهذا قال مار اوكاريوس ان مدينة ليون كان لها شعب من شهداء وقال مار غريغوريوس من تور ان جمهور المسيحيين الذين ذبحوا لاجل الايمان كان غفيرًا بهذا المقدار حتى ان دماء الشهداء كانت تجري غدرانًا في الشوارع فاشت الاباء القديسون ثناءه جميلاً على

هذا الاسقف المعظم واهتم بدفنه احد الكهنة المدعو ناكاريا كان نجا من القتل وخلفه في الاسقفية على ما قيل فحفظهُ الله سبحانه ليكون كجذوة من نار تعيد اضطرام النار الالهية التي كانت طهرت ضحايا لا يحصى عددها في هذه المدينة

الفصل الحادي والثلثون

في استشهاد القديسة بارباتوا والقديسة سعدا

وكان الاضطهاد ثائرًا ثيرانًا شديدًا في قرطاجنة فقبض الجلادون على اربعة شبان وهم ساتورنينوس ورافوكاتوس وساكوندول وساتوروس وعلى امراتين شابتين وهما برباتوا وسعدا فالاولى كانت شريفة الاصل واخت ساتوروس ولها ولد طفل ترضعهُ والثانية كانت حبلى . فكتبت برباتوا قصة جهادهما وهي من احسن القصص تخشعًا فقالت : لما قبضوا علينا حفظونا مدةً قبل ما طرحونا في السجن وكان ابي وحدهُ من عائلتي كلها بقي غير مؤمن فبادر اليَّ سريعًا واخذ يجد في اقناعي لاعدل عن عزمي ولما كان يضايقني كثيرًا لكي لا اقول انني مسيحية اريتهُ اناء كان هناك قائلةً لهُ يا ابتي ايصح ان يُسمى هذا

الاناء باسم لا يليق بهِ. قال كلاَّ. فقلت لهُ وانا ايضاً لا يسوغ لي
أن اسمي نفسي الا مسيحية. فلما سمع مني هذا الكلام وثب عليَّ كانهُ
بريد ان يفقأ عيني ثم رجع خجلاً من احتدامهِ وذهب عني الى بضع
ايام فكنت في هذه الفترة راتعة ببعض الراحة ثم تعمدنا والهمني
الروح القدس وقتئذٍ الاَّ التمس منهُ تعالى الاَّ الثبــات على
العذاب وبعد هنيهة من الزمن اتوا بنا السجن . فلما دخلتهُ
ارتعدت فرائصي منهُ لانني لم اكن قط قبلاً نظرت مثل هذه
المحلات وما اكرب ذاك النهار وما اشد الحرّ في ذاك السجن .
فكدنا نختنق فيهِ لشدة الحشر ناهيك عن توحش الجنود الذين
كانوا يحرسوننا . اما الامر الذي يضايقني اكثر من كل ما
سواه فهو ان ولدي لم يكن معي اخيرًا اتوني بهِ واثنان من الشمامسة
وهما ترسيوس وبومبانيوس رشوا الحراس بالمال فنقلونا الى محل
اقل كربةً واقامونا فيهِ بعض ساعات فكان كل منا يهتم بما يعنيه.
اما انا فلم يكن لي اهتمام الاَّ في ترضيع ابني حيث كان اوشك ان
يهلك جوعًا ثم انتني والدتي لتزورني فاوصيتها بهِ وحرَّجت
الوصية وكنت في غم شديد عند مشاهدتي عائلتي كلها متوجعة
لاجلي . وبقيت في هذا الغم اياماً كثيرة الى انهُ زال اخيرًا واضحى
لديَّ السجن مسكنًا شهيًا

وقال لي اخي ذات يوم اذ لكِ عندهُ تعالى معزة عظيمة فاطلبي

منهُ ان يطلعكِ هل انكِ مزمعة ان تحتملي الموت او يُطلق سبيلكِ . وحيث كنت اختبرت قبلاً جودته تعالى نحوي وعدت اخي ان اعلمه بذلك غدًا . فقمت للصلوة ولما انتهيت من صلاتي رايت سلمًا من ذهب يرتفع الى السماء لكنهُ كان ضيقًا بهذا المقدار حتى انهُ لا يقدر ان يصعد عليه الاَّ واحد فواحد وكان مسيجًا على جانبيهِ بسيوف مرهفة وخناجر وحراب بنوع ان من لا يتيقظ جيدًا ولا يلتفت الى العلا لا يخلو من التجرح في كامل جسمهِ وكان في اسفل السلم تنين مهيل مستعد ليثب على الذين يصعدون . فكان ساتوروس قد صعد عليهِ وينادبني من اعلاه قائلاً لي . يا اختي انني منتظركِ ولكن تحرزي من التنين . فاجبته لا اخشى منهُ اذاء لانني متكلة على ربنا الضابط الكل . فكنت ادنو من التنين وكان يميل راسه عني كانهُ خائف مني ثم جعلت قدمي على راسهِ ووطأته كانهُ درجة للسلم واخذت في الصعود حتى وصلت الى اعلاه فنظرت من هناك جنة فسيحة وفي وسطها رجلاً جليلاً بهيئةٍ راعٍ وحولهُ جمهور من الناس متوشحين باثواب بيضاء . فقال لي متبسمًا اهلاً بكِ يا ابنتي ثم جعل في في طعامًا لذيذًا فتناولتهُ منهُ جامعةً يدي لصدري تادبًا وحينئذٍ اجاب الجمهور كله امين . فعند ذلك استيقظت من الرقاد وكنت اشعر عند انتباهي كانني امضغ بفمي طعامًا لا توصف لذته وفي

اليوم التالي قصيت الرؤيا على اخي فاولناها على اننا مزمعان عن قرب ان نقاسي الاستشهاد فشرعنا مذ ذاك نزهد في جميع امور العالم زهداً كلياً ونوجه جميع افكارنا نحو الابدية

الفصل الثاني والثلثون
في الصدد المتقدم ذكره

فاستتلت القديسة برباتوا قائلةً : وبعد ايام قليلة ذاع الخبر بانهم اوشكوا ان يستنطقونا فاتاني والدي ثانيةً الى السجن وهو مضنٍ من الحزن فقال لي : يا ابنتي ارحمي شيخوختي ارحمي اباكِ فانني ربيتكِ باتعابٍ كثيرة وعزيتكِ بمعزلٍ عن باقي اولادي لا تلحقي شيخوختي بالعار راعِ خاطر والدتكِ افتكري بابنكِ الذي لا يقدر ان يعيش بدونكِ اقلعي عن هذا العناد الذي شانه ان يهلكنا جميعاً . وفيما هو يخاطبني بهذا الكلام كان ياخذ يديَّ ويقبلها ويسقيها بدموعهِ . فكانت لجاجته تجرح فؤادي وكنت اتحسر عليهِ حيث كان وحده بين عائلتي يحزن لجهادي . ومع ذلك قلت له وانا غير متزعزعة . متى حضرت للمحكمة يفعل الله ما يشاء لاننا لسنا نحن في سلطاننا بل تحت

سلطانه تعالى . ثم مضى وفي اليوم التالي بينما كنا على الطعام اتوا
ياخذوننا امام القاضي وكانت المدينة باسرها علمت امرنا فاتينا
ووجدنا المكان غاصًّا بالجمهور فاصعدونا الى منقع العذاب
وسالوا رفاقي اولاً عن ديانتهم فاعترفوا بيسوع المسيح ولم يخافوا
فلما بلغوا بالسؤال اليّ حضر والدي بغتةً مع ولدي وسحبني والدي
من مكاني واخذ يلح عليّ لجاجة لا مزيد عليها لكيما اطاوعه وكان
القاضي يساعده فقال لي : اعفي عن شيخوخة والدكِ واشفقي على
ابنكِ فاذبحي ذبيحة لاجل توفيق الملوك : فقلت له لا اقدم ذبيحة
للابد . قال لي فانتِ اذًا مسيحية . قلت نعم انا مسيحية . وحيث كان
يجد والدي في اخراجي من المكان فانتهره القاضي وامر باخراجه
فلم يخرج فاتصل الامر به الى ان ضربوه حتى يذعن للامر .
وكنت انا اشعر بالضربات النازلة عليهِ كانها نازلة على جسدي
فتنفطر قلبي غمًّا عند مشاهدتي ابي يُعزَّر في شيخوختهِ فحينئذٍ
اخرج القاضي الحكم علينا بان نُطرح جميعنا للوحوش

ثم عدنا الى السجن وقلوبنا موعبة فرحًا لكن هذا الفرح كان
منغصًا من قبل الحالة التي كانت فيها سعدا لانها كانت في
الشهر الثامن من حبلها وكانت تخشى جدًّا من ان يأجل
استشهادها ومن ثم قمنا جميعنا للصلوة ليمن الله على سعدا بالولادة
قبل يوم الجهاد فحالما انتهينا من الصلوة شرعت سعدا تشعر

باوجاع الولادة وحيث لم يكن وقتئذٍ حينها كانت اوجاع الطلق شديدة فكانت احياناً من شدة الالم تصيح بصوت عالٍ فاتخذ احد الجنود فرصةً من ذلك ليقول لها: ان كان هذا الملكِ الآن من الولادة فتري ما يكون عذابكِ حينما تمزق الوحوش الضارية احشاءكِ : فاجابته هذه الامراة الشديد باسها: الآن انا المتألمة اما ذاك الحين فيكون غيري يتالم فيّ لاجلي لاني سأتالم لاجلهِ: فولدت ابنة اخذتها امراة مسيحية وربتها كولدها اما سجان الحبس وكان اسمه بودنسيوس فعلم بان الله سبحانه اغزر علينا نعمته فاحسن معروفه معنا فكان يسمح بالدخول الينا لكل من ياتي ليفتقدنا . فقبل الفرج بايام قليلة نظرت والدي داخلاً اليّ ليبذل اخر جهده في اقناعي لاعدل عن عزمي . فكان في حالة من حزن وغم لا توصف فانطرح على الارض منكباً على وجههِ وهو يضج بالصراخ والعويل لاعناً شيخوخته . فكدت اموت وجعاً لمشاهدتي اياه في هذه الحالة لكن الله سبحانه ساعدني في هذه المحنة الشديدة

انتهت هنا رواية القديسة وما بقي من قصتها كتبه شاهد عياني

الفصل الثالث والثلثون

في الصدد المتقدم ذكره

فلما اتى يوم الفرج اخرجوا الشهداء القديسين من السجن ليأتوا بهم المشهد وعلامات الافراح لائحة على طلعاتهم وساطعة على مناظرهم وظاهرة في حركاتهم وباهرة في اقوالهم وكانت بربتوا ماشية وراء الجميع وهدو نفسها ظاهر على هيئتها وفي سيرها وكانت خافضة عينيها لتخفي عن مشاهديها حدتها . ثم سعدا كان انشراحها ظاهرًا بتعافيها السريع من الولادة حتى يمكنها ان تموت مع الاخرين اما ساتورينوس وساتوروس فكانا يتوعدان بغضب الله الشعب الوثني المحدق بهم فقالا: انتم اليوم تقضون علينا لكن الله سبحانه سوف يدينكم: فكره الشعب هذا التوبيب وطلبوا ان يجلدوها . فتهلل الشهيدان لنوالهما هذا العذاب تشبهًا بالمخلص ولم يبديا الا علامات المسرة فمنح الله كلاً منهما الميتة التي كان يشتهيها فبينما كان الظالمون يتحدثون فيما بينهم بانواع النكال المختلفة التي يجرونها على المسيحيين اعلن ساتورينوس رغبته في مقاتلة جميع وحوش المشهد وبالحقيقة بعد ما وثب عليه وعلى رافوكاتوس احد الضباع الهائجة تركهما واتى دب يجرهما

في الساحة اما ساتوروس فلم يكن يخشَ الاَّ الدب ومن ثم كان يشتهي ان الضبع يقتله بضربة واحدة باسنانه لكنه اسلم اولاً الى خنزير بري هيجوه فلم يؤذه بل عاد الخنزير الى مهيجه وجرحه جرحًا قتالاً ثم دفعوه الى دب فلم يخرج من مكانه وهكذا لم يصب ساتوروس حينئذٍ ادنى جرح

اما القديستان بربانوا وسعدا فجعلتا في شرك وطُرحتا لبقرة مستكلبة فتناولت البقرة اولاً بربانوا باسنانها ورفعتها بعنف ثم طرحتها على حقويها فنهضت القديسة وعقدت شعرها ولمَّا نظرت سعدا قد كانت وثبت عليها البقرة والقتها صرعى على الارض مخضبة بدمائها بادرت اليها وبسطت لها يدها وعاونتها على النهوض. فلم تكن تدري الى ذاك الحين ما حل بها فسألت قائلةً اي متى يطرحوننا لهذه البقرة. ولكيما يقنعونها بانها قد تالمت اروها ثيابها ممزقةً والتهشمات في جسمها. فعرفت احد الموعوظين المسمى روستيكوس فسالته ان يدعو اليها ساتوروس فاتاها ولما اجتمع مع اخته اخذت تحثها على الثباتِ في الايمان. ثم انتزح ساتوروس الى رواق المشهد وقال لبودنسيوس السجان الذي كان ارتد الى الايمان: اما قلت لك ان الوحوش لا توذيني وان الضبع وحده يقتلني: فخبَّ هنيهة من الزمان طرحوه مرة ثالثة فوثب عليه ضبع وضربه باسنانه فجرحه جرحًا

بليغاً خضبه بالدماء فصاح الشعب حينئذٍ قائلاً : هوذا قد تعمد ثانية : ثم التفت ساتوروس الى بودنسيوس قائلاً لهُ : اودعنك ياعزيز اذكر ايماني واقتفِ بهِ فلا يقلقنك موتي بل فليشجعك على الاحتمال : ثم طلب منهُ خاتماً كان في اصبعهِ فاخذهُ منهُ وغمسه في دمهِ ورده اليهِ ليتخذه عربوناً لايمانهِ وسقط ميتاً . فهكذا توفي ساتوروس اولاً وصدقت بهِ رويا برباتوا . فعند نهاية الفرج طلب الشعب ان يؤتى بباقي الشهداء الى وسط المشهد لينالوا هناك ضربة الموت فاتوا من تلقاء ذاتهم فقطعت اعناقهم بدون ان يبدوا ادنى حركة فبرباتوا وقعت بين ايدي جلاد عديم البراعة في الضرب فاطال عذابها زماناً ولما لم يهتدِ الى مكان الضرب في عنقها اخذت يدهُ والسيف فيها فدلته عليهِ . ولعمري ان بسالة هذه صفتها في نساء لطيفات الجسم لا تتأتى عن الطبيعة قطعاً لانهُ من المعلوم ان الطبيعة لا تبلغ هذا الحد بل هي فعل قدرته تعالى بلا ريب

الفصل الرابع والثلثون

في ما كان من اوريجانوس وصفاته ومحاماتهِ عن المسيحيين

وفي ذلك الزمان نفسه اشتهر اوريجانوس في كامل البيعة مذ حداثتهِ. وكان ابوهُ ليونيد قاسى الموت شهيدًا في الاضطهاد الذي ثار في اسكندرية على عهد الملك سافاروس وكان الشهيد رباه باعظم اهتمام فلم يكتفِ ان يروضه في الفنون العقلية والعلوم الرياضية بل فقههُ ايضًا في الكتب المقدسة اذ كان يعلمهُ منها كل يوم بعض ايات فانصب اوريجانوس وهو فتى على هذه المطالعة واجتهد فيها اجتهادًا لا مزيد عليهِ وكان ابوهُ يتعجب من بركات النعمة التي كانت تشمله اكثر من حذاقة عقله الطبيعية وكان غالبًا يدنو منهُ وهو نائمٌ ويكشف صدره ويقبله باحترام كانهُ هيكل الروح القدس. ففي مدة الاضطهاد رغب اوريجانوس رغبة شديدة في احتمال الاستشهاد ولكان تقدم اليهِ من تلقاء نفسه لو لم تصدهُ والدته عن ذلك بدموعها وتوسلاتها. فلما قُبض على ابيهِ لاجل الايمان اشتد تلهفه على الاستشهاد فالتزموا ان يخفوا عنهُ ثيابه ليمنعوهُ من الذهاب الى ابيهِ. فلما ضاق بهِ الامر ارسل لهُ رسالة مشعرة باعظم التخشع يحرضه بها على الاحتمال لاجل الايمان

فقال له فيها : لاتهتم باولادك فان الله سبحانه يعتني بنا : اما ليونيد فقُطع راسه وضُبطت امواله فحلت الفاقة في عيالهِ فالتجأ اوريجانوس الى امراة غنية اعتنت بحالهِ

وغب برهة وجيزة فتح مدرسة يعلم فيها اصول اللغة لكيما يعول نفسه بدون اضطرار الى مساعدة غيرهِ ثم اقيم رئيساً على مدرسة اسكندرية التي كانت وقتئذٍ شهيرة فباع جميع كتبه العالمية ليتجرد الى مطالعة الكتب المقدسة ثم ليتساعد بثمنها على القيام باود نفسه لانهُ كان يعلم مجاناً فلم يكن يربح كل يوم الاَّ نحو غرشين فكفاه هذا اليسير مونة القوت اذ كان يعيش عيشاً قشفاً فمع هذه الصرامة التي عامل بها نفسه كان مجملاً بوداعة تسبي قلوب الجميع فرقة اطباعهِ وحذاقة عقلهِ اجلبتا اليهِ جمهوراً وافراً من تلاميذ يسمعون تعليمه ليس فقط من مصاف الشبان بل ومن العلماء والفلاسفة المسيحيين والوثنيين . فاهدى كثيرين الى الايمان المسيحي واضحى كثيرون ايضاً من تلاميذه شهيرين قديسين ونال بعضهم اكليل الاستشهاد . وكان بالخصوص يهتم بتعليم المسيحيين المسجونين لاجل الايمان فيتفقدهم في الحبوس ويرافقهم الى المحاكم وحتى الى متقع العذاب ويشدد عزائمهم على الثبات في الايمان تارةً بالاشارات وتارةً بالخطب البليغة ومراراً شتى عرَّض حياته للخطر في مباشرة افعال الغيرة وغالباً اوشك

ان يُرجم او يموت تحت الضرب الى ان قُبض عليهِ وكبّل بالقيود وطُرح في السجن لكنهُ لم يُقتل لان الظالمين كانوا يؤملون ان يغلبوا جلدهُ فيكفروهُ بدين المسيح ويجتذبوا الى الكفر بسقطتهِ جمهورًا من المسيحيين . فعذبوهُ بالجوع والعطش والعرى ولم تزعزع شدة العذاب باسه . لان التقشف الذي كان معتادًا عليهِ جعله يثابر على جميع المحن . فكان يصوم كل يوم تقريبًا ويقضي اكثر اوقات الليل في الصلوة والهذيذ في الكتب المقدسة وفي الراحة القليلة التي كان يتخذها في الرقاد بحكم اضطرار الطبيعة كانت الارض مرقدهُ . فاذهل الجميع اتساع عقله اذ لم يكن علم يخباه وهذهِ العلوم الوافرة التي حازها لم تضر قط بمحبته وكان تعليمه جليًا وشرحه صريحًا ذا عذوبةٍ يدرك الجميع سهلاً اصعب المسائل التي كان يفسرها ويحبون الحقائق التي كان يعلمها.

الفصل الخامس والثلثون

في تآليف اوريجانوس

فاشهر ما كان من مصنفات اوريجانوس هو الكتاب الذي الفه ضد صلسس دحضًا للافتراء الذي انزلهُ هذا الفيلسوف الوثني

في المسيحيين . فجاء هذا التاليف باعتبار العلماء أكمل محاماة عن الدين المسيحي اتصلت الينا من الاقدمين وهاك خلاصة بعض نبذ منهُ قال اوريجانوس فيهِ : ربما كان الاليق بنا ان نقتفي باثر يسوع المسيح الذي كان صامتًا امام قضاته ولم يجب على الافتراء المنزل فيهِ من اعدائهِ الاَّ بقداسة سيرتهِ وبشهرة اياته . هكذا قد يُعتبر بلا فائدة دحض الوشايات التي لم تزل الانام الاشرار تنزلها فيه لانهُ يبرأُ نفسه منها تبرئة كافية بفضيلة تلاميذهِ الحقيقيين التي تخزي شهرتها جميع الاكاذيب . فلا اكتب اذًا لاجل تأييد المؤمنين الحقيقيين لان المحاماة عنهم خارجة عن حكم اللزوم بل اكتب لاجل الغير مؤمنين الذين يمكنهم ان ينالوا فائدة من هذا التعليم

فبعد ان دحض اعتراضات صلسس الخصوصية أيَّد صحة الدين المسيحي ببينات لارد عليها بالنبوات التي انذرت بيسوع المسيح وباياته وسيرة تلاميذهِ فقال : نظرًا الى النبوات ينبغي بعدل ان تصدق كتب اليهود وكتب باقي الامم ولا يجب ان يقع الريب في قدميتها اذا اعتبرت الحجج التي اتى بها يوسيفوس وتاسيانوس المصدق قولهما والمعول على روايتهما : ثم اتى اوريجانوس بذكر النبوات التي انذرت جليًا بميلاد يسوع المسيح وآلامه وموته وجميع لواحق مجيئهِ . وبيَّن ان اليهود مذ اتى يسوع

نسيج لم يعد لهم لا نبوات ولا معجزات ولا ادنى علامة تدل على الوقاية الالهية عندهم كما يرى عند المسيحيين . فنظرًا الى المعجزات لم ينكر صلسس ان يسوع المسيح اتى بمعجزات لكنهُ كان ينسبها الى صنعة السحر فرد عليهِ اوريجانوس بانهُ توجد وسائط اكيدة يميز بها سحر ابليس من المعجزات الحقيقية التي هي عمل الباري تعالى وهذه الوسائط تقوم بالفحص عن اداب صانعيها وتعليمهم والمفاعيل التي تبرزها هذه المعجزات . فموسى والانبياء ويسوع المسيح وتلاميذه لم يعلموا الأ ما كان مطابقًا كل المطابقة للصواب وجزيل الفايدة للاداب الصالحة وللجمهور . فهم اول من وضعوا بالعمل ما علموهُ وكان التاثير عظيمًا ومستديمًا . اما موسى فهذب امة برمتها وساسها بنواميس مقدسة ويسوع المسيح ضمَّ جميع الامم الى معرفة الاله الحقيقي والى مباشرة كامل الفضائل . اما الخبثاء والكذبة فلا يبتغون اصلاح الناس ولا لسحرهم ومكرهم نتائج صالحة

فانبعاث يسوع المسيح من الموت الاية العظيمة واساس الدين المسيحي لا يمكن قط ان تشتبه بمكر لان يسوع المسيح مات مشتهرًا معلقًا على صليب تجاه كامل الشعب اليهودي ودُفن وبقي في القبر ثلثة ايام وكان القبر مختومًا والجنود تحرسه فظهر مدة اربعين يومًا لبطرس ولباقي الرسل ثم لخمسمائة تلميذ كانوا مجتمعين معًا . فلو لم يشاهدوهُ منبعثًا ولو لم يتيقنوا الوهيته لما

كانوا قط عرضوا بنفوسهم للعذابات والموت لينذروا في كل مكان التعليم الذي اخذوه عنه كما امرهم . بل لكان موته المخجل محا من عقولهم ذكره ولكانوا عدوا نفوسهم مخدوعين ومن ثم لكانوا اول من شجبوه ورذلوه . فوجب ان يكونوا شاهدوا امرًا خارق العادة حتى اعتنقوا تعاليمه وجعلوا غيرهم يعتنقونها ولم يبالوا لذلك لا براحتهم ولا بحريتهم ولا بحياتهم . فكيف يمكن ان اناسًا جهلا واميين يقدمون على تغيير العالم باسره ان لم يكونوا مؤيدين بقوة الهية وكيف يمكن ان الشعوب ينبذون عوائدهم القديمة بانذارهم ويتبعون تعليمًا مغايرًا لو لم يكونوا انبدلوا بقوة خارقة العادة وبمعجزات باهرة

الفصل السادس والثلثون

في الصدد المقدم ذكره

ثم اثبت اوريجانوس الوهية الدين المسيحي بالانقلاب العجيب الذي يبرزه في من يعتنقونه فقال : ان المفعول العظيم الصادر عن الانذار بالانجيل هو اصلاح الاداب فلو شفى احد مائة انسان من رذيلة الدنس يستصعب الظن بان ليس فيه شيء

فائق الطبيعة . فان كان ذلك كذلك ما القول في جمهور وافر من مسيحيين قد انقلبوا عما كانوا عليه مذ قبلوا هذا التعليم فاصبحوا معتنقين العفة الكاملة في جميع امصار المملكة فان قواعد اداب المسيحيين ترفعهم كثيرًا فوق غير المسيحيين فيردع المسيحي الامه الشديدة ليرضي الله سبحانه اما الوثنيون فيتمرغون في حماة الشهوات القبيحة ولا يستحون بها ويزعمون انهم يراعون الفضل والصلاح بينما هم متورطون في اعماق الفساد فاقل المسيحيين تفقهًا احسن استنارة في شرف العفاف وعظمته من فلاسفة الوثنيين وبتولاتهم وكهنتهم الافضل ادابًا . فليس احد بيننا مدنسًا بهذه القباحات وان وجد احد فليس هو من عدد الحاضرين اجتماعاتنا ولا هو مسيحي : فبالحقيقة كانوا يطردون من الكنيسة من سقط في اثم لاسيما في اثم الدنس . فكانوا يندبون حالهم كانهم موتى عن الله ومتى عادوا تائبين كانوا يفرضون عليهم قوانين ويمتحنونهم امتحانات اصرم من تلك التي كانوا يجرونها عليهم لاجل العماد فلم يعد يسوغ لهم ان يباشروا ادنى خدمة في الكنيسة . ثم قال اوريجانوس : ان المسيحيين يراعون زمام الامانة نحو ملكهم حتى المراعاة فهم بعيدون عن انشاء ادنى تجسس بعدًا هذا حده حتى انهم بمقتضى امر سيدهم وواضع ناموسهم لا يستعملون اسلحة ضد اعدائهم الا الصلوة والصبر لان يسوع المسيح اراد ان يسلموا نفوسهم

للذبح كالخراف ولا يبادروا الى ادنى مقاومة قهرًا فان الله سبحانه هو المكلف بمصالحهم وبالمحاماة عنهم فيربحون بهذه الوداعة اكثر مما يربحونه بالمقاومة فنضلاً عن ان الظالمين لم يستطيعوا ان يستاصلوا المسيحيين نرى موت الشهداء لم يزل يزيدهم عددًا

فان القساوة التي كانوا يجرونها على المسيحيين لم تخمد قط حرارة غيرتهم على ترجيع غير المؤمنين . فكان منهم اناس لم يكن لهم عمل الأ الانذار بالانجيل في المدن والقرى ولئلا يظن بهم انهم يصنعون ذلك رغبة في ربح لم يكونوا يقبلون شيئًا كليًا حتى ولا ما كان لازمًا لمعاشهم واذا اضطرهم الاحتياج الى قبول شيء فكانوا يستكفون بما هو ضروري فقط ويابون اخذ ما زاد على ذلك ولو قدم لهم طوعًا . ثم يردف اوريجانوس كلامه بقوله : اما الان حيث يوجد بين جمهور المسيحيين اغنياء واصحاب مقامات ونساء شريفات فربما يُظن بان في الانذار بتعليمنا شرفًا ولكن هذا الظن لا محل له في البداية والان ايضًا ما ننالهُ من الكرامة من بعض خاصتنا لا يوازي الامتهان والاهانات التي تلتحق بنا من قبل الوثنيين : ثم اشار اوريجانوس الى ان المسيحيين معما كانوا عليهِ من اضطرام الغيرة على ترجيع غير المؤمنين للايمان لم يكونوا يهملون اجراء الامتحان بقدر الامكان على الذين يرومون اعتناقه فكانوا يأهبونهم خاصةً بالمواعظ قبل ان

يقبلوهم في الاجتماع وعندما كانوا يشاهدونهم في عزم شديد مخلص على ان يسلكوا سلوكًا جيدًا فكانوا يدخلونهم في الجمعيات مميزينهم ايضًا الى مصافين اي مصاف المبتدئين ومصاف المتقدمين وكانوا يخولون اناسًا مخصوصين بالسهر على سيرتهم لكيما يبعدون عن الاجتماع مع من لم يكن سلوكهم مطابقًا للدين المسيحي ويرشدون غيرهم في سبل التقوى والفضيلة فهكذا كان صلاح المسيحيين بعد الرسل بزمان مديد وكان محامو الديانة الاقدمون ياتون بحسن سيرتهم دليلاً على صحة الديانة المسيحية ويتخذون منها حجة قاطعة لاثبات ظلم المضطهدين وتبكيت الوثنيين على فسادهم ورذائلهم

الفصل السابع والثلثون

في الاضطهاد السادس على عهد الملك مكسيمينوس

سنة ٢٣٥ للمسيح

وتُرك المسيحيون بسلم مدة عشرين سنة فالملوك الذين خلفوا سافاروس لم يضطهدوهم بل كان احدهم اسكندر يؤيدهم ويكرم يسوع المسيح كاحد الهته فوضع تمثاله في هيكل في داره

وعزم على ان يقيم احتفاليًا بين عدد الالهة بحكم رجال دولتهِ .
وكان يعجبه كثيرًا هذا المبدى الذي اخذه عن المسيحيين وهو:
لاتصنع بغيرك ما لا تشاء ان يُصنع بك : فرسمهُ على لوح
و وضعهُ في بلاطهِ وعندما كان يقضي على احد المجرمين بالعقاب
كان يامر المنادي ان ينادي في الشوارع بهذه الاية . اما استعداد
اسكندر الحسن نحو المسيحيين فكان لمكسيمينوس خليفته سببًا
لاضطهادهم . فهذا الملك كان من طبعهِ وحشيًا فابرز اوامر
جديدة باضطهاد المسيحيين . قيل ان احد الجنود المسيحيين
كان سببًا لذلك بفعل فعله واشتهر جدًا وهو انهُ لما نودي
بمكسيمينوس ملكًا انعم على جنوده انعامًا حسب العادة . فكان
كل من الجنود يتقدم الى الملك واكليل من غار على راسه . فتقدم
واحد منهم وكان ماسكًا الاكليل بيدهِ فنال الانعام من الملك
ومضى ولم ينتبه اليه رئيس العسكر حتى سمع دمدمة ارفاقه عليه .
فاستدعاه حينئذٍ وسأله لماذا لا تضع الاكليل على هامتك كباقي
الجنود: اجابه الجندي وقال: لا اجعله على رأسي لانني مسيحي
وديانتي لا تجيز لي ان اجعل اكاليلكم على رأسي (لان وضع ذاك
الاكليل كان وقتئذٍ ضربًا من العبادة الوثنية) فعروا الجندي
من ثيابه الجندية وطرحوه في السجن

فهذا الامر فتح سبيلاً لاضطهاد عام . اما الملك فلم يامر

بعقاب القتل الاَّ على الذين كانوا يعلمون غيرهم ويسوسون الكنائس موقتاً ان الشعب اذا ما خلا من الرعاة يتسهل انقلابهُ عن الدين المسيحي ويخشى ايضاً من انهُ اذا عمَّ الاضطهاد جمهور المؤمنين يبيد شعوب المملكة لان المدن والقرى والعساكر والمجالس كانت ممتلأةً مسيحيين . فوقع معظم الاضطهاد على الاساقفة والكهنة فقضي بالقتل على كل مَن قُبض عليهِ وقتئذٍ وكان البابا بونتيانوس من الشهداء الاولين الذين دفعوا حياتهم تمسكاً بعروة الايمان فخلفه مار انتاروس ولم يضبط زمام الرياسة الاَّ مدة ستة اسابيع والمظنون انهُ نال ايضاً اكليل الشهادة . فلم يكن حكم مكسيمينوس الاَّ ضروب قساوة وحشية متواصلة لكن الاخبار عنها لم تصل الينا بالتفصيل بل روي ان الكنائس اسلمت للحريق وهذا يدل على ان المسيحيين كانت لهم محلات عمومية يقضون فيها افعال العبادة . فلم يستمر هذا الاضطهاد الاَّ ثلث سنوات لان مكسيمينوس قد صير نفسه ممقوتاً فقتله احد جنوده بعد ما ملك زمناً ليس بطويل

الفصل الثامن والثلثون

في الاضطهاد السابع على عهد الملك داسيوس

سنة ٢٤٩ للمسيح

واثار الملك داسيوس الاضطهاد السابع على المسيحيين . فمذ بداية ملكهِ ابرز امرًا بسفك دمائهم وانفذهُ الى جميع ولاة الاقاليم فاجروهُ بقساوة لا مزيد عليها فلم يكن لجميع الحكام اهتمام الاَّ بالتفتيش على المسيحيين وبجمع كافة اصناف النكال لتعذيبهم . فعذبوهم بالحبوس والضرب بالسياط والنار والوحوش الضارية والزفت المغلي والشمع المذاب والاوتاد المروسة والكماشات المحمية اما الكنيسة فكانت تتعزى عند مشاهدتها جمهور بنيها ثابتين في الايمان ومتكبدين العذابات الاشد قساوة والاطول مدةً بعزم عجيب وصبر غريب . ومقدامهم وقدوتهم في مضمار الجهاد البابا مار فابيانوس اذ كان من الاولين الذين ذُبحوا في هذا الاضطهاد . وقد أُحضر في محكمة والي فلسطين مار اسكندر اسقف اورشليم وهو شيخ جليل فاعترف ثانية بيسوعَ المسيح ولم يرهب العذاب لانهُ كان شهد لربهِ في ايام الملك سافاروس قبل اربعين سنة فطرح في السجن وتوفي مكبّلاً بالقيود ثم نال مار

بابيلاس اسقف انطاكية اكليل الشهادة مع ثلاثة فتيان كان يعلمهم قواعد الايمان المسيحي

فكان عدد الذين قُتلوا وقتئذٍ لاجل الايمان وافرًا جدًا وعلى ما روى المؤرخ نيسوفوروس من المستحيل احصاؤهم. فبعد ما اجرى الظالمون عليهم اشد العذابات ولم يستفيدوا شيئًا شرعوا يستعملون ضروب النكال البطيئة ليجزعوا الشهداء واحيانًا يغرونهم بجميع الملذات ليفسدوهم وهاك واقعتين تدلان على دقة هذه القساوة التي اجروها . كان احد المسيحيين قد احتمل العذاب من تمشيط جسمه باظفار من حديد وحريقه بصفائح من حديد محمي فلما كان جسده مثخنًا بالجراح طلوه بعسل وربطوا يديه وراء ظهره وبسطوه في الشمس المحرقة منكبًا على وجههِ ليقاسي لذع النحل والزنابير غير المطاق . واخر كان في ريعان الشباب اتوا بهِ بامر القاضي جنة مبهجة واقاموه بين السوسن والورود بالقرب من منهل عذب جميل المنظر تحت اشجار تميس اغصانها بنسيم رطب فبسطوه على سرير ناعم وربطوا يديه بمنديل من حرير وتركوه وحده ثم ارسلوا اليهِ امرأة عاهرة كانوا اختاروها بما انها اهل لتستميل قلب الشهيد الى حبها وتغريه بالفحشاء . فلعمري ان هذه محنة شديدة يقتضي عزم متين لدفعها . فلما كان الشاب القديس مستهدفًا لسهام التجربة ولم

يجد لديهِ وسيلة للنجاة منها قرض لسانه باسنانهِ وبصقه على وجه تلك الشقية فذهبت عنه مرتعدة وكثيرون من المسيحيين فروا من هذا الاضطهاد المستعمل فيهِ تارة الاغتصاب وتارة الاغراء ملتجئين الى البراري والقفار ومن جملتهم مار بولس وكان مولده في برية الاسقيط فانفرد عن العالم وهو شاب وعاش في ارض قفرة سائرًا سيرة ملائكية منفصلاً عن ضوضاء الناس وملازماً الاتحاد معهُ تعالى

الفصل التاسع والثلثون

في استشهاد القديس ايون

فان اشهر الابطال الذين احتملوا الموت لاجل يسوع المسيح في الاضطهاد الذي اثاره داسيوس هو مار ايون كاهن ازمير فهذا لما كان ذات يوم يصلي في الكنيسة اوحي له من الله بانهُ نهار غدًا يوخذ للجهاد ففي الحال وضع من تلقاء ذاته جنزيرًا في عنقهِ ليرى الظالمين انه مستعد لاحتمال العذاب متى ساقوه الى هيكل الالهة الكاذبة ويعرّف الناظرين انهُ مساق اقتسارًا . فانوه اليوم التالي وقبض رئيس الجند عليهِ وسالهُ قائلاً : اما بلغتك

اوامر الملك : اجابه القديس وقال : علينا وصية لا نجهلها وهي تأمرنا بان نعبد الهًا واحدًا . قال لهُ رئيس الجند هلمّ الى الساحة وتنظر هناك امر الملك الآمر بتقدمة الذبائح للالهة : فبينما هم سائرون بهِ تقاطر اليهِ جمهور كبير من الوثنيين واليهود فاخذ ايبون يعظ هذا الشعب بكلام كثير ولما اوضح في نهاية خطابهِ بانهُ لا يعبد الهتهم ولا تماثيلهم حاولوا في ان يغيروا عزمه فقالوا لهُ : دع عنك العناد ان من مثلك يستحق ان يعيش افلا تصدقنا ان الحيوة خير . اجابهم القديس قائلاً : لا ريب في ان الحيوة خير ولا يحتقرها قط من كان مسيحيًا لكننا نتوق الى حيوة اخرى افضل منها جدًا وانني اشكركم على ما تبدون لي من الوداد الاَّ انني ارى مكرًا في مودتكم . لان البغضة المشتهرة تؤذي اقل من المودة الماكرة : ثم التفت الى القاضي وقال لهُ : ان كان غرضك اما اقناعي واما عقابي فعاقبني لانني لا اقتنع منك للابد . فبعد ما طارحهُ بمسائل كثيرة واجاب عليها القديس اخذ القاضي تقرير الدعوى وسجلها قضائيًا لكي يكون كل شيء معدًا عند وصول الوالي المنتظر قدومهُ

فلما وصل الوالي الى ازمير احضر ايبون الى محكمتهِ وقال لهُ : الا تزال مصرًا على غيك ولا تريد ان تقلع عنهُ تائبًا : قال الشهيد : لست عادلاً عن عزمي للابد . فحينئذٍ امر عليه

بالتعذيب ثم قال له: انني اعطيك مهلةً لتتداول مع نفسك.
قال له الشهيد: لا فائدة من المهلة لانني لا اقدر ان اعدل عما انا
عليهِ: فحينئذٍ اخرج القاضي الحكم مسطرًا على لوح بهذه الالفاظ.
اننا نحكم على ابيون المنافق الذي اقر على نفسهِ بالنصرانية ان
يُحرق حيًا انتقامًا للالهة وترهيبًا لغيره: فتهلل الشهيد فرحًا
وذهب الى منقع العذاب بدون خوف وتعرّى من ثيابهِ طوعًا
وبسط نفسه على الخشبة وطلب ان يسمروه عليها فسمروه.
فلما علق عليها قال له الظالم: اقلع عن غيك حيث لك زمن
ايضًا للاقلاع وعد انك تصنع ما يأمرونك بهِ فينزعوا منك
المسامير. قال الشهيد: لا اكفّ قط عن عزمي بل انني متلهف
لان اموت لكي ابعث: فرفعوه حينئذٍ معلقًا على الخشبة وصوّبوه
نحو الشرق ثم كدّسوا الحطب حولهُ واضرموا النار فيهِ فلما
اغمض عينيهِ ظنهُ الشعب انه قد مات لكنهُ كان يصلي سرًّا. ولما
انتهى من صلاتهِ فتح عينيهِ فشاهد لهيب النار يرتفع ففرح وقال:
امين ربي اقبل نفسي: ثم تنهد تنهدًا خفيفًا واسلم الروح. وبعد
ما طفيت النار وجد المسيحيون جسده صحيحًا وكانهُ في كامل
العافية وكان شعره سليمًا من كل اذاء ولحيتهُ جميلة وطلعتهُ منيرة.
فتثبت المؤمنون في الايمان وارتعب غير المؤمنين من هذا المنظر
وانهزموا من خوفهم وهم معذبون بتبكيت ضميرهم على ما عملوا

الفصل الاربعون

في الاضطهاد الثامن على عهد الملك فالريانوس

سنة ٢٥٧ للمسيح

ان الاضطهاد الذي كانت خمدت نيرانهُ عادت تسعر باضطرام جديد في ايام الملك فالريانوس . وكان احد اعوانهِ يبغض المسيحيين فحملهُ على اضطهادهم واقنعهُ بانهُ لكيما يفوز في الحرب التي اوشك ان يثيرها ينبغي لهُ ان يبيد الدين المسيحي . فابرز هذا الملك اوامر الاضطهاد ونال بها عدد غفير من المسيحيين اكليل الشهادة . واشهر هولاء الشهداء مار لورنسيوس اول شمامسة كنيسة رومية . فلما كانوا آتين بالبابا مار سيكستوس ليقتلوهُ وكان رقاه الى درجة الشمامسة انقد لورنسيوس رغبةً في ان يُدعى بصحبته لاجل يسوع المسيح واخذ يسير وراءهُ وهو يبكي بكاءً مرًّا ويقول لهُ : اين تذهب يا ابتي بدون ابنك ايها الحبر القديس اين تمضي بدون خادمك : اجابهُ مار سيكستوس وقال : يا ابني قد أُعد لك جهاد اشد من جهادي ستتبعني بعد ثلثة ايام : فتعزى بهذا الكلام وشرع يتأهب للاستشهاد واسرع في توزيع كل ما كان تحت يدهِ من المال على الفقراء والبائسين لان الشمامسة كانوا وقتئذٍ موكلين بادارة اموال الكنائس

فبلغ والي رومية ان الكنيسة لها غناء جزيل فاراد ان يسلبه فارسل يطلب الشماس الذي كان امينها وقال له: انتم المسيحيون تشكون من قساوة معاملتنا اياكم فليس القول هنا في التعذيب بل اطلب منك ما يمكنك ان تعطينيه وقد بلغني ان عندكم انية ذهبية وفضية لاجل تقدمة ذبائحكم فادفع لي هذه الكنوز فان الملك يحتاج اليها لاعالة عساكره. قال لورنسيوس: اي نعم ان كنيستنا غنية وعندها كنوز ثمينة ليس عند الملك مثلها فانني اريك قسماً كبيراً منها ان منحتني اجلاً لاكشفها واجعلها في نظام: فلم يفهم الوالي ماذا اعنى بهذه الكنوز فاعطاه مهلة ثلثة ايام. ففي هذه الفترة شرع لورنسيوس يطوف المدينة ويجمع الفقراء الذين تعولهم الكنيسة ثم مضى يقول للوالي بان كل شيء قد صار معداً. فقام الوالي وتبعهُ الى الكنيسة فلما شاهد جمهوراً وافراً من العميان والمقعدين عوضاً عن تلك الانية الثمينة التي كان ينتظرها احتدم غيظاً على الشماس ونظر اليهِ شذراً. فقال له لورنسيوس: ما بالك تغتاظ ان الذهب ما هو الا مادة حقيرة وهو علة لاسواء كثيرة. فالذهب الحقيقي هو النور الالهي الذي يضيء على هولاء الفقراء فهاك الكنوز التي وعدتك بها: قال له الوالي وهو يتلظى بنيران الغضب أهكذا تسخر بي اني اعلم بان المسيحيين يفتخرون باحتقار الموت فلا تؤملنَّ اني اميتك سريعاً بل اطيل عذابك

فتموت تدريجًا وهكذا صار لانهم شرعوا اولاً يضربونه بالسياط حتى تمزق جسمهُ ثم احموا مصبعًا من حديد وبسطوهُ عليهِ فكانت النار تنفذه بطيئة لكن نار المحبة الالهية كانت تضطرم في قلبهِ اشد اضطرامًا من تلك التي كانت تمزق جسمهُ وتجعله غير مشعر بالعذاب فلم يكن يبالي الاَّ بناموس الرب وكان يضحي عذابهُ تخفيفًا حقيقيًا فبعد ما قاسى هذا العذاب الشديد زمانًا طويلاً قال للقاضي بهدو وروق بالٍ: ان جسمي قد شُوي من هذه الجهة فمر ان يديروني على الجهة الاخرى: ثم رفع عينيهِ الى السما مصليًا لله لاجل حفظ رومية واسلم الروح . فما اشد هذا البأس وما اعظم هذا الهدو بين العذابات القادحة لعمري ان عون الله وحده القدير على كل شيء هو علته وهو موليه

الفصل الحادي والاربعون

في ما كان من القديس كبريانوس

وفي هذا الاضطهاد نفسه تكلل القديس كبريانوس اسقف قرطاجنة باكليل الشهادة فكان هذا القديس قد وُلد في افريقيا من والدَين شريفين وعلم الفصاحة في قرطاجنة وحاز في تعليمهِ

شهرة عظيمة . فلم يعتنق الايمان المسيحي الّا بعد بلوغه في السن وتمعنه جيدًا في حقيقتهِ . وكان قبلاً توقف زمانًا مديدًا عن الاعتماد وعن ترك الديانة الوثنية التي وُلد فيها اذ كان يلوح لهُ الامر متصعبًا ان يولد ثانيةً ويستسير سيرةً جديدة وينقلب عما هو عليهِ وهو في الجسد نفسه فكان يقول : كيف يمكن الاقلاع عن ملكات تعتقت وصارت كطبيعة ثانية وكيف يتعلم الامساك من كان معتادًا على مائدة متفننة بالاطعمة اللذيذة : وهذا قد كتبه في رسالة الى احد اصدقائهِ فاردف قولهُ فيها : ولكن لما محت ماء الولادة الثانية ادران سيرتي الماضية وتطهر قلبي وقبل النور السماوي هدت جميع مستصعباتي واستسهلت ما كان يتراءى لي ممتنعًا : فتقدم في الفضيلة تقدمًا عظيمًا حتى استحق ان يُرقى الى درجة الكهنوت بعد عماده بزمن يسير . ثم لما توفي اسقف قرطاجنة طلبه المؤمنون بلجاجة راعيًا عليهم فاضطر الى ان يذعن لطلبهم فزادت فضائله بهاءً في هذا المقام ولم يكن حدٌّ لمحبتهِ للفقراء . فغار غيرة شديدة على توطيد التهذيب وتعليم خرافهِ

ولما كان الوثنيون يطلبونهُ خاصة ليقتلوه في الاضطهاد الذي اثاره الملك داسيوس ففر منهُ مبتعدًا الى زمن ما فكان الظالمون مرارًا عديدة يصيحون في المشهد قائلين : فليطرح كبريانوس للوحوش . لكنهُ لم يمكث بطالاً في مخباه بل كان

يهتم بلا ملل في خير شعبه سواء كان بالرسائل التي كان يرسلها اليهم او بسعي الذين امنهم على رعايتهم فلما عاد الى كنيستهِ امتدت اهتماماتهِ على سائر افريقيا وكان متيقظاً على كل ما يحدث ولا يخفى عليهِ شيء بتةً. فلما وقع انشقاق في رومية وذلك ان نوفاسيانوس كان سيم هناك اسقفاً في حيوة القديس قورناليوس الحبر الاعظم الشرعي فلما علم كبريانوس بذلك اضطرم غيرةً على ملاشاة هذا الانشقاق فكتب ضد الاسقف الدخيل قائلاً ان الانشقاقات تتأتى عن كون قوم يحتقرون بجسارة فظيعة الاسقف الواجب من الضرورة ان يكون واحداً في الكنيسة وينبذون ذاك الذي اقامه الله سبحانهُ. فالله واحد ويسوع المسيح واحد وواحد الكرسي الاسقفي المشيد اصلياً على مار بطرس بسلطان ربنا فلا يمكن ان يقام مذبح اخر ولا كهنوت اخر. فمن يبدل الاسقف الذي وضعتهُ البيعة بغيره هو كمن يقيم مذبحاً اخر فكل ما تباشره الناس مغايراً للرسم الالهي هو باطل ومدنس ونفاق فكنيسة يسوع المسيح هي واحدة ذاتياً ولا يُحتمل الانقسام فيها لان يسوع المسيح قال لنا ان الرعية واحدة ولكيما تصير هذه الوحدة محسوسة باجلى بيان بنى كنيسته على واحد اي على مار بطرس وقلده سلطان المفاتيح واُقيم قورناليوس على الكرسي الحبري بموجب القوانين المقدسة فمن جعل نفسهُ اذاً اسقف

رومية فسخ الوحدة ولا يمكن ان تكون سيامته شرعية حيث
لا يصح ان يقام اسقفان على كرسي واحد بل من اقيم بعد الاول
ليس هو الثاني ولا شيء هو فلا سلطان له ولا محل بين الاساقفة
فليس هو راعياً بل نجساً وغريباً وكافراً ولا يخلف احد بل
يبتدئ من نفسه ويجدُ في ان يقيم كنيسة جديدة اي كنيسة بشرية
محضاً لا كنيسة الله - وهذا ما عملهُ نوفاسيانوس لانهُ قد انتخب
خلافاً لكافة نواميس التهذيب من افراد خائنين تركوا راعيهم
الحقيقي . فمتى اقيم اسقف مرةً فلا يعود وجه لقيام اخر بتة بل
يكون قيام الاخر ذنباً جسيماً لا يمحضهُ الاستشهاد نفسه حيث
لا استشهاد حقيقي خارج الكنيسة . فقد يقاسي المشاقون القتل انما
لا ينالون الاكليل وكل من يفرّق قطيع الرب يصير نجساً وغريباً
وعدواً . ومن ليست الكنيسة امهُ فليس الله اباً لهُ (انتهى قوله)

الفصل الثاني والاربعون

في استشهاد القديس كبريانوس

فكان كبريانوس مهتماً في قضاء اعمال الغيرة لما اثار
الملك فالريانوس الاضطهاد الثامن . فاحضرهُ باترنوس والي

افريقيا في محكمتهِ وقال لهُ : ان الملك امرني ان الزم جميع رعاياه بان يتمسكوا بالدين المتمسك بهِ هو : قال لهُ الاسقف : انا مسيحي واسقف ولا اعرف الاَّ الله الواحد الحقيقي الذي صنع السماء والارض وهو الاله الذي نعبده ونتوسل اليهِ بالخصوص لاجل توفيق الملوك : قال لهُ الوالي : اريد ان اعرف من هم الكهنة الملازمون خدمة الكنيسة : اجابهُ كبريانوس وقال : لا اقدر ان افشيهم لان نواميسك نفسها تشجب الوشاة : فبعد ما طارحه بسؤالات غير هذه واجابهُ عليها اجوبة سديدة نفاه الوالي الى كاروب وهي مدينة صغيرة من اماكن افريقيا ونفى ايضاً في الوقت نفسه جملة اساقفة من افريقيا وكهنة كثيرين شتت شملهم في اماكن البرابرة حيث قاسوا محناً لا تحصى فعزاهم كبريانوس برسالة لا يتلوها انسان الاَّ ويضطرم قلبه بنار المحبة فعبر فيها على انهُ جاعل سعادته في التألم لاجل يسوع المسيح

فبقي سنة كاملة في المنفى ثم دُعي الى قرطاجنة ليحاكم من واليها الجديد الذي خلف باترنوس وكان الاضطهاد وقتئذٍ اشتد سعيره وامر الملك بقتل الاساقفة والكهنة والشمامسة في الحال فأُسلم كبريانوس الى رئيس الجنود الذي كان مقيماً في احدى دساكر قرطاجنة فأُبيح لاصدقائهِ ان ينظروه وتقاطر الشعب كله اليهِ . واذ كان المسيحيون يخشون من ان يقتلوه في

الليل فسهروا ذاك الليل كله على باب المحل النازل فيهِ وكان الوالي وقتئذٍ في مكانهِ الصيفي فاتوهُ بالاسقف في معمعان الحر . فلما شاهدهُ احد الجنود مغمساً بعرقهِ شار عليهِ ان يغير ثوبه فاجابه القديس ما الفائدة من السعي في تخفيف ضيم اوشك ان ينتهي فلما نظرهُ الوالي سالهُ قائلاً : أأنت تُدعى كبريانوس . اجابه الاسقف وقال : نعم انا هو . فقال لهُ : ان الملك يامرك ان تقدم ذبيحة للالهة . قال لهُ كبريانوس : حاشا لي ان اتي بهذا العمل . فقال لهُ الوالي : افتكر بما يفيدك . قال كبريانوس : لا حاجة للتبصر في امر عادل : اخيرًا بعد ما تداول الوالي مع اعضاء مجلسه خاطب القديس قائلاً : ان لك زمانًا مديدًا تتمسك بالكفر ولم تستطع ملوكنا ان تقبل بك الى ما هو احسن فمن كونك امام هذه الشيعة المؤذية تصير عبرة للذين اغريتهم بالعصاوة ويثبت دمك رسوم النواميس : قال هذا وتناول لوحًا وكتب عليهِ ثم قرأ بصوت عالٍ ما كتبه قائلاً : قد حُكم على كبريانوس ان يُقتل بالسيف : فهتف القديس بفرح قائلاً : الشكر لله : وصاح المؤمنون الكثير عديدهم في الجمع قائلين : فلتقطع روسنا ايضًا

وكانوا اعدوا منقع العذاب محلاً تحيط بهِ اشجار كبيرة يبعد قليلاً عن المدينة وكان ذاك المكان الفسيح غاصًا بالجمهور

الوفير الذي تقاطر اليهِ . ولم يزل الاسقف الى اخر نسمة من حياتهِ يبين عظم اهتمامهِ بخرافهِ لانهُ لما علم ان في الجمهور عذارى شابات امر ان تُحمى من كل خطر . ثم لما وصل الى مكان العذاب خرَّ الى الارض على وجههِ وصلى لله سبحانه صلوة حارة . ولما انتهى من صلاتهِ نزع عنهُ ثيابه ودفعها لتلاميذه ثم تناول العصابة ليغطي بها عينيهِ وحيث عسر عليهِ ربطها وراء راسه تقدم كاهن وشماس وربطاها لهُ فلدى حضور الجلاد امر الشهيد ان يُعطى اجرة خمسة وعشرين ذهبًا ثم جمع يديهِ على صدره بشكل صليب ومد عنقهُ فضربهُ الجلاد ضربةً نقلته من هذه الدنيا الماكرة الى دار السعادة الخالدة وكان المؤمنون بسطوا تحتهُ قبل قطع راسهِ قماشًا ليستلقوا بهِ دماءهُ فتضمخ القماش بهذا الدم الزكي وحفظوه باكرام ديني ذخيرة ثمينة

الفصل الثالث والاربعون

في استشهاد القديس مونتانوس ورفاقه

اما الاضطهاد فلم ينتهِ قط بموت القديس كبريانوس بل بقي بعد ذلك ثائرًا عدة اشهر ونال فيهِ جمهور وافر اكليل

الشهادة واشهرهم في افريقيا مار مونتانوس ورفاقه الثمانية وقد اتونا انفسهم ببداية رواية استشهادهم وتممها احد الشهود العيانيين فهاك ما روى: لما قُبض علينا بلغنا الى الوالي فاوشك ان يقضي علينا بالحريق ونحن احياء وان القضاء يجري من الغد لكن الله سبحانه القابض بيده على قلوب القضاة لم يسمح باجراء هذا النكال علينا فغير الوالي قصده واعادنا الى السجن فلم يرهبنا فيهِ شيء لان ظلمتهُ تبددت بضياء سماوي ونور الروح القدس اشرق في هذا المكان المظلم وفي اليوم التالي نحو المساء اخرجونا منهُ واتوا بنا دار الوالي ليسالنا عن ديانتنا فيالهُ من يوم سعيد لعمري ان القيود التي كبلونا بها استبانت لنا خفيفة جدًّا فطارحنا الوالي بمسائل كثيرة خالطًا بها الوعد والوعيد. اما اجوبتنا فكانت مشعرة بالتواضع والثبات والبسالة كما يليق بالمسيحيين اخيرًا خرجنا من المحكمة ظافرين بابليس فرجعوا بنا الى السجن واخذنا نتأهب لجهاد جديد فاقسى ما تكبدنا من العذاب الجوع والعطش لانهم بعد ما شغلونا النهار كلهُ منعوا عنا كل ماكل ومشرب لكن الله سبحانهُ قد عزّى قلوبنا اذ اوحى الينا في الرؤيا انه لم يبقَ علينا الاَّ بعض ايام نتألم فيها ووعدنا بانه لا يهملنا بتةً. ويسَّر لنا بعض اشربة مبردة اتانا بها اثنان من المسيحيين فهذا العون فرَّج الضيق عنا نوعًا وحسن حالة مرضانا فنسينا حالاً مشقاتنا

واخذنا نبارك رحمته تعالى التي تنازلت لتخفيف عذاباتنا اما الذي افادنا كثيرًا اسعافًا وعضدًا هو الاتحاد المتين فيما بيننا لان جميعنا لم يكن لنا الاَّ روح واحدة تعصمنا بالصلوة والمفاوضات الروحية فتعلمون انتم انهُ لاشيَّ احلى من هذه المحبة الاخوية ولا احسن قبولاً لديه تعالى فننال بها منهُ تعالى كل ما نلتمسهُ كما وعد من فمهِ العزيز قائلاً : اذا اجتمع اثنان على الارض يطلبان من ابي شيئًا فينالانهُ حقًّا (انتهى قولهم)

اخيرًا احضرهم الوالي ثانيةً الى محكمتهِ فجميعهم اعلنوا جهارًا بانهم ثابتون على عزمهم الاول فحينئذٍ اخرج الوالي الحكم عليهم بقطع الراس فذهبوا بهم الى منقع العذاب وكان الشعب يتقاطر اليهم افواجًا من مؤمنين ووثنيين. اما الشهداء فكانت تباشير السرور لائحة على طلعاتهم لعلمهم بدنو السعادة الخالدة منهم فكانوا يعظون بعزم الجمهور المحدق بهم ويحرضون المؤمنين على الثبات في الايمان وعلى حفظ هذه الوديعة الثمينة وعبدة الاوثان على ان يقلعوا عن ضلالهم ويعرفوا الاله الحقيقي ويعبدوه. فقالوا لهم : كل انسان يذبح ذبائح للالهة سيباد لان ترك الاله الحقيقي وعبادة الابالسة هو كفر شنيع : فنالوا جميعًا اكليل الشهادة بقطع الراس

الفصل الرابع والاربعون

في ثبات ولدٍ

ان الله سبحانهُ الذي يعطي اللبابة للاولاد متى شاء ليصلح من افواههم سبحًا لهُ اراد ايضًا ان يفيدوا الايمان تأييدًا ونصرًا باعترافهم بهِ بلا خوف . فمنهم في قيصارية الكابدوك ولد اسمهُ كيريللوس قد ابدى باسًا خارق العادة واوعب قلوب المؤمنين فرحًا وتعجبًا فكان هذا الولد المبارك لا يزال يلفظ اسم يسوع المسيح ويشعر من تلفظهِ بهِ بقوةٍ تذهلهُ عن تاثير ما كان يبدى لهُ من الوعد والوعيد وكان لهُ اب وثني يبذل جدهُ وجهدهُ في ان يجبره على ان يستغيث بالالهة فلما لم يذعن لهُ عزّره وطرده من عندهِ . فدري بهِ قاضي المدينة وارسل باثرهِ جنودًا قبضوا عليه واتوهُ بهِ فاخذ القاضي يلاطفه قائلاً لهُ : انني اريد ان اصفح عن ذنوبك لاجل صغر سنك فعليك اذًا ان تدخل في خاطر والدك وتتمتع بخيراته . فكن عاقلاً واقلع عما انت عليهِ من الخرافات . اجابهُ الولد : ان سروري باحتمال الملامة على ما اصنعه لان الله سبحانه سيقبلني لديه واكون عندهُ باحسن حال مما انا عند ابي . وانا افرح لكوني طُردت من بيت ابي فاحل في

بيت أكبر واجمل منه : فاني اترك طوعًا واختيارًا جميع الخيرات الزمنية لاكون غنيًا في السماء ولا اخشى من الموت لانه عاقبته حيوة فضلى : وكان كلامه هذا بباس يدل على ان الله سبحانه هو المتكلم فيهِ

فحينئذٍ شرع القاضي ينتهر الولد ليرعبه وتوعده بالقتل وامر بان يقيَّد كانهُ مساق للعذاب وان يعدوا محرقة ويضرموا النار فيها . اما هذا الولد العجيب فضلاً عن انه لم يتزعزع من هذا الوعيد فقد ازداد بهِ ثباتًا وقوةً فاسلم نفسه الى يدي الظالمين وساقوه الى منقع العذاب بدون ان تقطر دمعة واحدة من عينيهِ ثم ادنوه من المحرقة وتوعدوه بان يطرحوه فيها فلم ينثنِ بتة عن ثباته وكان القاضي امر سرًّا ان يخوفوه بذلك تخويفًا فقط . فلما راوا ان منظر العذاب لم يؤثر فيهِ عادوا بهِ الى القاضي فقال لهُ : قد نظرت النار وشاهدت السيف اتتأدب الان وتذعن لارادتي وارادة ابيك لكيما يعود يرضى عليك ويقبلك في بيته : اجابهُ الفتى كيرللوس بقولهِ قد اسأت اليَّ اذ عدت فاستدعيتني اليك لست خائفًا لا من النار ولا من السيف بل انني متلهف لامضي الى دار اجمل جدًّا من دار ابي وانا تائق الى غناء اثبت وارهن وهو غناء الله تعالى الذي يقبلني في مظالهِ الابدية ويجازيني بنعيم خالد فاسرع في قتلي لامضي اليه عاجلاً : وكان الحاضرون يبكون عند

سماعهم الفتى يتكلم بهذا الكلام اما هو فقال لهم: كان الخليق بكم ان تفرحوا عوضاً عن ان تبكوا. وكان الواجب عليكم ان تشجعوني وتقووني على احتمال كل عذاب ولا ان تجبنوني ببكائكم فلا تعلمون ما هو المجد المعد لي وما هو رجائي دعوني انهي حياتي الزمنية: ففي هذه المشاعر مضى الى العذاب كما جاء في رواية استشهاده الا انه لم يذكر باي عذاب تم جهاده. فهكذا كانت قوة العون الالهي ظاهرة جلياً في عمر تلازمه الجبانة والتقلب طبعاً كما شاهدنا ادلتها البينة انفاً في جنس النساء الضعيف الواهن فسبحانه القدير على كل شيء المولي الضعفاء ايداً والجاهلين حكمة تأييداً للحق وانتصاراً للدين

الفصل الخامس والاربعون

في ما عوقب به فالريانوس ومملكته وفي احسان المسيحيين الى الشعب

اما النقمة الالهية فقد حلت على فالريانوس اذ كان اشد مضطهدي الدين المسيحي وافظعهم توحشاً فبعد ما انغلب هذا الملك في معركة مع الفرس بلغ من تغفله الى ان اسلم نفسه بيد

الملك صابور فقبض عليهِ وسجنه وعامله باقطع الذل والامتهان فلما كان صابور يريد ان يركب فرسه كان يامر فالريانوس ان يحني ظهره فيجعل صابور قدمهُ على عنقه كعلى ركابة ويصعد عليها الى صهوة الفرس اخيرًا سلخ جلدهُ وهو حي وصبغه بلون احمر وعلقه في احد هياكل الفرس تذكارًا لعار الرومانيين . فكان الوثنيون يتعجبون من هذا المصاب الذي حل بفالريانوس اما المسيحيون فكانوا يعلمون ان يد العلي ثقلت بعدل على راس ملكٍ اضطهدهم بقساوة وحشية . وكانت المملكة وقتئذٍ غرقى في بلايا هائلة لان شعوب الغطط تقاطروا من تراسيا ومكدونيا ونزلوا في كامل بلدان الاغريق ودمروها ثم جازت قبايل جرمانيا جبال الالب وتوغلت في ايطاليا حتى وصلت الى رافان ومنهم دخلوا غاليا وجازوا الى اسبانيا . ثم الصرمانيون خربوا بانونيا والبرتيون دخلوا سورية وكانت الحروب الاهلية ثائرة في كامل المملكة فتقسمت البلدان وتحزبت الشعوب فبلغ عدد روساء الاحزاب ثلثين وجميعهم كانوا يسمون نفوسهم ملوكًا رومانيين . وحدثت ايضًا زلازل عظيمة اهلكت امصارًا كثيرة وطما البحر في اماكن كثيرة فدمرها وعقب الوباء هذه النكبات جميعها وكان شديدًا في رومية بهذا المقدار حتى انهُ هلك الوف كثيرة من الناس في يوم واحد . ولم يكن الموت اقل من ذلك في

الاسكندرية . قال مار ديونيسيوس اسقف هذه المدينة : كان حزن الموت شاملاً الجميع فلم تبقَ عائلة لم تبكِ على ميت مات منها بل كان يسمع النحيب والعويل في كامل المدينة

ثم قال الاسقف المذكور : ان هذا المرض كان للوثنيين امرّ جميع النكبات وللمسيحيين سبباً لمباشرة افعال المحبة السامي قدرها . فكانوا وحدهم يتجرأون على مساعدة المرضى وكثيرون من اخوتنا لم ينجوا من سيف الوباء فكانوا يتفقدون المرضى ويعزونهم ويخدمونهم بلا خوف ولم يوقفهم عن ذلك خطر العدوى حتى ان كثيرين اصابهم المرض وماتوا وهم يشفون غيرهم وكهنة كثيرون وشمامسة وعلمانيون فضلاء ضحوا حياتهم في خدمة المرضى وقام غيرهم عوضهم في هذه الاعمال الجليلة اما الوثنيون فبالعكس اي انهم كانوا ينهزمون من وجه الوباء ويتركون اعز محبيهم ويطرحونهم في الازقة قبل ان يموتوا ويدعون الجثث بدون دفن مكدسة كالمزابل خوفاً من ان يصيبهم الوباء لكنهم مع ذلك لم ينجوا منه : (انتهى قوله) فكان الجميع يتاثرون من الفرق الحاصل بين سلوك هولاء واولئك ويقرون جهراً بان المسيحيين وحدهم يعرفون التقوى الحقيقية . والكنيسة ايضاً تكرم كشهداء اولئك الذين امسوا ذبائح المحبة بسبب هذا الوباء

الفصل السادس والاربعون

في الاضطهاد التاسع على ايام الملك اورليانوس

سنة ٢٧٤ للمسيح

ولم يكن الملك اورليانوس في بداية حكمه مضاداً للمسيحيين لكنه غير في ما بعد تصرفه نحوهم فظن انهُ يكتسب مودة رجال دولته والشعب باضطهاده اعداء الهتهم . فلما اوشك ان يمضي امراً هائلاً بسفك دماء المسيحيين اوقفته عن ذلك صاعقة انقضت على رجليه فارتعد خوفاً وعدل وقتئذٍ عن هذا المقصد لكن ارادته لم تتغير بتة وكان الاضطهاد مؤجلاً لوقت اخر . قال المؤرخ لكتنسيوس وكان قريباً من عصره : لما اسلم اورليانوس قلبه للفساد ابرز اوامر بسفك دمائنا ولكن كان ذلك في اواخر حكمه وحيث لم يحكم زماناً طويلاً توفي قبل ما بلغت الاوامر الى الاقاليم البعيدة وهكذا اعلن الله سبحانه انهُ لا يسمح لاراكنة العالم باضطهاد عباده الاَّ حسب ما يقتضيه عدله تعالى او رحمته نحوهم ولكن من كون نوايا الملوك المعروفة ليست باقل تاثير من اوامرهم نفسها كانت بغضة هذا الملك للمسيحيين مورثة لهم اضطهاداً شديداً قتل فيهِ شهداء كثيرون ومن اشهرهم

مار كونون الذي نال اكليل الشهادة في ليقونيا . فلما كان القاضي يزدري بزهده وتقشفه اجابه الشهيد ببسالة قائلاً: ان في الصليب كل نعيمي فلا تظن انك ترهبني بالعذابات التي تعدها لانني اعرف قيمتها واعلم كم تساعدني على نوال السعادة الحقيقية فانني تائق الى احتمال اشد النكال واطوله : اما القاضي فلكيما يلين صلابة عزمه ساله هل لك اولاد : فاجابه لي ولد واحد وكنت اشتهي ان يشترك بسعادتي فارسل القاضي حالاً يدعوه اليه فلما حضر حكم عليهما بنفس العذاب فنشروا ايديهما بمنشار من خشب وبسطوهما على جمر نار ثم انزلوهما في قدر زيت يغلي وفيه تما جهادهما وهما يسبحان الله

واخبر ان في هذا الاضطهاد نال مار ديونيسيوس اول اساقفة باريس اكليل الشهادة فبعد ما انشأ هذا الاسقف الجليل بيعة زاهرة في هذه المدينة اخذ يسعى بواسطة تلاميذه في انتشار الايمان في الاقاليم المجاورة وكانت غيرته في ذلك شديدة بهذا المقدار حتى استحق ان يلقب برسول غاليا فلا يُعلم بالتفصيل سيرة هولاء الائمة الرسوليين لكن المشهور انهم حرثوا حقل الرب هذا وجنوا منه ثمارًا وافرة ولكيما يزيدوه نموًا وخصبًا اقتضى ان يسقوه ليس بعرق اتعابهم بل وبدماء اعناقهم ايضاً . فكلل الله سبحانه مساعي امامهم باكليل الشهادة . فما بلغنا من تقريرات جهاده هو انهُ في

الاضطهاد الذي ثار بديهيًا قبض عليهِ مع الكاهن روستيكوس والشماس الوتاريوس بامر الوالي فشانتين وبعد ما اعترفوا بالايمان ضُربوا بالسياط وقاسوا عذابات اخر مختلفة ثم نالوا أكليل الشهادة بقطع الراس . وقد جاء في التقليدات الثابتة المؤيدة باثارات قديمة انهم قتلوا شهداء في جبل بالقرب من باريس سمي لذلك جبل الشهداء ولا يزال في باريس معروفًا محل سجن مار ديونيسيوس ومكان تعذيبه الى وقتنا هذا وبُني فيها كنيستان على اسمه . فكان الوالي امران تُطرح جثث الشهداء في النهر ولكن امرأة وثنية كانت عازمة على اعتناق الايمان ارشت المخولين هذا العمل فاخذت ذخائرهم المقدسة ودفنتها سرًّا

(راجع مروج الاخبار وجه ٥٩٧ في زمان جهاد القليس ديونيسيوس)

الفصل السابع والاربعون

في الاضطهاد العاشر وهو الاخير على عهد ديوكليسيانوس

سنة ٣٠٣ للمسيح

واذ كانت المملكة الرومانية منذ ثلثة اجيال تشن الغارات المتواصلة على الديانة المسيحية ولم تقوَ عليها فبذلت اخر ما عندها

من الجهد لتبيدها لكنها فضلاً عن انها لم تهلكها قد انمت توطيدها.
فكان وقتئذٍ ديوكليسيانوس مالكاً في الشرق ومكسيميانوس في الغرب فابرز الاول في نيقوميديا سنة ٣٠٢ امراً بهدم الكنائس وحريق الكتب المقدسة ولم يكن ذلك الاَّ افتتاح الاوامر الوحشية التي صدرت فيما بعد واجرت الدماء غدراناً في كامل امصار المملكة لان مكسيميانوس اقتفى اثار ديوكيسيانوس زميله وكان ذلك طبق ميله الوحشي الطبيعي . فاجرى على المسيحيين قساوة لم يسمع بمثلها قبله وانزل فيهم ضروب نكال لم تكن معروفة الى ذلك الحين ففي ما بين النهرين علقوا بعض المسيحيين منكسي الرأس وخنقوهم بنار بطيئة. وفي سورية كانوا يشوونهم على مصبعات من حديد محمي. وفي قطر البنطوس يغرزون اقلاماً من قصب مروسة تحت اظفارهم ويسكبون عليهم رصاصاً مذاباً. وفي مصر ينتفون لحامهم بكلابات من حديد ثم يمزقون اجسامهم بشقف من خزف. وفي فريجيا احدقت الجنود بمدينة كان اهلوها مسيحيين جميعاً واسلموها للنار فهلك الرجال والنساء والاولاد جميعاً بالحريق وهم يدعون باسم يسوع المسيح
قد اخبر اوسابيوس المؤرخ الذي كان شاهداً عياناً لبعض من هذه المواقع البربرية ان ضروب القساوة التي اجروها على المسيحيين في هذا الاضطهاد المهول تفوق كل وصف . وقال

لاكتنسبوس ان الارض باسرها من الشرق الى الغرب طفحت بالدماء . فالله سبحانه لم يهمل قط كنيسته بل عضدها بنوع منظور في هذه الشدة المهولة وإتاها بالعون على قدر شدة البلية . فابتداء الاضطهاد من بلاط الملك نفسه وكان كثيرون من رجال دولتهِ ورؤساء عساكرهِ مسيحيين فاراد الوثنيون ان يجبروهم على ان يذبحوا للاوثان لكنهم اثروا ان يفقدوا نعمة الوالي وينزعوا من مقاماتهم ويتكبدوا امرّ النكال احرى من ان ينكثوا بعهد الامانة لهُ تعالى وكان من جملتهم رجلٌ اسمه بطرس فهذا قاسى بعزم وثبات غريبين عذابات ترتعد الفرائص فرقًا من مجرد ذكرها فبعد ما عرّوه من ثيابهِ ربطوه على آلة ورفعوه عاليًا ثم تركوه يسقط على البلاط فتحطم جسمهُ من هذه السقطة وبعد ذلك شرعوا يضربونه بالعصي حتى تمزقت اعضاؤه وكانت جراحاتهُ هكذا بليغة حتى كشفت بها اعظامهُ ثم صبوا عليها ملحًا وخلاً وكل هذه العذابات المرهبة لم تزعزعهُ بتةً فحينئذٍ اتوا بمصبع من حديد واضرموا النار تحتهُ وبسطوه عليهِ واخذوا يشوونهُ على المصبع عضوًا فعضوًا ولكيما يطيلوا عذابهُ رفعوه عن النار وبعد هنيهةٍ من الزمن اعادوه اليها الا ان الظالمين لم يستفيدوا منهُ شيئًا بضروب هذه القساوة الوحشية بل ظفر الشهيد بالعذاب وبالمعذبين واسلم الروح وهو راقد على المصبع المحمي ولم يتأوه ولم يظهر ادنى علامة

تشير الى الضعف . فلله ما هذه القوة وما هذا الثبات . سبحانهُ القدير الذي يدرع عبيدهُ بقوتهِ الالهية ويسكرهم بكأس حبهِ حتى يذهلهم عن العذاب وهم في وسط النيران المحرقة

الفصل الثامن والاربعون

في استشهاد مار كوينتينوس

وقد اقام مكسيميانوس ريكسيوس فاروس والياً على غاليا فكان هذا الوالي قاسياً مثل مولاه ويطوف المدن منزلاً فيها الخوف والرعبة ويضبغ بدماء المسيحيين الاماكن التي يجتاز بها فاتى مدينة اميان حيث كان القديس كوينتينوس ابن احد رجال الدولة مجدًّا في الانذار بتعليم الانجيل وكان انذاره مقروناً بالنجاح فقبض الوالي على هذا الرسول واحضره الى محكمتهِ وسألهُ عن اسمهِ . فاجابهُ القديس : انني مسيحي وهذا اسمي وان شئت ان تطلع على اكثر من ذلك فابواي سمياني كوينتينوس : قال لهُ الوالي : ومن هما ابواك قال لهُ كوينتينوس : انني روماني وابن زينون احد رجال الدولة . قال لهُ الوالي : فكيف وانت سليل الاشراف قد ساقك الغرور للاصرار على هذه الخرافات المملوءة حمقاً : اجابهُ

كوينتينوس وقال : ان اعظم الشرف هو معرفة الله والقيام بحق عبادتهِ وحفظ وصاياه اما اسم الخرافات الذي تلقب بهِ الديانة المسيحية فلا يليق بها لانها تقود الى السعادة السامية وتعرفنا الاله الحقيقي وابنهُ يسوع المسيح الذي بهِ كان كل شيءٍ وهو المساوي لابيهِ في جوهر جميع صفاتهِ : قال لهُ الوالي : ان لم تضحِ الآن اقسم بالهتنا والاهاتنا اني لاقتلنك بامرّ النكال : اجابهُ كوينتينوس وانا اؤكد لك بالرب الهي باني لست فاعلاً ما تامر بهِ ولا خاشيًا لا وعيدك ولا الهتك : فشرع الظالم يجلدهُ جلدًا قاسيًا ثم امر ان يحشروه في سجن ضيق فزاره ملاك في هذا السجن وامره ان يمضي ويعلم الشعب فخرج منهُ بدون مانع بتةً واسرع ينذر في الساحة العمومية فاشتهرت هذه المعجزة وخبر تألمهِ لاجل يسوع المسيح وايد اقواله تابيدًا عظيمًا حتى انهُ رد الى الايمان المسيحي نحو ستمائة انسان والسجان انفسهم حيث تحققوا اية خروجه فامنوا بيسوع المسيح

ثم ظهر كوينتينوس مرة ثانية امام الوالي الذي اخذ يجدّ في ان يكتسبهُ بالمواعيد الملقة ولما لم يستفد شيئًا لا بوعيده ولا بمواعيده بادر الى تعذيبهِ ثانيةً فبسطهُ بعنفٍ شديد بواسطة البكرات حتى تخلعت مفاصلهُ ثم مزقوا جسمهُ بضرب السلاسل الحديدية وصبوا على جراحاتهِ زيتًا مغليًا وزفتًا وشحمًا مذابًا وجعلوا عليهِ مشاعل

موقدة. فما امر هذا العذاب لعمري ان قساوة البشر لم تبلغ الى هذه البراعة بفنونها الاّ في تعذيب شهداء يسوع المسيح. اما فاروس فقد تطاير غيظاً لما لم يغلب كوينتينوس بهذه العذابات ولم يثنِ عن تمجيد الرب فامر ان يُملأ فوه كلساً وخلاً ويُكبل بالقيود ويساق الى عاصمة الولاية حيث كان مزمعاً ان يذهب اليها. فان العناية الالهية قد دبرت ان هذا الشهيد يكون شفيعاً لهذه المدينة التي لقبت باسمهِ. فلما وصل فاروس اليها بذل اخر جهده ليحمله على الكفر بايمانهِ لكن بدون فائدة بل كان يستبين ان الشهيد يكتسب قوى جديدة من عذاباتهِ فحينئذٍ اطلق فاروس لنفسه عنان الرجز وامر ان يطعنوا القديس بقضيبين من حديد يغرسان فيهِ من عنقهِ الى فخذيهِ ثم غرسوا مسامير بين اظفاره ولحمان اصابعهِ ولما بقي الشهيد حيّاً بعد هذا العذاب الاخير حكم القاضي بقطع رأسهِ وساقوه الى منقع العذاب فهناك نال من الجلادين قليلاً من الزمن ليقضي فيهِ فرض الصلوة فلما تمّ صلاته اتجه نحوهم قائلاً: هذا انا مستعد اقضوا ما أُمرتم بهِ: وفي الحال قطعوا رأسهُ وطرحوه مع باقي جثتهِ في نهر صومه لكن الله سبحانهُ لم يسمح بان ذخائر هذا الشهيد الجليل تبقى بدون اكرام لان امرأةً مسيحية يقال لها اوسابيا وجدت الجثة ودفنتها في تل مجاور. وقد روى قصة استشهاده راوٍ شاهده عياناً

الفصل التاسع والاربعون

في استشهاد عسكر الاسقيط

وذهب الملك مكسيميانوس الى غاليا ليردع اناسًا تعصبوا ضده في تلك البلاد فرأى من الواجب ان يقوّي عسكره ومن ثم ارسل فاستدعى من الشرق عسكر الاسقيط وكان كلهُ مؤلفًا من مسيحيين وكان الايمان يزيد هولاء الجنود باسًا وبسالةً وكان قائدهم موريسيوس واكبر روسائهم ومن بعده ايكسوباروس وكنديدوس فلحق بعسكر الملك قبل ما جاز جبال الالب واقاموا بعض ايام في اوكتودوس المسماة اليوم مرتيني انفاله . اما مكسيميانوس فكان يتوق الى استئصال المسيحيين اكثر من اهلاك اعداء المملكة فابرز الامر بان فرقة الاسقيط تمضي وتضطهد المؤمنين اوكما روى بعض المؤرخين اراد ان يجبرها على الاشتراك بالاضحية التي كان يقدمها الالهته قبل دخوله في غاليا . فاجابتهُ هولاء الجنود الابطال انهم اتوا ليحاربوا اعداء المملكة وليس ليغمسوا اياديهم بدماء اخوتهم او ليدنسوها بعبادة كفرية. فاشتعل مكسيميانوس غضبًا من هذا الجواب وفي الحال امر بقتل عُشر الفرقة بموجب القرعة فالذين اصابتهم القرعة تقدموا

للذبح بدون ان يبدوا ادنى مقاومة وهذه المقتلة لم ترعب رفاقهم بتة بل زادتهم اشتياقًا الى الاستشهاد فكانوا يهتفون بحرارة جديدة قائلين اننا مافتون عبادة الاصنام

فلما اخبر الجلادون مكسيميانوس عن عزمهم امر بقتل عُشر الباقي من الفرقة فقتلوهم . ولما كانوا يلحون على البقية ليذعنوا لامر الظالم اجابوه قائلين : ايها الملك اننا نحن جنودك ولكننا عبيد الله ايضًا فنحن ملتزمون لك بالخدمة الحربية لكننا ملتزمون له تعالى بطهارة السيرة انت تعطينا اجرة وهو سبحانه منحنا الحيوة ويحفظها لنا فلا نقدر ان نطيعك لنكفر بالله خالقنا وربنا وربك فنحن مستعدون لتتميم اوامرك في كل ما لا يغيظ الله . ولكن اذا تخيرنا بين العصيان على الله وبين مخالفة امر الانسان فنؤثر الطاعة له تعالى على كل ما سواها فاذا مشيت بنا على العدو تجد ايدينا مستعدة لمقاتلة العصاة والكفرة ولكن ايدينا لا تطاوعنا بتة على سفك دماء الاهلين والابرياء فقد تعهدنا له سبحانه بيمين ان نراعي له ذمام الوفاء قبل ما تعهدنا لك وكيف تعتمد على وفائنا ان نكثنا بما اقسمنا له تعالى . فان كنت عامدًا على قتل المسيحيين فهوذا نحن منهم نعتقد بالله خالق جميع الكائنات ويسوع المسيح ابنه ومستعدون لان نسلم نفوسنا الى الذبح مثل رفاقنا ونحن تائقون الى حظهم فلا تخش تمردًا من قبلنا لان

المسيحيين يعرفون الموت ولا يعرفون التمرد ولا نستعمل الاسلحة التي بيدنا لمقاتلة مضطهدينا بل احب بنا ان نموت ابرارًا ولا نحيي مجرمين

فهذا الكلام المشعر باعظم البسالة لم يفد الاَّ ازدياد غضب في قلب الملك فلما ايس من غلبة ثباتهم الوطيد عمد على قتل الفرقة برمتها فاحاط العسكر بها من كل جهة وامر بقتلها الى اخرها. فطرحت هولاء الجنود الابطال سلاحها من ايديها وتعروا من دروعهم وقدموا اعناقهم للظالمين ولم يسمع لهم ادنى تشكي ولا ادنى تنهد فلم يفتحوا افواههم الاَّ ليشجعوا بعضهم بعضًا على احتمال الموت لاجل يسوع المسيح وفي دقيقة واحدة اكتست الارض من جثثهم المخضبة بدمائهم . قيل انهم كانوا اكثر من ستة الاف جندي . فيا لمشهد عجيب مشهد اقوام من العساكر المدججة بالسلاح في استعدادات هكذا مقدسة وسامية . ليت شعري لعل الدين الذي شأنه ان يرفع اناسًا الى هذا الكمال العظيم لا يدل على سمة الهية منظورة فيه . لعمري ان روح الله وحده يستطيع ان يولي الناس بسالةً هكذا عظيمة وحكمة هكذا سامية تحملهم على قضاء جميع فروضهم على الوفاء لله سبحانه وعدم المقاومة للملك حتى اذا كان جائرًا وقاسيًا

الفصل الخمسون

في استشهاد القديس فيكتور (منصور)

وبعد ما استشهد عسكر الاسقيط بزمن يسير ادّى مار منصور من مرسيليا شهادة مجيدة ليسوع المسيح فكان منصور جنديًا ممتازًا بشرف اصلهِ وبسالتهِ واكثر من ذلك بثباتهِ في الايمان ولما شرع مكسيميانوس بالسفر الى مرسيليا اشتد الاضطهاد على المسيحيين بخبر قدومه وكان منصور يجدّ في تشجيع المؤمنين ويتفقد خاصته اصحاب مهنتهِ ويحرضهم على ان يكونوا في هذه الواقعة جنودًا حقيقيين ليسوع المسيح ويحتقروا هذه الحيوة العابرة املاً بنوال الحيوة الاخرى التي لا تعبر ولا تزول ابدًا. فقد قُبض عليهِ بينما كان يباشر اعمال غيرتهِ واتوا بهِ الى محكمة الولاة فحيث كان من الاشراف رأوا من الواجب ان يرفعوا دعواه للملك فلما وصل مكسيميانوس امر باحضار منصور الى محكمتهِ فاحضروهُ واخذ يستعمل معهُ الوعد والوعيد ليحملهُ على تقدمة الذبائح للالهة اما الشهيد فاخزى الملك واعوانه بتبيينهِ لهم بطلان الاصنام وحقيقة الوهية يسوع المسيح فحينئذٍ راى مكسيميانوس ان الجندي سيشق عليهِ العار اكثر من الوجع

فحكم عليهِ ان يُجرَّ في الشوارع والازقة مغلول الرجلين واليدين

فمن بعد هذا العذاب عادوا بالشهيد مخضباً بدمهِ الى محكمة الولاة فظنوهُ اعيي جلده بما قاساه من التالم واخذوا يطلبون اليهِ بلجاجة ليضحي لالهة المملكة اما هو فاجابهم بثبات انهُ لم يكن صنع قط ما يغاير خدمة الملك والمملكة وانهُ لا يطيق بتة ان يعبد الهة الاوثان وقد ابان لهم في الوقت نفسه عارهم وفظائعهم فعلقوهُ حينئذٍ على مركبة من حديد وبقي عليها زماناً طويلاً يذوق امرَّ العذاب . اما الشهيد فكان شاخصاً بعينيهِ الى السماء يلتمس منهُ تعالى جلداً على العذاب فظهر لهُ يسوع المسيح ماسكاً بيدهِ صليبهُ وقال لهُ : السلام معك انا يسوع المتألم بقديسيَّ تشجع فانا مؤيدك في هذا الجهاد وساجازيك بعد الانتصار

فتقوى منصور بهذا الكلام ولم يعد يشعر بالوجع وحيث لم يستفيدوا منهُ شيئاً بتعذيبهم طرحوهُ في السجن فافتقدهُ الله فيهِ فظهر السجن في الليل متلألئاً كلهُ بنور ساطع وكان ثلثة من الجنود يحرسونهُ فلما شاهدوا النور خرّوا على قدمي القديس طالبين منهُ العماد اما مكسيميانوس فلما بلغه هذا الخبر امر بقتل الجنود ان لم يكفروا بايمان المسيح فالثلثة اعترفوا بهِ بباس وقطعت رؤوسهم ثم استدعى الملك منصوراً واجرى عليهِ

تعذيبات جديدة ثم امر ببناء مذبح فبنوه واخذ يحرض منصورًا على ان يقدم بخورًا عليهِ وهو يعدهُ بانعام ان اطاع امره فتقدم منصور نحو المذبح كانهُ عامد على تقديم البخور ورفسهُ برجلهِ فهدمهُ في الحال. فاستجنّ الظالم غيظًا عليهِ وقطع رجله سريعًا وامر بان يسحق تحت حجر الطاحون فاجروا عليهِ هذا الحكم المهيل ولكن الة التعذيب قد انكسرت وبقي القديس حيًّا فحينئذٍ تمموا استشهاده بقطع راسهِ وسمعوا صوتًا من السماء يقول: قد غلبتَ يامنصور قد غلبت: فامر مكسيميانوس ان تُطرح جثث القديسين في البحر لكنها دُفعت الى الشاطئ واخذها المسيحيون ودفنوها في مغارة حيث اجرى الله سبحانه فيها ايات كثيرة

الفصل الحادي والخمسون

في جهاد القديس فينشنسيوس من صاراغوس

سنة ٣٠٤ للمسيح

ان اسبانيا ايضًا قد ادّت شهادات باهرة بايمانها وولدت شهداء كثيرين واشهرهم مار فينشنسيوس شماس صاراغوس. فكان

داسيانوس وقتئذٍ واليًا على هذه المدينة والدَّاعداء الدين المسيحي فقبض عليهِ والقاه في سجن مظلم وتركه فيهِ زمانًا وكان يعطيه يسيرًا من القوت قصدًا منهُ ان يوهن باسه بانهاك جسمه بالجوع ثم احضره امامه ووعده باحسن الاشياء وتوعده بامرّ العذاب ليحمله على عبادة الاوثان. اما القديس فلم يتزعزع قط لا بوعده ولا بوعيدهِ بل اعلن انه مسيحي ومستعد لاحتمال كل عذاب اجلالاً للاله الحقيقي فامر داسيانوس حينئذٍ بتعذيبهِ فربطوه على مركبة حديد وجذبوه بعنف حتى تخلعت مفاصله وكادت اعضاؤه تتقطع واخذوا يمزقون اجنابه وهو في هذه الحال باظفار من حديد حتى استبانت احشاؤه. اما الشهيد فكان موعبًا سرورًا في وسط هذا العذاب الشديد فاشتعل القاضي غضبًا من جلده ورواق نفسه الظاهر على محياه وحمل على الجلادين وعزَّرهم ليضاعفوا شدة التعذيب فاخذ هولاء يجدون في تعذيبهِ حتى كلُّوا وسقطت اياديهم من التعب

ثم القاضي نفسه لما شاهد الدم يجري من جراحات الشهيد غديرًا ولم يتزعزع في الثبات اخذته هزة التعجب وشرع يقر على نفسهِ بالغلبة. فامر ان يكفوا عن تعذيبهِ ليحاول ايضًا تكفيره بطرق الملاطفة فقال له: ارحم نفسك وضحِّ للالهة او على ما قل ادفع لنا كتب النصارى: اما فينشنسيوس فاجابهُ انهُ يخشى

العذاب اقل من الشفقة الكاذبة . فبلغ داسيانوس الى اوج الغضب من هذا الجواب وامر ان يُبسط الشهيد على سرير من حديد وتكون قضبانهُ مغطاة بسامير رفيعة حادة ويضرموا النار تحته ففعلوا كما امر ثم كانوا ياخذون قطعاً من حديد محمية ويجعلونها على الاعضاء التي لم تكن تمس هذا السرير الاليم ويلقون ملحاً على جراحاتهِ وكان الملح من اشتداد النيران يدخل متوغلاً في لحمانه . ولم يزل الشهيد ثابتاً غير متحرك في وسط هذا النكال المريع رافعاً عينيهِ الى السماء مسبحاً الله . اما داسيانوس فقد تحير في امره ولم يعد يدري ما يصنعهُ فارسل الشهيد ثانية الى الحبس وامر ان يبسطوه على كسر خزف ويغللوا رجليه بقيد تُضبط بهِ ساقاه مفترقتين بعنف لكن الله سبحانهُ لم يهمل عبده في معمعان هذا العذاب بل انحدرت الملائكة من السماء واتت تعزيه وكان الشهيد يرتل معهم التسابيح لله وسمع السجان هذه النغمات الملائكية واهتدى حالاً فلما علم داسيانوس بذلك احترق غيظاً ولكيما يعدم الشهيد مجد الميتة بالعذاب امر ان يجعلوه على فراش ناعم فهذا الشهيد الباسل الذي لم يكل من احتمال تمزيق جسمه بالاظفار الحديدية وحرقه على المصبعات المحمية قد شق عليهِ هذا التلطيف الذي اخّر سعادته فطلب من الرب اكليل الظفر الذي كان وعد بهِ واسلم روحهُ بين يديهِ ذاهباً الى مقر الراحة

والنعيم . لعمري لم يرَ قط اجمل واجلى من هذا الانتصار انتصار يسوع المسيح على ابليس . فقد جمعت كافة انواع النكال في هذا الجهاد المجيد لكن الله سبحانه قد أيَّد عبده ببأس يسمو جميع العذابات واوجب عدوه للاقرار على نفسهِ بالانغلاب فليس حكمة ولا فهم ولا قوة ضد الرب

الفصل الثاني والخمسون

يتضمن اعتبارًا في الاضطهادات

قد شاء الله سبحانهُ ان تقوم الكنيسة رغمًا عن مصادمة البشر لها وان تُشيد بالاستشهاد ليرى انها صنعة يديهِ . فابقاها في هذه الحال مدة ثلثمائة سنة بدون ان تجد لها راحة دقيقة واحدة فكان عزَّ وجل تنبأ لتلاميذهِ بانهم عتيدون ان يُضطهدوا ويشخصوا امام الملوك والولاة ويُعزَّروا ويُقتلوا لاجل اسمهِ ووعدهم بان يصير جميع مجهودات اعدائهم باطلةً اذ قال لهم : لا تخافوا ممن يقتلون الجسد فقط : ولا تسقط شعرة واحدة من روسكم بدون ارادة ابيكم السموي : وبصبركم تقتنون نفوسكم كانهُ يقول لهم لا تخافوا اعداء الجسد فانني مؤيدكم وناصركم على اعدائكم انا غلبت العالم

وانا اوليكم النصر عليه . فحالما ظهر الدين المسيحي في العالم ثارت عليهِ جميع قوات الارض فالحواس والالام وجميع الاغراض كانت تتاتلة تحت راية المذهب الوثني لان هذا المذهب مخترع للتمتع باللذات وفيهِ الملاعب والمراسح والفحشاء قسمًا من العبادة الالهية ولم تكن اعياد الوثنيين الاَّ متنزهات ولم يكن وقت في الحيوة يخلع فيهِ عذار الحياء مثل ما كان في اوقات مباشرة اعمالهم الدينية اما الديانة المسيحية من كونها طاهرة صارمة عدوَّة للحواس ومتعلقة بكليتها بالخيرات الغير المنظورة فلم يمكنها ان ترضي اصحاب العقول والقلوب المنسودة . ومن ثم اقتضى ان يكون المسيحيون هدفًا لاسهم بغضة الوثنيين لعدم اشتراكهم باعيادهم الفاحشة

واضف على هذه الاسباب اسبابًا اخر اخذوها عن صالح المملكة لان الدولة الرومانية كانت تحسب احتقار آلهتها يؤدي الى دمارها حيث كانت رومية تتباهى بكونها مدينة مقدسة بمنشاها ومكرسة منذ بدايتها بعناية الالهة وموقوفة من منشئها لاله الحرب ومن ثم كانت تعد نفسها ممنونة بنصراتها للديانة وتعتقد انها بذلك قهرت الامم . فالكفر بالهتها اذًا يُعد موديًا الى نقض اساسات المملكة والى بغض انتصاراتها واقتدار الشعب الروماني ولهذا حيث كان المسيحيون اعداء الهتها كانوا

في الوقت نفسه معدودين كاعداء المملكة ايضاً فكانت الملوك ترغب في استئصالهم اكثر من مقاتلة البرتيين والصرماتيين والداسيين ومن ثم لم يزل المسيحيون مضطهدين منذ عهد نيرون الملك في ايام الملوك الصالحين والاردياء على حدٍ سوا وكانت علل هذه الاضطهادات تارةً امر الملك او بغضة الولاة الخصوصية وتارة مراسيم مجلس الندوة او تهيج الشعوب على المسيحيين بما كانوا يقرفونهم بهِ من الوشايات واسباب خصوصية كانت احياناً تهدّ سعير الاضطهاد لزمن وجيز لكن البغض العمومي كان يرجع سريعاً ويضرم نيران الظلم وعندما كان يثور غضب الوثنيين كانت المملكة برمتها تختضب بدماء المسيحيين. اما الاضطهاد فكان اشد واعم خاصةً عندما كانت الدولة تأمر بهِ ومن ثم حسب المؤرخون الكنائسيون عشرة اضطهادات جرت على المسيحيين في ايام عشرة ملوك وقتل بها شهداء كثيرون عدوا منهم جملة ملاوين

وكانت اراكنة الوثنيين يؤملون ان يلاشوا بهذه المقتلة الدين الذي كانوا يمقتونهُ ولكن هذا الدين كان يزداد نموّاً بينما كانت اصحابه يقاسون الموت بالسيف والنار. فانزل الظالمون في المسيحيين امرّ العذابات وافظعها ولم يستفيدوا شيئاً. فعذّبوهم باظفار الحديد والدواليب المشدودة عليها سيوف مرهفة

والمصبعات الحديدية المحمية والمحارق والوحوش الضارية
وبالتالي بكافة انواع النكال وكل هذه لم تفد الاَّ ازديادًا لمن
قصدوا ملاشاتهم وبقدر ما كان يشتد الاضطهاد بقدر ذلك
كان يزداد عدد المسيحيين لان دم الشهداء كان كبذار مخصب
ياتي الواحد بمائة ضعف ولم يقاوموا رجز الظالمين الاَّ بالصبر
واولاهم الصبر حسب وعد معلمهم الالهي نصرًا على غضب
المضطهدين. ولم ياتوا قط بعصيان وفي مدة الاعصار الكثيرة التي
استمر فيها هذا الاضطهاد الشديد لم تفرِ الكنيسة دقيقة واحدة ولا
في احد اعضائها من الطاعة للولاة بل استمرت خاضعة للملك
ديوكليسيانوس حينما اثخنت الارض كما كانت خاضعة لنيرون
عند بدايتها. فاحتمال كل شر اجلالاً للحق كان دأب المسيحيين
فكانوا يسرعون نحو مناقع العذابات بتلهف اعظم من تلهف
الوثنيين في مبادرتهم الى مراسح الخلاعة والفحش والشيوخ سقماء
الاجسام والعذارى في ريعان الصبا يقتحمون ميدان العذاب
ويصعدون على المشانق ويلجون المحارق بفرح وابتهاج وقد
شوهدت اولاد لم يحسنوا النطق بعد لصغر سنهم يعترفون
بيسوع المسيح ببسالة غريبة ويحتملون لاجلهِ امرَّ العذاب
ولا يتشكون من الم كليًا. ثم الجلادون انفسهم عند مشاهدتهم
جلد الشهداء هذا كانوا يطرحون السيوف من ايديهم منقلبين

سريعًا عما كانوا عليهِ ويقدمون اعناقهم للقطع ويصيرون شهداء في دورهم والظالمون اذ كانوا يكلون من قتل المسيحيين قد اضطروا لان يكفوا عن الاضطهاد لئلا يستاصلوا شعب المملكة

ثم الوثنيون انفسهم يندهلون من جلد الشهداء والمعجزات التي كانت تجري على ايديهم ويشهدون ان في ذلك قوةً الهية فسمعوا مرارًا شتى يهتفون في بهرة الجموع قائلين: عظيم اله النصارى: ما اعظم اله المسيحيين: فلا يمكن يقينًا ان نعتبر مدة المحنة التي اوقعت في الكنيسة وامتدادها وقساوتها بدون ان نرى في ثبات هولاء الابطال قوة فائقة الطبيعة وباسًا مُولى من الله سبحانه وغير منغلب نظيره فان وجد بعض معاندين قد افضى بهم العناد الى تضحية حياتهم لاجل الضلال فهم قليلون جدًا فضلاً عن كونهم قتلوا تأييدًا لاراء يمكن ان يضلوا فيها بخلاف الشهداء الاولين شهداء الدين المسيحي فانهم قتلوا تحقيقًا لوقائع كانوا شاهدوها بعيونهم ومسوها بايديهم وتيقنوها بشهادة حواسهم . قد يمكن للانسان ان يتشيع براي ما ويتصلب فيهِ شديدًا غير انهُ لا يعاند في امور مشبوهة او كاذبة ولا يقدم ذاته للقتل توكيدًا بانهُ نظر ما يزعمه حال كونه لم ينظرهُ بتة ثم شهداء الاعصار التالية ادّوا ايضًا شهادة لصحة الدين الذي شاهدوه

مبنيًّا على حجج لارد عليها . فبالنتيجة ان ما ابدتهُ الدولة الرومانية من السعي والاجتهاد في استئصال المسيحيين وكان بدون فائدة اي في استئصال اناس لم يكن لهم اهتمام الاَّ في احتمال العذاب والموت لاجل ديانتهم يدل جليًّا على ان هذه الديانة هي صنع الله وان الناس لم يبنوا ما لا يستطيعون ان يهدموهُ . فالكنيسة الكاثوليكية قائمة اذًا ليس فقط بدون عون قوات العالم بل مع مضادتها لها ايضًا . وهي باقية على ما كانت عليهِ منذ منشاها مع مراتبها وحقوقها وسلطانها الروحية اي مع النظام الذي وضعهُ فيها يسوع المسيح والحال ان بناية هذه صفتها ثبتت زمانًا مديدًا بقوتها الخصوصية في بهرة المصادمات الشديدة المتراكمة لا يمكن ان تكون الاَّ صنعة يد العلي ولا تستطيع البشر ان تهدمها ولا ان تبدلها

الفصل الثالث والخمسون

في ان قونصطنس كلوروس اعزَّ المسيحيين

سنة ٣٠٥ للمسيح

ان الله سبحانه الذي رسم للبحر حدودًا في اعظم ثورانه وضع ايضًا حدًّا لاشد الاضطهادات التي قاستها الكنيسة الى ذاك الحين

واعمها . فقد أجبر ديوكليسيانوس ومكسيميانوس على ان يتركا
قضيب الملك ويسلماه لقونصطنس كلوروس وغالاريوس
اللذين كانا منذ زمن مديد اكبر اعوان الملك ولهم لقب قيصر .
فغالاريوس كان وحشي الطباع منذ ميلاده ذا اميال ادنى
من اصلهِ فداوم اضطهاد المسيحيين في الشرق اما قونصطنس
كلوروس فبالعكس قد مدحه المسيحيون والوثنيون معًا فكان
جوّادًا حليمًا وضع كل فخره ومجده في اسعاد رعاياه واقتباس
مودتهم فكان يعتبر المذهب المسيحي لانهُ كان يحب فضائل
اصحابهِ . وقد اخبروا عنهُ قصة جليلة تدل على حسن مناقبهِ وشرف
الديانة المسيحية قالوا كان عندهُ في بلاطه جمهورٌ من المسيحيين
وبين الجنود محافظي راسهِ فلما صدر امر ديوكليسيانوس بقتل
المسيحيين كان بعدُ قيصرًا فجمعهم واطلعهم على اوامر الملك
واعلن لهم بان يضحوا للاوثان والّا فينتزعوا من مقاماتهم ووظائفهم
فكان هذا الطلب من طرف والٍ كان لذاك الحين محبًا للديانة
كصاعقة انقضت على المسيحيين فارتعدوا منهُ فرقًا لكنهم لم يفشلوا
جميعًا بل اجاب اكثرهم بانهم يؤثرون ان يعدموا جميع خيراتهم
حتى حياتهم نفسها ولا يفقدوا ايمانهم اما البعض منهم فقد جبنوا
وحذوا حذو المستخدمين في البلاط الذين على الغالب لا اله لهم
الّا المال ولا دين الّا دين ملكهم فرضوا ان يقدموا بخورًا للاوثان

مراعاة لخاطره ورغبةً في حفظ الوظائف التي شرفهم بها . فاظهر حينئذٍ قونصطنس حقيقة افكارهِ فاتحف بالمديح ثبات الاولين وذمّ ووبخ الثانين توبيخاً شديداً على جبانتهم وتنازلهم الاثيم قائلاً لهم : كيف تراعون الامانة للملك وانتم تمكرون بدينكم وتخونون الهكم : ثم طردهم من بلاطهِ بما انهم غير مستحقين ان يتقلدوا خدمته اما الذين وُجدوا متأهبين لان يرفضوا كل شيء ولا يجحدوا ايمانهم فاعتبرهم اخلص خدامهِ وابقاهم في مقاماتهم ولم يزل يشرفهم بعزته ويستامنهم في خدمتهِ . وكان يقول انهُ ينبغي على الوالي ان يفضل مثل هولاء الخدام على جميع كنوز خزينتهِ . ومن ثم كان قونصطنس بعيداً عن سفك دماء المسيحيين لا بل انهُ حينما تبوأ سرير الملك لم يكف قط عن تأييدهم

فنصرانية غاليا التي كانت تحت ولايتهِ اسرعت في استعواض ما اصابها من الخسائر في عهد مكسيميانوس الظالم . فحالما جازت زوبعة الاضطهاد امتدت الفعلة الانجيليون بنشاط جديد في جميع الامصار وجمعوا حصاداً وافراً في الاراضي المخصبة بدماء الشهداء فكثرت الكنائس في كل جهة واقيمت الرعاة في الكراسي التي كان افرغها سيف الاضطهاد . ولم يكن هذا الاّ بداية السلم الذي عزم الله سبحانه ان يمنحهُ للكنيسة اذ لم يكن قونصطنس كلوروس بل ابنه مُعيّناً ليكون تلميذاً لتلك

الديانة التي اضطهدتها ملوك كثيرون ويظفرها بكبرياء القياصرة. وكان قونصطنس موافقاً للدين المسيحي الاّ انهُ لم يكن لهُ بأس لاعتناقهِ لكن الله سبحانه لما سلم قضيب الملك لعترتهِ جازاه على فضائلهِ الادبية في هذا العالم وكانت هذه الفضائل بدون الايمان عقيمة من الجزاء السماوي

الفصل الرابع والخمسون

في تنصُّر قسطنطين

سنة ٣١٢ للمسيح

لما اظهر الله جليًا اعجوبة وقايتهِ في اقامة الكنيسة وبيَّن واضحًا ان جميع قوات العالم لا تقدر على تدميرها اخيرًا دعا اليها نصيرًا مشتهرًا للدين المسيحي وهو ابن قونصطنس كلور فكان هذا ملكًا مستجمعًا في شخصهِ كامل المناقب السامية حاذق العقل ذا حكمة فريدة وقدٍ جميل وطلعة مهابة وكان غالاريوس يبغضهُ فكادلهُ مرارًا ليهلكهُ لكن الله نجاه من جميع مكائدهِ لانه عمد ان يتم بهِ مقاصدهُ العظيمة فنعني بهِ قسطنطين الذي بعد ما توفي ابوهُ نودي بهِ ملكًا وكان لهُ من العمر واحد وثلثون سنة. وقد

نازعه على الملك مكصنص ابن الملك مكسيميانوس وواقعهُ بعض وقائع خفيفة فاز بها عليهِ. اخيرًا عمد قسطنطين الى ان يواقعه موقعة جازمة فزحف بعسكرهِ الى ايطاليا ودنا من رومية وكان عسكر مكصنص اقوى من عسكرهِ فعلم انه محتاج الى مدد خارق العادة واخذ يهتم باستمداده من اله المسيحيين فالتمس منهُ ان يشرق عليهِ نور معرفتهِ وكان الملك مستقيم القلب فاجيب طلبه. ولما كان سائرًا برأسة جيوشهِ رأى في افق السماء نحو الظهر والفلك رائق صافٍ صليبًا متلألئًا مكتوبة عليهِ هذه الكلمات باحرف من نور: بهذه العلامة تغلب اعداءك: وشاهد العسكر كلهُ هذه الاية لكن الملك تأثر بها اكثر من الجميع واخذ كل ذاك النهار يهتم في تفسير هذه المعجزة وبينما كان مستغرقًا في النوم الليل التالي ظهر لهُ يسوع المسيح ومعهُ علامة الصليب نفسها التي رآها في النهار وامرهُ ان يصنع على شبهها راية يحملها في المواقع كترس حماية يقيه شر اعدائه

فعند الصباح استدعى فعلة ورسم لهم صورة الراية وامرهم ان يصنعوها على هذا الرسم فكانت حربة موشاة بصحائف من ذهب وفي وسطها عارضة بشكل صليب معلق بها منديل منسوج بذهب وفي اعلى الصليب اكليل فيهِ الحرفان الاولان من اسم المسيح مشتبك الواحد بالاخر وفوق المنديل صورة الملك واولاده

فسميت هذه الراية لابا روم فاختار قسطنطين خمسين رجلاً من اشجع واتقى محافظي رأسه ليتناوبوا حملها . فاذ استبسل بهذه الرؤية السماوية لم يتقاعد عن مقاتلة عدوه فغلب مكسنس وفر هارباً وفي انهزامه وقع في نهر التيبر وهلك وفي الحال فتحت رومية ابوابها لقسطنطين فدخلها ظافراً فاستدعى حينئذ الاساقفة اليه وتعلم منهم حقائق الدين المسيحي واعترف به اعترافاً منتهراً

ولا شيء في التواريخ اوكد من هذه الرؤية العجيبة فقد رواها اوسابيوس القيصري واثبتها جمهور من المؤرخين لا يحصى عددهم واثارات من جميع الانواع قال هذا المؤرخ الشهير : لو اخبرنا آخر عنها لاستصعبنا تصديقها لكن الملك قسطنطين نفسه قد قص علينا هذه الاية واكدها لنا بقسم نحن المسطرون هذا التاريخ فهل من يرتاب بصحتها لاسيما بعد ما حققت واقعة الحال الوعد . هذا ما قاله اوسابيوس وهو في زمن حيث كانت شهود العيان الغير محصى عددهم على ما اوضح بعد في قيد الحيوة ولكانوا يقدرون ان يكذبوه لو كانت هذه القصة غير صحيحة

الفصل الخامس والخمسون

في انتصار الديانة المسيحية

فبعد ما ظفر قسطنطين بعدوه اسدى الشكر ليسوع المسيح على هذه النصرة واخذ يجدّ في تمليك دينهِ في كامل امصار مملكتهِ وحيث كان يعلم مزية الديانة المسيحية التي لا تعتمد الّا على التعليم والاقناع لتتلمذ الناس لها لم يجبر العقول باوامر صارمة . فمعما كان عليهِ من الكره للدين الوثني ترك لرعاياه حرية تامة نظرًا للدين . فلو كان امر امرًا جازمًا بابطال الديانة الاصنامية لكانت تمردت عليهِ المملكة برمتها لان هذه الديانة كانت مكرمة منذ قرون كثيرة فرأى انه يكفي ان يعضد الدين الحقيقي ويؤيده ليخزي عدوه بحكمة عقائدهِ وطهارة ادابه فلم يعتمد اذًا الّا على طرائق الملاطفة والاعتدال ليكتسب الوثنيين فردّ منهم الى الايمان المسيحي بهذه الملاطفة اناسًا لا يحصى عددهم فشرع باصلاح كافة الشرور الصادرة من الملوك سلفائهِ ورجع المنفيين ورد للمسيحيين جميع محلات اجتماعهم التي كانت قد سُلبت منهم وحيث كان موعبًا غيرة على جلالة العبادة الالهية عظم بهاءها اذ اشرك الكنائس بكنوزهِ واغناها بالانية الثمينة والزين الفاخرة وعامل

خدمة الدين بجميع انواع الكرامة واتحفهم بانعامات سنية فوجه افتكاره خاصة الى اساقفة رومية اذ كانوا الى ذلك الحين يتكبدون اضطهادات خصوصية فاكرم عليهم بدار الاتران وحوّل الدار الاخرى المجاورة كنيسة سميت قسطنطينية نسبةً اليهِ وهي الان كنيسة مار يوحنا دي لاتران وكانت اول مُلك البابوات

فوُجد المسيحيون في حالة مختلفة جدًا عن الحالة التي كانوا عليها في مدة ثلثة اجيال فكانوا يتعجبون ممجدين الله لدى مشاهدتهم عجائب قدرته الالهية في ارتقاء الدين المسيحي الى العرش الملوكي وتكريم عبادة الاله الحقيقي ورد المنفيين الى اوطانهم وتشييد الكنائس وتزيينها باحسن الاشياء وانفسها . فهذا الانقلاب البديع اوعب القلوب اطهر مسرة وملأها باعذب الامال للمستقبل . فكانت الديانة المسيحية مكرَّمة باعين الوثنيين انفسهم عندما كانوا يشاهدون الملك نفسهُ يباشر جهارًا جميع فروضها وقد اشاد الملك في داره مصلى حيث كان كل يوم يقوم فيهِ لتلاوة الكتاب المقدَّس وصلواته المعينة في ساعات معلومة من النهار فكان مثله يجتذب كثيرين من عبدة الاوثان الى الدين المسيحي فدخلت الديانة حتى الديوان الروماني الذي كان امنع حصن للمذهب الوثني وكان انيسيوس من اشرف اعضائهِ اول مَن اعتنقهُ وفي مدة وجيزة خضع لنير

الانجيل اكبر اعيان رومية . فسر قسطنطين سرورًا عظيمًا بهذا الفوز وكان فرحه بتنصر انسان واحد اكثر من فرحه بفتوح بلاد وامتدت غيرته الى خارج تخوم المملكة الرومانية فارسل مبشرين الى الشعوب البربرية التي لم تكن خاضعة له ليجثوهم على عبادة الاله الحقيقي ويسوع المسيح ابنهِ . فلما دخل رومية اراد ان الصليب الذي كان عربون نصرتهِ يكون اجمل زينة احتفالهِ فاقاموا له تمثالاً يمثله ضابطًا علامة فداءنا بيده وهكذا الصليب الذي كان الى ذاك الحين موضوع العار وعقاب العبيد قد صار علامة الخلاص وفخر القياصرة انفسهم الذين زينوا بهِ تاجهم الملوكي وركزوه في بلاط رومية كأنهم ينذرون المسكونة باسره بانتصار الاله المصلوب

الفصل السادس والخمسون
في وجدان الصليب المقدس
سنة ٣٢٦ للمسيح

ان احسن البينات التي اظهر بها قسطنطين احترامه للديانة المسيحية هو ما صنعه لتكريم الاماكن التي قدسها حضرة ربنا يسوع

المسيح فعمد على بنا كنيسة جميلة في اورشليم وكانت القديسة هيلانة والدته تكرّم مثله الاماكن المقدسة تكريمًا عظيمًا فذهبت الى فلسطين مع ما كانت عليهِ من ضعف الجسم من قبل الشيخوخة حيث كان لها من العمر نحو ثمانين سنة فلما وصلت الى اورشليم اتقدت نار الرغبة في قلبها لان تجد الصليب الذي احتمل عليهِ يسوع الموت . اما البحث عنهُ فكان مستصعبًا لان الوثنيين لكيما يمحوا ذكر قيامة يسوع المسيح قد كانوا جعلوا تلاًّ من تراب في موضع قبرهِ ثم جعلوه سطحًا كبيرًا وبنوا فوقه هيكلاً للزهرة المنهم وقصدهم بذلك منع المسيحيين من زيارة هذا المكان . اما هذه الملكة الدينة فلم تتوقف عن التفتيش بل استدعت شيوخ اورشليم واستشارتهم بهذا الامر فاجابوها ان امكنكِ ان تجدي قبر المخلص فتجدين عنده آلات الامهِ لان اليهود كان لهم عادة ان يدفنوا حذا الجثث كل ما استعمل للقضاء على المحكوم عليهِ بالقتل . ففي الحال امرت الملكة بدك الهيكل النجس فدكوه ورفعوا الردم من مكانهِ واخذوا يحفرون في ذاك المحل فوجدوا مغارة القبر وبالقرب منها ثلثة صلبان مع الكتابة التي علقت على صليب المسيح لكنها مفصولة منهُ والمسامير التي سمرت جسمه المقدس . ولم يعرفوا اي من هذه الثلثة صليب المخلص . لكن الايمان الحي شأنه تيسير لصاحبه كل امر . فانت الملكة بهذه

الصلبان الثلثة عن مشورة مكاريوس اسقف اورشليم الى امراة متقلبة مذ زمن مديد بمرض عضال وجعلوا عليها كلاًّ منها بالتوالي طالبين منهُ تعالى ان يعرفهم الصليب الذي اراق المخلص عليهِ دمه الزكي وكانت الملكة وجميع اهل المدينة حاضرين ينتظرون الاعجوبة فوضعوا الصليب الاول والثاني ولم يصنعا شيئًا ولكن حال ما ادنوا الى المريضة الصليب الثالث بُرئت تمامًا ونهضت من مرقدها وقد اكد زوزيموس المؤرخ بانهم جعلوا هذا الصليب على جثة رجل ميت فانبعث واخبر ذلك مار بولينوس ايضًا

فتطايرت الملكة فرحًا عندما امتلكت هذا الكنز النفيس كانت تفضله على جميع غنا المملكة فاخذت جزءًا من الصليب الحقيقي لتقدمهُ لابنها وجعلت الباقي في صندوق من فضة ودفعته الى اسقف اورشليم ليضعه في الكنيسة التي كان امر قسطنطين ببنائها على القبر المقدَّس فبنيت هذه الكنيسة ببهاءٍ يليق بقداسة المكان فجاء القبر في صحنها وامتدت الى جبل الجلجلة ثم بنت القديسة هيلانة كنيستين اخريين احداهما في محل صعود يسوع الى السماء والاخرى في بيت لحم حيث وُلِد ولم يكتفِ تقواها ببناء الكنائس وتزيينها بل كانت تفيض انعامها على جميع الامكنة التي اجتازت بها فكانت تساعد الفقراء والايتام والارامل بصدقات

وافرة وتعزي خاصة العذارى المكرسات بكارتهنّ لله فجمعت ذات يوم جميع بتولات اورشليم وصنعت لهنّ وليمة كانت هي نفسها تخدمهنّ فيها. فقد كان الباري تعالى جعل تنصر ابنها واسطة لارتدادها الى الدين المسيحي فاعتنقته بقلب مخلص وعقل مستنير اخيراً لما طا فضلها قدام الله والناس توفيت في عمر ثمانين سنة بين ذراعي ابنها قسطنطين فظهر هذا خاصةً في اواخر عمرها امينًا بوفاء واجبات المحبة البنوية التي كان دائمًا محسنًا القيام بها فيما مضى

الفصل السابع والخمسون

في انشاء رهبانية المتوحدين وفي مار انطونيوس الكبير

سنة ٣٠٦ للمسيح

ولما انتهت الاضطهادات اتت الكنيسة بمشهد جديد يبني للصلاح كمشهد الشهداء فكنت ترى القفار حينئذٍ ملوة حبساء يسيرون سيرة تشبه سيرة الملائكة . فقد وجد سابقاً مسيحيون مستحرّون بالديانة سُموا اسيتاس اي روحيين كانوا يرفضون جميع الامور العالمية مجردين لرياضات الصلوة والتقشف لكنهم

كانوا يسكنون وحدهم بالقرب من المدن والقرى اما في ذاك الحين قد اجتمعوا في البرية وانشأوا جمعيات رهبانية واول من انشأ هذه الرهبانية الجديدة مار انطونيوس فولد هذا القديس في مصر من والدين شريفين غنيين فاضلين ربياه تربيةً مسيحية ووقياه اخطار الصبوة لكنهُ فقدهما وهو شاب فلما سمع ذات يوم هذه الاية في الكنيسة : ان شئت ان تكون كاملاً اذهب فبع كل مالك واعطهِ للمساكين فيكون لك كنز في السماء : اطلق هذا القول على نفسهِ فعاد الى بيتهِ وباع كل مقتناه ووزّع ثمنه على الفقراء واخذ يهتم بامر خلاصهِ فقط . فكان يمارس رياضات التوبة ليردع اميال الجسد ويكدّ بيديهِ ليربح ما يعيل بهِ نفسه ويسدّ احتياجات البائسين ولما كان يسمع عن احد خدام الله كان يسرع اليهِ ليقتبل منهُ تعليمًا روحيًا او يتخذ عنهُ نموذجًا ليقتفي اثره فصار من ثم بوقت وجيز مثالاً كاملاً في جميع الفضائل . اما ابليس عدو الخلاص خزاه الله فلم يطق ان يشاهد بدون غضب عظيم هذه المشروعات السعيدة وما كانت تدل عليهِ في المستقبل فاخذ يجرّبه بكامل اصناف المحن ليسقطه عن درجة صلاحهِ لكن انطونيوس ظفر عليها جميعًا بالصلوة والاماتة . فكان مرقده حصيرة وعلى الغالب ينام على الحضيض ولا ياكل الاَّ مرة في النهار عند غروب الشمس وماكلهُ خبز وملح فقط

ولا يشرب الا الماء صرفًا وكان ثوبه مسحًا وفوقه رداء من جلد الشاة وقلنسوة

فحيث اقامهُ الروح القدس ليشحن البرية بالزهاد الهمه ان ينفرد في اقصى الاماكن فجاز انطونيوس نهر النيل وتوغل في برية الاقسيط ولما اقام زمانًا مديدًا متنحيًا عن معاشرة الناس اشهره الله بالايات الكثيرة التي اجراها على يديهِ . فاشفى مرضى كثيرين بصلاتهِ وذاع بذلك صيته فتقاطر اليهِ تلاميذ كثيرون طلبوا اليهِ ان يعيشوا تحت تدبيرهِ فاضطر الى بناء اديرة عديدة ليقبلهم . وكان انطونيوس يرشد رهبانه تارةً على انفراد وطورًا على الاجتماع ويرسم لهم قوانين مقدسة يلتزمون بحفظها فكان يقول لهم : لا يبرحنَّ ذكر الابدية من عقولكم ابدًا وافتكروا كل صباح بانكم ربما لا تعيشون الى المساء وافتكروا كل مساء بانكم ربما لا تبقون احياء الى الغد واصنعوا كل فعل من افعالكم كانهُ اخر فعل حياتكم . داوموا السهر على التجارب وقاوموا باجتهاد اعمال ابليس لعمري ان هذا العدو لضعيف جدًا ان نزعتم منهُ سلاحه فيرهب الصوم والصلوة والتواضع والافعال الصالحة وتكفي اشارة الصليب المقدس لتبديد كل حيله ومكائده اي نعم ان علامة صليب المخلص الذي عراه من سلطانهِ تكفي لترعده فرقًا : فاذ تهذبت تلاميذ انطونيوس

بهذه التعاليم صاروا موضوع التعجب لمار اثناسيوس نفسهُ فقال فيهم هذا القديس الجليل : ان اديرتهم هياكل تقضي فيها الحيوة بترتيل المزامير والقراة الروحيـــة والصلوة والصوم والسهر فيجعلون رجاءهم الخيرات العتيدة ويتحدون بمحبة عجيبة ويهتمون باعالة الفقراء اكثر من الاهتمام باعالة نفوسهم وهي شبه بلاد شاسعة منفصلة عن العالم لا اهتمام لاهليها الاَّ بممارسة البر والتقوى

الفصل الثامن والخمسون

في انشاء مار ايلاريون اديرة الفلسطين

سنة ٣٢٩ للمسيح

فما كان صنعهُ انطونيوس في مصر صنعهُ ايلاريون تلميذه في فلسطين وسورية وهو اول من شيد اديرة فيها واقام فيها رهبانية المتوحدين . فكان والداه وثنيين لكن الله سبحانهُ تداركه بنعمتهِ منذ صغر سنهِ فاعتنق الدين المسيحي في عمر اثنتي عشرة سنة فارسلوه من قرية طابات محل مولدهِ الى اسكندرية ليدرس العلوم فتعلم فيها العلوم البشرية وعلم الخلاص الجليل

قدره . ولكيما يتمهر فيهِ بزيادة بادر الى مار انطونيوس ومكث مقيمًا عندهُ زمانًا وتثقف في طريق السيرة النسكية بمداومة الصلوة وافعال الاتضاع والثبات في العمل ورياضات التقشف . ثم خرج من هذه المدرسة الجليلة وعاد الى وطنهِ مع بعض رهبان ليمارس فيهِ السيرة المنفردة نفسها ولما توفي ابوهُ وامه وزّع كل مقتناه على الفقراء وذهب مع رفاقهِ الى البرية التي من غزّة تمتد الى شاطئ البحر وكانت هذه البرية مملوة لصوصًا يطوفون فيها دائمًا ليسلبوا المسافرين برًّا او ينهبوا النوتية الذين ينجون من الغرق بعد ما تكسرت سفنهم . فبعد ما مكث ايلاريون مدة وجيزة في تلك القفار طرقت هولاء اللصوص صومعته فقبلهم ببشاشة عظيمة حتى اندهلوا منهُ فقال لهُ احدهم : الاّ تخاف منا بتة : اجابهُ ايلاريون وقال : فلماذا اخاف وانا لا املك شيئًا : قال لهُ اللص : يمكننا ان نعدمك الحيوة . قال لهُ الراهب : لستُ اخشى فقدها بتةً لاني لستُ راغبًا في شيء من الدنيا : وبالواقع كان ايلاريون زاهدًا في العالم زهدًا تامًا وكان توبهُ المسح ورداءُهُ جلد شاة وهبهُ اياه مار انطونيوس وفراشه حصيرة من غزار يفرشها على الارض ويرقد عليها وصومعة شبه قبر لضيقها وطعامهُ نحو نصف اوقية من خبز الشعير وقليل من الاعشاب المطبوخة كل يوم فمع هذا التقشف كلهُ بلغ من العمر ثمانين سنة فكان شغلهُ

حراثة الارض وعمل سلال من قصب ويلازم في اثناء الشغل الهذيذ بمعاني الكتب المقدسة التي كان تعلمها غيبًا فمنحهُ الله هبة المعجزات اظهارًا لقداستهِ فاشفى مرضى كثيرين من امراضهم

فذاعت سمعتهُ في الاقطار وتقاطر اليهِ تلاميذ كثيرون وعند ما كان يفتقد النساك الذين تحت تدبيرهِ كانوا يجتمعون اليهِ نحو ثلثة الاف . واخرج من عبادة الاوثان شعوبًا كثيرة قد تخشعوا بالايات التي اجترحها وهم شهودٌ لها . ولما كانوا يقلقونهُ في خلوتهِ بتواتر الزيارات لهُ واظهار الاكرام لفضلهِ كان يتشكى من ذلك قائلاً : ويلاه قد رجعت الى العالم ونلتُ اجري في هذه الحيوة : فاراد ان يمضي الى مكان لا يعرفهُ فيهِ احد فذاع الخبر حالاً واستولى الحزن الشديد على كامل فلسطين كأن قد دهمها مصاب عظيم وكانوا يتبعونهُ حيثما يذهب لانهُ كان رجل الله لهُ سلطان على شفاء المرضى وطرد الابالسة ونوال نعمة ارتداد النفوس اليهِ تعالى بصلواتهِ . وعند ما كان يطلب منهُ شفاء مريض كان دائمًا يضيف على هذا الاحسان تعليمًا روحيًا للمريض ويفهمهُ بان امراض النفس ينبغي ان يخشى منها اكثر من امراض الجسد ويهتم كثيرًا في ان يخلص منها . ومع ما كان عليهِ من الصلاح وقداسة السيرة قد استولى عليهِ خوف جسيم من احكام الباري تعالى عند دنوهِ

من الوفاة فكان يحث نفسه على احسان الثقة بهِ تعالى قائلاً :
اخرجي يا نفسي اخرجي لماذا تخافين وتضطربين قد خدمتِ
يسوع المسيح سبعين سنةً وتخافين من الموت

الفصل التاسع والخمسون

في سيرة النساك

ان سيرة النساك كان غايتها الارتقاء الى الكمال المسيحي
بممارسة المشورات الانجيلية اي العفة الكاملة والفقر الاختياري
فكانوا يستعملون اربع وسائط خصوصية للبلوغ الى هذا الكمال
وهي الاختلاء وشغل الايدي والصوم والصلوة . فكانوا يتنحون
عن مساكنة الناس وينفردون متوغلين في القفار البعيدة عن
الديار العامرة مسافة ايام كثيرة ولم تكن هذه القفار غابات
شاسعة ولا اراضي مهجورة يمكن كريها او حراثتها بل اماكن
ليس فقط غير ماهولة بل ولا يمكن سكناها ايضاً فيافي قحلة
وجبالاً غامرة واوعار . فكان الزهاد يسكنون في الاماكن
حيث يجدون ماء ويبنون فيها صوامع من خشب او قصب
وهناك يجدّون في اتقان طهارة القلب التي يكون جزاها

مشاهدته تعالى وهم ناءون عن العالم وعن جميع موضوعات الاهواء الجسدية فيروضون نفوسهم في استئصال جميع الرذائل منها واتقان جميع الفضائل باعظم حرية واءمن طريقة محاربين البخل بالفقر وبالتعهد نذرًا بعدم امتلاك شيء خاصة افرادهم ويقمعون هواء الكسل بالشغل الدائم ولم يكن هذا الشغل يلهيهم قط عن عبادته تعالى واتجاههم اليه فكانوا يصنعون حصرًا وسلالاً من غزار ويستفيدون من ذلك اجتناب البطالة وتحصيل معاشهم بدون ان يثقلوا على احد. وحيث كانت نفقاتهم قليلة كانوا مع فقرهم هذا يعطون صدقات وافرة ولم يغفلوا قط عن ان يوزعوا على الفقراء ما كان يفيض عنهم كل يوم من اجرة اعمالهم ويصومون كل السنة ما عدا الاحاد وايام الفصح واكلهم الخبز فقط وشربهم الماء صرفًا اما كمية الخبز فكانت معينة للنفر نحو ثنتين درهمًا في اليوم يقسمونها الى علقتين يتناولون احداها في الساعة التاسعة والاخرى عند المساء وقد اعتمدوا على هذا القياس بعد ما امعنوا التبصر فيه بحكمة واختبروا صحته فعلاً فكانت هذه الكمية من الطعام كافية لوقاية قواهم وصالحة لتنشيطهم في الشغل ولتقليل نومهم وهذا القانون الصارم كان يطيل حياتهم ويقوي صحة اجسامهم ومن ثم كانوا يبلغون اعتياديًا من العمر الى اقصى الشيخوخة ولم يعترهم ادنى مرض

ثمار انطونيوس منشي جميعهم عاش اكثر من مائة سنة

وكانت صلاتهم ايضاً مرتبة بحكمة فلم يكونوا يجتمعوا للصلوة الّا مرتين في الاربع وعشرين ساعة وكل مرة يتلون اثني عشر مزموراً يتخللها تضرعات ويختمون الصلوة بتلاوة فصلين من الكتب المقدسة اما الاخوة فكان كل منهم يرتل مزموراً بنوبتهِ وهم واقفون في وسط الجمع والباقون يسمعون جالسين وصاغين صغياً تاماً بدون ان يؤذوا صدورهم او باقي جسدهم بالتعب المفرط اذ لم يكن يصوغ لهم ذلك اصوامهم واشغالهم وفي باقي اوقات النهار يصلون ويشتغلون معاً وهم منزوون في صوامعهم فعلموا حسناً بان الشغل المداوم هو احسن واسطة لجمع الافكار وصد التشتت . اما الطاعة فكانت عندهم دواء ضد الكبرياء المائل اليها الانسان طبعاً مع انها لا تصلح له بتة فكانوا خاضعين لروسائهم كاولاد مع ان جمعيات عديدة كانت تحت تدبير رئيس واحد لانهم كثروا جداً في زمن قليل حتى اصبحت سيرة الزهد والتقشف عمومية بين المؤمنين فامتلأت القفار قديسين نساك يعاقبون ذواتهم بالتقشف اشد عقاب من معاقبة القضاة للمجرمين وشوهد بينهم ابرار يعاقبون في ذواتهم بصرامة غريبة ذاك الميل التعيس الذي نشعر بهِ نحو الاثم . وقد ازداد عدد المتوحدين بهذا المقدار حتى

ان قوماً منهم الذين تاقوا الى اعظم كمال قد اضطروا الى ان ينفردوا عن غيرهم ملتجئين الى خلوات بعيدة لشدة هربهم من العالم ولفرط رغبتهم في السيرة النظرية . فهذه كانت اثمار الفضائل التي جناها الانجيل فلم تكن الكنيسة اقل غناء بنموذجات القداسة مما كانت بالوصايا والتعليم وقد ظهرت قداسة تعليمها بما انشأ من قديسين لا يحصى عددهم

الفصل الستون

في اراطقة اريوس

سنة ٣١٤ للمسيح

قال مار كبريانوس ان الجحيم لما شاهد عنصر الاوثان منذكاً استنبط طريقة جديدة ليبلبل الكنيسة وهي الارطقة والانشقاق فاخذ يسعى في افساد الايمان وقطع الاتحاد لكنه لما واقعها وقائع جديدة افادها نصرات جديدة ايضاً . وقد كان حدث في الكنيسة ارطقات اما ارطقة اريوس فاكبرها شهرة وافظعها سوءاً . فكان اريوس كاهن كنيسة الاسكندرية رجلاً متقلباً وطامعاً يتوق شديداً الى ان يصير اسقفاً على هذه المدينة

ولكن لما خابت اماله بانتخاب مار اسكندر لهذه الدرجة اسلم قلبه لالم الحسد والغضب واخذ يذم تعليم هذا الاسقف وينقضهُ بتعليم حديث. فالكبريا تلد الارطقات لكنها تحتجب تحت برقع الرياء. فاخذ اريوس يتظاهر بالاتضاع والتقشف الخارج وكان طاعنًا في السن فاكتسب بذلك شهرة وحزب لهُ بعضًا من الناس. فانكر الوهية يسوع المسيح وقال ان ابن الله غير مساوٍ لابيهِ بكل شيء. فانشأ هذا التعليم الغير معروف الى ذاك الحين والمنافر الاعتقاد الدائم عثرة فظيعة في الكنيسة فقتهُ المؤمنون وصاحوا باثر الكفر والتجديف فهكذا كان الايمان ينبذ كل بدعة جديدة داعيها كفرًا وتجديفًا. اما مار اسكندر فكان اولاً يحاول ترجيع اريوس بنصائحهِ الموعبة ودًّا واستعمل معهُ اعظم الصبر والاناة لكنهُ لما راى ملاطفته ونصائحهُ الابوية ذاهبة سدًى وان الكفر شرع يبث رفع صوتهُ بعزمٍ شديد وحرم المبدع في مجمع تالف من جميع اساقفة ولايتهِ وكتب للبابا ولجميع اساقفة العالم ما جرى بينهُ وبين اريوس لينذرهم بالخطر الدائم البيعة ويؤيد حكمهُ عليهِ

فتعجب اريوس من هذه الضربة التي حلت بهِ لكنها لم تهدم عزمة الشرير بل انطلق الى فلسطين وحزَّب معهُ بعضًا من سكانها ومن هناك ذهب الى نيقوميديا محل اقامة الملك

المألوفة فربح لحزبهِ بحيله الاسقف اوسابيوس وصار مذ ذاك اكبر انصارهِ فلما شاهد نفسه مؤيدًا جدًّا في بث بدعتهِ الكفرية بين رعاع الشعب فالف لذلك بعض اغاني اسرب فيها اضاليلهُ وادرجها بين العامة فكان الشعب يشرب السم كانهُ لا يشعر بهِ . ففهم الملك هذا الانقسام المحزن وتحدث بهِ مع اوسابيوس فاقنعهُ هذا بان السوء لم يصدر الاَّ عن بغضة الاسقف اسكندر لاريوس الكاهن وان الملك يهمهُ لاجل تقواه ان يسكن ثورانهُ بامره لكليهما بالصمت . فانخدع قسطنطين بهذا الكلام واستكفى بان يكتب لاسكندر ولاريوس محرضًا اياهما على الاتفاق بالراي ولهذه الغاية ارسل الى الاسكندرية اوسيوس اسقف كوردو الذي كان يعتمد عليهِ وكان شيخًا جليلاً واسقفًا منذ ثلثين سنة اعترف بالايمان في اضطهاد مكسيميانوس واشتهر في جميع امصار الكنيسة . فلما وصل اوسيوس الى الاسكندرية ومعهُ رسالة الملك جمع هناك مجمعًا غفيرًا ولم يغفل عن كل ما يؤول لعقد الاتفاق لكنهُ وجد الاختلاف شديدًا فاضطر الى ان يعود الى نيقوميديا بدون ان يصنع شيئًا . اما اريوس ومحازبوه فابوا كالباب جميع الاراطقة ان يخضعوا لامر الملك بالصمت . ثم اسكندر واكليروسهُ من جهتهم لم يستطيعوا ان يسكتوا الحق مغللاً محجوبًا لتيقنهم امتلاكه والتزامهم بحفظهِ وتسليمهِ لغيرهم فكان من ذلك

سبباً لاوسيوس لان يطلع الملك على واقعة الحال جلياً وعلى عظم الشر المحيق بالكنيسة

الفصل الحادي والستون

في مجمع نيقيا

سنة ٣٢٥ للمسيح

فلما علم الملك قلة الفائدة التي نتجت من رسالتيهِ عمد بمشورة الاساقفة الى عقد مجمع مسكوني اي عام لكي يجزيهِ الضلال ويردع احزابهُ فعلى عهد الملوك الوثنيين كان متعسراً عقد مجامع كبيرة اما قسطنطين حيث صار والياً على المملكة باسرها فقد تمكن من انجاز هذا المقصد الجليل وفق نقواه ولنا هنا عبرة من قبل العناية الالهية اذ سهلت وقتئذٍ هذه المباشرة بضمها امصاراً كثيرة تحت حكم رجل واحد فاختاروا مدينة نيقيا محلاً للاجتماع لقربها من نقيديا حيث كان يسكن الملك فانفذ قسطنطين رسائل لجميع الاساقفة يدعوهم الى الحضور وامر ان يقدم لهم على نفقتهِ مركبات لنقلهم وكل ما يلزمهم لهذا السفر - فاهمية هذا الامر العظيمة الزمت الاساقفة بتلبية الدعوة بالاجابة ومن ثم

فوافى نيقيا بوقت وجيز ثلثمائة اسقف متقاطرين من جميع اطراف المملكة ما عدا الكهنة والشمامسة وكان اوسيوس اسقف كوردو مترأساً على المجمع بالنيابة عن البابا سيلفستروس الذي ارسل اليهِ ايضاً كاهنين من طرفهِ ينوبان عنهُ في الجلسات مع الاسقف المذكور حيث لم يستطع ان يحضر بذاتهِ لسبب شيخوختهِ وكان برفقة القديس اسكندر اسقف اسكندرية الشماس اثناسيوس وكان بعد شاباً والاسقف المذكور يعتبره كثيراً فصار لهُ عوناً كبيراً في هذه الخطرة

فكان المجمع من اساقفة اجلاء افاضل اكثرهم تساموا بالقداسة وعليهم سمات الكلوم التي اصابتهم لاجل الايمان في مدة الاضطهاد الاخير . ومن جملتهم مار بفنوسيوس اسقف الصعيد هذا كانت فقئت عينهُ اليمنى وكان الملك يدعوه غالباً الى بلاطهِ ويلتذ بمحادثتهِ ويقبل باحترام جرح وجههِ . فلما اتى يوم الجلسة العمومية بادر جميع المعدين للجلوس الى قاعة كبيرة ودخل قسطنطين اخر الكل اعتباراً واحتراماً لهذا المجمع الجليل فشرعوا في فحص تعليم اريوس اذ كانوا احضروه وسمعوا مقاله . فتجاسر وطرح تجاديفه في وسط المجمع. فسدت الاباء اذانهم عند سماعهم اياها مظهرين اشد النفور منها ودحضوا بالحجة القاطعة بدعه الكفرية. وسندوا دحضهم على ايات الكتب المقدسة ونصوص الاباء

الاقنمين . فعلى هذا الاساس وطدوا تعليم الكنيسة . فقرَّر المجمع اذًا ان يسوع المسيح هو ابن الله حقيقةً مساوٍ لابيهِ وهو قوته وصورته كائن فيهِ دائمًا وبالتالي انهُ اله حق . اما الاريوسيون فلكثرة حيلهم ومكرهم وجدوا طريقة لتحريف معاني هذه العبارات والتسليم بها من دون ان يقلعوا عن ضلالهم فعبر المجمع حينئذٍ عن وحدة الطبيعة وعدم انقسامها بلفظة المساوي بالجوهر وكانت احسن عبارة للمعنى المقصود لا وجه للارطقة بتحريف معناها وصارت مذ ذاك سخطًا للاريوسيين اذ توضح جليًا ان الابن مساوٍ في كل شيءٍ لابيهِ وانهُ الله بعينهِ معه فنبذها الاريوسيون اما اباء المجمع فتمسكوا بها شديدًا وصارت فيما بعد علامة تميز الكاثوليكيين من غيرهم . فادرجوا قانون الايمان المعروف بالقانون النيقاوي . وامضت عليهِ جميع الاساقفة الاَّ الثلاثة من الاساقفة الاريوسيين واطلقوا الحرم على اريوس وتبعته فبناءً على هذا الحكم الذي ايده السلطان الزمني لكنهُ لم يبرزه حكم الملك على اريوس بالمنفى وهذه كانت نهاية هذا المجمع الشهير الذي لم يزل ذكره محفوفًا بالاكرام في الكنيسة

الفصل الثاني والستون

في ان الملك قد خدعه الاريوسيون فانفى مار اثناسيوس

اما الارطقة التي دأبها البلبلة والاضطراب فلم يردعها سلطان مجمع نيقيا المقدس. لان الاريوسيين ولو انهم خزوا شرعوا مع ذلك يهيجون بلابل جديدة. فكتبوا للملك متظاهرين بالتسليم بايمان نيقيا ونالوا منهُ الاجازة برجوعهم من المنفى ثم اخذوا يسعون في القاء الوهم على الملك بحيلهم ومكائدهم ضد الاساقفة الكاثوليكيين لاسيما ضد اثناسيوس الذي تخلف لمار اسكندر على كرسي اسكندرية وكانوا يعدّونهُ الد اخصامهم وسعوا في تبرئة اريوس تجاه الملك موهمين انهُ قد حُجب لخطائهِ في ايضاح معتقدهِ لا في المعتقد نفسهِ وموهوا لهُ بان الله سبحانه يرضى عنهُ اذا ما امر اثناسيوس بقبول اريوس في كنيستهِ قائلين انهُ صحيح الاعتقاد فكان ذلك فخًا القوهُ ليصطادوا بهِ هذا الاسقف القديس لعلمهم بهِ انهُ يأبى اصالةً قبول اريوس وبهذه الاباة يكدّر خاطر الملك عليهِ. فحلّ هذا الشور السيّئ محل القبول لديهِ وامر اثناسيوس بقبول اريوس تحت طائلة العزل من كرسيهِ ولم يكتفِ الاريوسيون بذلك بل اشاعوا وشايات

شتى على الاسقف القديس وضجوا بها كثيرًا حتى ان الملك رأى من الواجب اجراء الفحص عما كانوا يفترون به عليهِ من امور باهظة فعين اذًا مجمع اساقفة في مدينة صور ليفحصوا عن تصرف اثناسيوس وامره بالحضور الى هناك

وكان الاريوسيون قد اقاموا قضاة عليهِ اساقفةً من حزبهم فعاملوا اثناسيوس باقبح الذل والاهانة فلم يسمحوا له ان يجلس معهم بل الزموه ان يقوم واقفًا على قدميهِ كمجرم ينتظر صدور الحكم عليهِ. فسمع القديس بهدوٍ تام كل ما انزل فيهِ من الافتراء ودحضهُ دحضًا اوعب اخصامه خزيًا وخجلاً . ولما أُفحم الاريوسيون بسداد اجوبتهِ وصراحتها استشاطوا حنقًا عليهِ وكادوا يقطعونهُ اربًا اربًا لو لم يخلصه من ايديهم معتمد الملك فرأى اثناسيوس ان حياتهُ كانت في خطر ومن ثم عزم على الذهاب الى القسطنطينية ليبرر نفسهُ امام الملك . ففي غيابهِ اخرجت الاريوسيون الحكم عليهِ بالتنزيل عن كرسيهِ وادرجوا بلا حياء في هذا الحكم تلك الدعاوي الافكية التي كان دحضها دحضًا تامًا ثم تبعوهُ الى القسطنطينية وزادوا عليهِ هناك شكوى جديدة شأنها على ما ظنوا ان تؤثر في عقل الملك فقالوا ان اثناسيوس كان توعَّد بمنع وارد الحنطة السنوي من الاسكندرية الى القسطنطينية . فجاءت هذه الشكوى الكاذبة ماخوذة على محمل

الصدق لدى الملك وكان اثناسيوس القديس يبرىء نفسهُ منها ويدحضها لكن الملك لم يسمع لهُ كلاماً . فامسى قسطنطين متغرضاً ضدهُ وحكم عليهِ بالجريمة ونفاه الى تريف وهي مدينة كبيرة من امصار غاليا البلجيكية تبعد اكثر من الفي ميل عن الاسكندرية . فانطلق اثناسيوس في الحال الى محل منفاه ووصل اليه سنة ٣٣٦ . فهاك حظ الولاة في تصرفاتهم فانهم يرتكبون احياناً افظع المظالم مع احسن النوايا السليمة لانهم يطرحون بنفوسهم في خطر الانخداع من الادنياء ويعتمدون على اناس مكارين يتظاهرون بالفضل رياءً ليضطهدوا الفضيلة نفسها

الفصل الثالث والستون

في موت اريوس شقياً

سنة ٣٣٦ للمسيح

قد توقح الاريوسيون مما نالوه من النجاح بمكائدهم ضد اثناسيوس واخذوا يسعون في ترجيع اريوس الى الاسكندرية . فاستغنم هذا المبدع الفرصة في اثناء غياب اثناسيوس وانطلق الى هذه المدينة وسار الى الكنيسة اما الشعب الكاثوليكي فلم يحتمله فيها

وثارت من جرا ذلك بلابل عظيمة اوجبت الملك ان يأمر اريوس بالخروج من الاسكندرية والاتيان الى القسطنطينية عاصمة الملك . اما الاريوسيون فعزموا على ان يحتفلوا بقبوله في هذه المدينة استعواضًا لهُ عن رذلهِ في كنيسة الاسكندرية . فكان اسقف تلك المدينة شيخًا جليلاً شديد التمسك بعروة الايمان النيقاوي . فبذل الاريوسيون جهدهم وجدهم ليقنعوه بقبول اريوس في شركتهِ . لكنهم لم يستفيدوا شيئًا لان الاسقف الموما اليه لم يذعن لطلبهم مطلقًا . فعند ذلك حنقوا عليهِ وتوعدوه بالعزل وبنوال الامر من الملك بقبول اريوس في كنيستهِ قوةً واقتدارًا . وهكذا كان فقد نالوا الامر المذكور واختاروا يوم احد لترجيع هذا الكافر الى كرسي القسطنطينية لزيادة الاحتفال والاشتهار في تنصيبهِ . فالتجا الاسقف القديس اليهِ تعالى وانزوى في كنيستهِ جاثيًا امام المذبح وطارقًا وجهه بالارض وعيناه تذرفان الدموع وهو يتوسل الى الله قائلاً : الهي اسالك ان كان اريوس مزمعًا ان يُقبل في الكنيسة ان تنقلني من هذا العالم قبل حدوث هذا الامر . اما ان كنت تشفق على كنيستك كما انني لا ارتاب بذلك لا تسمح بان تصير موضوعًا للامتهان

فاجتمع اصحاب اريوس اليوم التالي وشرعوا يهتمون في نقلهِ الى الكنيسة رغمًا عن الاسقف فشيعوه في الازقة بزفة

الانتصار وكانوا يرشقون هذا الاسقف القديس بسهام الطعن والشتائم فلما دنوا من الساحة ونظروا الى الكنيسة ظهر الاصفرار على وجه اريوس وشعر مضطرًا للذهاب الى المستراح فانفصل عن مشيعيهِ واختلى في موضع خفي لقضا الحاجة وكان الجميع ينتظرونهُ فلما ابطأ زمانًا طويلاً دخلوا عليهِ فوجدوهُ ميتًا منكبًا على وجههِ مغمسًا بدمائهِ واحشاؤه خارج جوفهِ فاقشعر المشاهدون من هذا المشهد المريع وهجروا مذ ذاك ذلك المكان ولم يعودوا يتجرأوا على الدنو منهُ بل كانوا يدلون عليهِ بالاصبع كتذكار النقمة الالهية. فذاع حالاً خبر هذه الواقعة وقام الاسقف القديس اليوم التالي مع كامل شعبه يسدي الشكر الجزيل لله سبحانهُ لا لانهُ اهلك اريوس اذ كان يندب متحسرًا على حالهِ التعيس بل لانهُ دفع الارطقة التي كانت سائرة بقدم الوقاحة لتجلس في بيت المقدس. اما الملك فاخذ يغوص بالافتكار بهذه الحادثة وازداد تكرهه من هذه الشيعة الكفرية وشعر اخيرًا بما ارتكبهُ من الزلل بنفيه مار اثناسيوس وكان اوشك ان يرجعه من المنفى لكن المنية ادركته قبل ما تم هذا المقصد بعد انهُ امر بترجيعهِ قبل وفاتهِ

الفصل الرابع والستون

في ترجيع مار اثناسيوس من المنفى وتبرئته

سنة ٣٣٧ للمسيح

فخلف قسطنطين ثلثة بنين وهم قسطنطين وقسطنس وقسطنت واقتسموا المملكة بينهم فالاول النسيه وقعت بلاد غاليا تحت ولايتهِ اعاد مار اثناسيوس الى كرسيهِ فارسلهُ الى الاسكندرية مصحوبًا برسالةٍ يتحفه فيها باعظم الثناء ويظهر غيظًا شديدًا على اعدائهِ فيقول فيها انهُ برده هذا الراعي القديس الى قطيعه قد تمم مقصد والدهِ اذ لكان رجعه هو نفسهُ لو لم تدركه المنية ثم قال متى وصل اثناسيوس الى كرسيه تعلمون عظم اكرامنا لهُ ولا يحق لكم ان تتعجبوا من ذلك لكوننا قد حُملنا على ترجيعه بسبب الغم الذي احاق بكم من قبل غيبوبتهِ ولاجل ما عندنا من الاحترام الجزيل لفضله : فجاز هذا الاب القديس بسورية ووصل الى الاسكندرية . فاستقبلوهُ بعلائم السرور العظيم وكان الاكليروس والشعب يتقاطرون اليه افواجًا ليشاهدوهُ وجميع الكنائس ترج بتراتيل الشكر لله على عودته

اما اعداء مار اثناسيوس فقد احترقت قلوبهم بنار الكيد

والغضب واخذوا يتشكون من رجوعه بما انهُ على زعمهم مغائر للقوانين ة ثلين لا يمكن ترجيعه الّا بسلطان مجمع . فاختلقوا عليهِ افكًا وشايات جديدة واخذوا يسعون بالمكائد والدسائس في اهلاكه فبلغ من امرهم انهم امالوا لغرضهم الملك قسطنس الذي اصابتهُ في قسمة المملكة امصار الشرق . فموهوا عليهِ ان اثناسيوس رجل مقلق مفسد قد اثار البلابل والفتن منذ رجوعهِ وشكوهُ زورًا وبدون ادنى دليل بتةً بانهُ حجز الحنطة المعينة قوتًا للارامل والكنائسيين القاطنين في الامصار التي لم يكن ياتيها شيء من الحنطة . اما اثناسيوس فلم يصعب عليه دحض هذا الافتراء لكن النميمة ولو افتضحت لم تبدد الاوهام من عقل قسطنس لان هذا الملك التعيس كان مسلمًا امره للاريوسيين فيصغى الى كل ما يختلقون لهُ على اثناسيوس ويصم اذنيهِ عن كل ما يفيده تبريرًا فحازت اعداء هذا الاسقف القديس الاجازة من الملك بانتخاب بطرك جديد على الاسكندرية عوضًا عن اثناسيوس . وهذا كان مقصدهم وغاية بغيتهم فلم يتقاعدوا عن اتمامها بل في الحال اجتمعوا وحطوا اثناسيوس من كرسيه واقاموا بدله اكليريكيًا قبيح السمعة يقال لهُ بيست . فهذا الكاهن الشرير والاسقف الذي رقاه الى الدرجة الاسقفية كانا قد رُشقا بسيف الحرم في المجمع النيقاوي فلما علم البابا بهذه الرسامة المشاقة رفض الدخيل من

شركتهِ وحينئذٍ رشقته جميع الكنائس الكاثوليكية بسهام الحرم .
وهكذا لم يتمكن يسست من الحصول على المقام الذي كان يريد
اختلاسه

فلم تزل الكنيسة الكاثوليكية تمقت الانشقاق وترفض
كارهةً من يستولون على كرسي على حياة الراعي الشرعي
المعروف منها وقد اعلنت في كل اين وآن ان غاصبًا هذه صفته
لا سلطة لهُ ولا ولاية وليس هو اسقفًا بل فاسق ولا هو راعٍ بل
لص وذئب دخل في الحظيرة ليبدد ويذبح القطيع . واذ كان
اثناسيوس مظلومًا من اعدائهِ الذين كانوا اعداء الدين ايضًا
كتب للبابا يلتمس منهُ ان ينصفه من هذا الظلم ثم ذهب الى
رومية ايضًا ليعرض للبابا شفاهًا ما جرى عليهِ . فكان وقتئذٍ
جالسًا على السدة الرسولية مار جوليوس فترحب باثناسيوس
وعقد مجمعًا ليقضي في هذه الدعوى . فتبرر اثناسيوس فيه
وثُبت في كرسيه . وعندنا ايضًا الرسالة التي حررها الحبر الاعظم
بهذا الصدد ففيها يحامي عن الحق بعزم يليق برئيس الاساقفة
ويُرَى انهُ منذ القرون الاولى للكنيسة كان المؤمنون يلتجئون
الى البابا اي الى خليفة مار بطرس النبي اقامه يسوع المسيح
نفسهُ راعيًا لكامل القطيع في الدعاوي الكبرى المتعلقة بالايمان
او بالتهذيب . فاكبر الاساقفة الاقدمين قد التجئوا الى الكرسي

المقدس ملتمسين اصلاح الاحكام الجائرة المبرزة ضدهم . فاذًا قد عرفوا البابا دائمًا ليس فقط متقدمًا بالشرف بل ايضًا بالرياسة والولاية والسلطان الممتد على كامل الكنيسة وقد اعتبروا هذه الرياسة من القضايا الدينية

الفصل الخامس والستون

في ضروب المظالم التي ابداها المشاقون

ان اعداء مار اثناسيوس لم ترتخ عزائمهم من قلة نجاح الدخيل الاول بل تاهبوا احسن من ذي قبل ليقيموا اسقفًا اخر على الاسكندرية ويجبروا قبوله فانتخبوا رجلاً من كابادوكية يقال له غريغوريوس وملكوه بسلطان الملك وقوة السلاح كرسي مار اثناسيوس فاضطر هذا القديس الى الفرار وفي هذه الاثناء ارتكب الاريوسيون اقبح القبائح وافظع ضروب الكفر والفجور فشوهد وقتئذٍ كما شوهد غالبًا مذ ذاك ما هو الروح الذي يحرك المشاقين والى اية كبائر يحملهم بتأييد سلطة الملوك فان تعدّي غريغوريوس على الكرسي الاسقفي قهرًا واغتصابًا القى الرعبة في قلوب اهل الاسكندرية فكان الشعب الكاثوليكي

بلأ الكنائس التي بقيت مفتوحة فارشت اعوان الملك رعاع الشعب واليهود وقوم الاراذل وجمعوا رعاة المواشي والسفهاء من شبان الازقة وهيجوهم على الكاثوليكيين واطلقوهم عليهم اجواقاً بينما كان هولاء مجتمعين في الكنائس فداسوا بعضهم بالارجل وسحقوا روس بعضهم بالدبابيس ومنهم من قطعوهم بالسيوف اما الكهنة فكانوا يجرونهم الى محكمة الوالي عنفاً ويهشمونهم بالضرب امام غريغوريوس لتمنعهم من الاشتراك مع الكفرة وكانوا يعرون العذارى المكرسات لله من ملابسهنَّ ويضربونهنَّ بالقضبان وينزعون الخبز من خدام البيعة ليهلكوهم جوعاً وما كان يزيد هذا التصرف فظاعةً هو ان هذه الاعمال القبيحة كانت تتم سيف متقدمات عيد الفصح ففي يوم جمعة الالام نفسه دخل غريغوريوس مصحوباً بشرط وثنية في كنيسة كان يروم الاستيلاء عليها وامر بالقبض على اربعة واربعين نفراً وضربهم بالسياط جهاراً ثم القاهم في السجن وكان اكثرهم عذارى ونساء فاضلات وهكذا استولى على جميع الكنائس حتى ان الاكليروس والشعب الكاثوليكي قد اضطر الى ان يهجر المكان المقدس او يشترك مع هذا الوحش الضاري

اما البابا فحامى عن القديس اثناسيوس وعقد مجمعاً مؤلفاً من سبعين اسقفاً وحكم فيهِ بفساد رسامة الدخيل . ومع ذلك

لما توفي اقامت له اعداء مار اثناسيوس خليفةً وجددوا جميع الفواحش التي اجروها سابقًا وكان المشاقون يقلقون الشعب عند ما كان يجتمع للصلوة ويخطفون الابكار من بيوتهن ويشتمونهنَّ في الازقة والشوارع لاسيما بواسطة نسائهم اللواتي كنَّ يطفنَ الشوارع متسافهات كالسكارى ويتلصصنَ على النساء الكاثوليكيات ليوسعنهنَّ تعييرات وشتائم ولم يكن الاضطهاد ثائرًا في الاسكندرية فقط بل تسعرت نيرانه ايضًا في كامل اطراف مصر . اذ صدر الامر من الملك بطرد الاساقفة الكاثوليكيين من الكنائس فطردوهم واقاموا عوضًا عنهم شبانًا مفسودين يتعاطون امور الكنيسة حسب السياسة البشرية محضًا فشرعت هولاء الرعاة الكذبة يفسدون الايمان في مصر حيث كان انذر بالتعليم الكاثوليكي بتمام الحرية ولما كان المؤمنون الحقيقيون يعزلون نفوسهم عنهم اتخذوا من ذلك حجة جديدة ليهينوهم ويطرحوهم في السجون ويختلسوا اموالهم . ومذ ذاك الحين عاد الانشقاق في الكنيسة وكان دائمًا معروفًا بهذه السمات نفسها وبعلائم جلية لا تدع محلًا لوقوع الارتياب بها لكونه لم يزل يأتي بمثل هذه القبائح ويبدي هذه المظالم نفسها فهذه هي هيئته الطبيعية ومفاعيله الذاتية فلا حاجة لان تسأل من هم ارباب الانشقاق فان افعالهم تناديهم ففي كل آن كان المشاقو

الفصل السادس والستون

في ان الملك قسطنس اقلق الكنيسة كلها

سنة ٣٥٥ للمسيح

فلما استبد قسطنس وحده بكامل المملكة بسبب وفاة اخويه اصدر امرًا يلزم بهِ جميع الاساقفة ان يمضوا على شجب اثناسيوس تحت طائلة عذاب المنفى اذ كان يخال لهُ انه لا يستطيع ان يلاشي الايمان النيقاوي الاّ باهلاك مَن كان اشد المحامين عنه غيرةً فلكيما يتوصل الى ذلك جمع الاساقفة في ارل ثم في ميلان واقام هو نفسه مشتكيًا على اثناسيوس اما الاساقفة فاجابوه انهم لا يقدرون ان يشجبوا اثناسيوس بدون ان يهتكوا حرمة القوانين المقدسة . اجابهم الملك وقال : فلتحل ارادتي محل القوانين . اذعنوا لامري والاّ فالمنفى : قالت لهُ الاساقفة ان المملكة ليست لك بل لله الذي امنك عليها فعليك اذًا ان ترهب احكامه ولا ان تبلبل سياسة الكنيسة بسياسة الملك : فهذا الجواب المشعر بعزم وثبات لا تقين بالاسقفية سعر نيران الغضب في قلب قسطنس

فاستل سيفه وامر بان يأتوا ببعض الاساقفة الى منفع العذاب ثم عدل فاكتفى بنفيهم فالذين ابوا الامضاء طردوا من كراسيهم واقيم عوضهم اساقفة من الحزب الاريوسي . اما البابا ليباريوس فكان اولاً ابدى عزماً شديداً الا انه فشل فيما بعد لما قاساه من زعج المنفى فامضى على شجب اثناسيوس لكنه ندم حالاً على ما فعل وفي الحال نهض من سقطتهِ واصلح عثرته وغب برهة وجيزة حيث كان الملك مهتماً باقلاق الكنيسة اكثر من اهتمامهِ بسياسة المملكة سعى في عقد مجمع في ريميني من امصار ايطاليا وفي الوقت نفسهِ كان مجمع معقوداً في سيلوقيا في الشرق فهذا المجمع الاخير كانت اساقفته اقل عدداً من ذلك فكان بدون نتيجة وافترقت الاساقفة بدون ان ينهوا امراً بتةً

اما مجمع ريميني فطالما كان متمتعاً بحريتهِ تمسك بعروة الحقيقة الكاثوليكية وابى ان يقبل صورة ايمان جديدة بل حكم بوجوب الاعتماد على مجمع نيقيا بدون ان يزاد عليهِ او يحذف منهُ شيء وكانت اساقفة هذا المجمع ثلثمائة وعشرين اسقفاً فامضوا هذا الحكم جميعاً والاريوسيون الذين ابوا ان يمضوهُ حُرموا وعُزلوا اما الملك اذ كان متغرضاً للاريوسيين فانفذ امراً لتوروس الوالي بان لا يدع المجمع ان ينحل حتى تمضي الاساقفة صورة ايمان

كانت ملتبسة ولم يذكر لفظة المساوي بالجوهر وان ينفي الذين يصرون على نبذها فاكثر الاباء المسوكين في ريميني ملوا وقتئذ من طولة اقامتهم في هذه المدينة وغيابهم زمانًا مديدًا عن كنائسهم وأُرعبوا بتهديدات توروس فخدعوا من الاريوسيين ظانين ان معنى لفظة المساوي عُبر عنه بما يرادفه فامضوا على صورة لم يدركوا ما كان مكنونًا فيها من سم التعليم. فتباهى الاريوسيون بالانتصار اما اباء ريميني فحالما دروا بالغش اغتاظوا وندموا على ما فعلوا ونبذوا جهارًا المعنى السيّء الذي خصة الاريوسيون بالصورة الممضاة واعلنوا تعلقهم بايمان نيقيا ففي هذا الخصوص قال مار ايرونيموس ذاك القول الشهير ان العالم قد تعجب اذ وجد نفسهُ اريوسيًا: فلم يكن اذًا اريوسيًا حقًّا لانهُ لا يتعجب الانسان ان وجد نفسه بشان الاعتقاد على ما هو عليهِ حقيقةً فكل زلة اباء ريميني قائمة بكونهم اعطوا سبيلاً لانتصار المذهب الاريوسي غفلةً منهم وغشًا من الاريوسيين ومع ذلك لم يشترك قط بالانخداع العدد الاكبر من الاساقفة المنتشرين في كامل الكنيسة بل بالعكس اذ كان البابا ليباريوس مترأسًا عليهم نهضوا بعزمٍ ضد هذه العثرة ورذلوا اعمال مجمع ريميني

ومن المحقق ان تعليم الايمان المشتهر لم يتغير قطعًا حتى ان القديس اثناسيوس قال بعد عقد هذا المجمع بسنتين في رسالتهِ

الى الملك يوفيانوس : ان الايمان النيقاوي الذي نعتقد بهِ قد كان في كل آن وتتبعهُ جميع الكنائس في اسبانيا وبريطانيا الكبيرة وغاليا وايطاليا ودلماسيا وداسيا وميزيا ومكدونيا وفي الاغريق وجميع امصار افريقيا وجزر صردينيا واقريطش وقبرص وبمفيليا وليسيا وايزوريا ومصر وليبيا وبنطس وكبادوكيا فهولاء الكنائس جميعها تعتقد بهذا الايمان نفسه مع كنائس الشرق جميعها ما عدا القلائل منها : ومن ثم ليس فقط كامل المملكة الرومانية بل العالم باسرهِ ايضاً كان متمسكاً بعرى هذا الايمان ولم يكن من حزب الضلال الا عدد صغير جداً بالنسبة الى رافضيه فلا مجمع ريميني ولا اضطهادات قسطنس الوحشية ولا تأييدهُ للاريوسيين امكن ان يفسد ايمان الكنيسة الكاثوليكية

الفصل السابع والستون

في غيرة مار ايلاريوس اسقف بواتيه على الايمان النيقاوي

سنة ٣٥٣ للمسيح

ثم ان الله سبحانهُ اقام في غاليا محامياً شهيراً عن عقيدة مساواة الابن بالجوهر وهو مار ايلاريوس اسقف بواتيه . فصنع هذا

القديس في الغرب ما صنعه اثناسيوس في الشرق • فقاوم كفر الاريوسيين بعزم شديد ووقى وطنه من وباء الضلال ووطد فيهِ الايمان النيقاوي • ولما كان الملك يسعى منذ سنين عديدة في اذاعة المذهب الاريوسي قدّم لهُ القديس ايلاريوس اعراضًا فيهِ يلتمس منهُ ان ينهي الاضطهادات الجائرة التي كانت تقاسيها أكثر الكنائس المعدومة رعاتها والمدفوعة الى اساقفة كذبة استولوا عليها بالسيف • وكان كلامه مع الملك بطلاقة الحرية كما كانت تقتضي ظروف الحال • وقاوم مقاومةً شديدة مكائد ساتورنينوس اسقف ارل الشهير برذائلهِ الفاضحة وبعلاقاتهِ مع الاريوسيين الذين كانوا يعضدونه شديدًا فلما علم الملك من مكاتيب ساتورنينوس بغيرة مار ايلاريوس نفاه الى فريجيا فكان هذا المنفى ضربًا من اعمال العناية الالهية التي تستخدم ارادة الناس السيئة لتتميم مقاصدها • فنبعد برهة وجيزة امر الملك بالتئام مجمع في سيلوقيا بقصد ان يلاشي فيهِ قوانين المجمع النيقاوي فلما اختلفت الاراطقة فيما بينهم وانقسموا الى حزبين متضادين دعا احدهما مار ايلاريوس الى هذا المجمع املاً بان يتحزّب معه ويفيده انتصارًا على مضاددهِ

فبادر القديس الى سيلوقيا وحامى فيها عن الايمان النيقاوي بعزم متين مفحمًا اعداء الحق ثم ذهب الى القسطنطينية

والتمس من الملك ان يأمر بقيام جدال بينه وبين الاراطقة لكي يقاتلهم بحضرتهِ ويبين لهم فساد تعليمهم من التقلبات المتواصلة التي كانوا عليها في هذا التعليم . فقال لهُ : ان هولاء الذين تجعل اعتمادك عليهم لم يزالوا منذ المجمع النيقاوي يؤلفون قوانين ايمان مختلفة . فليس لهم ايمان من الانجيل بل من ظروف الاحوال . ففي العام الماضي قد غيروا قانونهم اربع مرات . فالايمان عندهم يتقلب بتقلب الاهواء والاغراض ويتغير التعليم كما تتغير العوائد ففي كل سنة بل في كل شهر ايضاً يبرزون للوجود قوانين ايمان جديدة يلغون ما كانوا صنعوه ويرذلون ما كانوا اعتقدوا بهِ . فلا يتكلمون الاَّ عن الكتب المقدسة والايمان الرسولي وما ذاك الاَّ ليخدعوا الضعفاء ويثلموا تعليم الكنيسة . لعمري ان هذا الحكم يطلق ايضاً على الارطقات المختلفة التي ظهرت منذ ايام مار ايلاريوس ولاسيما على الاراطقة الحديثين اعني بهم الابروتستانت. فلما كان الاريوسيون يرهبون حماسة غيرته وحججه القاطعة ابوا مجادلته ولكيما يتخلصوا منهُ اقنعوا الملك بردهِ الى كنيستهِ فاستدعاهُ الملك من المنفى واعادهُ الى ابرشيتهِ وفيما هو عائد جاز في ايليريا وايطاليا وكان في كل مكان يركّن المسيحيين الضعفاء المرجوجين في الايمان . فكان اول اهتمامهِ عند وصوله الى غاليا في اصلاح

الشرور التي انزلت في الكنيسة . فأُجرم ساتورنينوس وحُطّ من درجتهِ بما انهُ مجرم بارطقة وبذنوب اخر كثيرة . وكان من رجوع هذا الاسقف القديس الى كرسيهِ احسن الفوائد اذ اعيد الايمان الى كامل طهارتهِ وعاد تهذيب الكنيسة الى عزمهِ القديم وانتهت المعثرات وسكنت القلاقل وملك السلام . وتوفي الملك قسطنس سنة ٣٦١ وفقد الاريوسيون بوفاتهِ اكبر نصرائهم

الفصل الثامن والستون

في مار مرتينوس اسقف تورس

سنة ٣٦٠ للمسيح

وكان مار مرتينوس اشهر تلاميذ مار ايلاريوس متعلقًا بهِ تعلقًا خصوصيًا وكان يتعجب من فضائلهِ وقد اشترك بكافة مجاهداتهِ لاجل الايمان . فولد مرتينوس في صاباريا وهي مدينة من اعمال بانونيا من والدين وثنيين . فتداركهُ الله منذ صبائهِ ببركة فريدة حتى انهُ مضى الى الكنيسة ولهُ من العمر عشر سنوات ودخل في مصاف الموعوظين وحيث كان ابوهُ من وكلاء الشعب اضطر الى ان يعتنق الجندية ولكن هذه المهنة التي هي مدرسة

الخلاعة والفساد لكثيرين غيره كانت له مدرسة الفضائل السامية وقد امتاز خاصةً بمحبتهِ للفقراء فلم يكن يستطيع ان ينكر عليهم شيئًا بل كان يوزع عليهم كل ما يفيض عنهُ من علوفتهِ ومما ذكر عن ذلك انهُ وجد ذات يوم من ايام الشتاء فقيرًا يتسول على باب مدينة اميان مضنوكًا بالعرى والبرد فرقَّ قلبهُ له تحننًا واذ لم يبقَ له الاَّ سلاحه واثوابه الجندية قطع بسيفهِ نصف ثوبهِ ودفعهُ الى هذا المسكين ليتردى بهِ. فهذا الاحسان الجليل لم يذهب بدون مجازاة لان مرتينوس في الليلة التالية نظر يسوع المسيح في الحلم متردياً بنصف ذاك الرداء وسمعهُ يقول للملائكة المحدقة بهِ: ان مرتينوس قد كساني بهذا الثوب حال كونه بعد موعوظًا: فتعزَّى مرتينوس بهذه الرؤية وعزم على التماس العماد. فحالما نالهُ همَّ بترك الجندية. فسمع بصيت مار ايلاريوس من بواتيه الذائع في الاقطار وبادر اليهِ وعمر ديرًا يبعد ميلين عن مدينة بواتيه واختلى بهِ مع بعض تلاميذه وكان يخرج منهُ حينًا بعد حين ويمضي ينذر بالايمان عبدة الاوثان الذين كانوا كثيرين في القرى فايد الله غيرته بمعجزات باهرة

ففي برهة وجيزة اشتهر اسمهُ في كامل امصار غاليا فرآه اهلاً للاسقفية والتمسهُ شعب تور راعيًا عليهم ولكن قد وجب ان يستعملوا معهُ الحيلة حتى والاغتصاب ايضًا لياخذوه من خلوتهِ

اما مرتينوس فلم يتغير تصرفه في الاسقفية بل كان على كرسي تور كما كان في ديرهِ ولم يرَ منهُ ادنى تغيير لا في ملابسهِ ولا في طعامهِ لانهُ لم يشا ان يشرف مقامهُ الاَّ بفضائلهِ. اما غاية مساعيهِ فكانت في ملاشاة الوثنية . وردَّ كثيرين من احزابها بارشاداتهِ ومعجزاتهِ. فوجد ذات يوم في قرية اهلوها عبدة اصنام فبعد ما وعظهم وحرضهم على الاقلاع عن خرافاتهم همَّ بقطع شجرة كبيرة جدًّا كانوا يعبدونها اما الوثنيون فلم يرتضوا بقطعها الاَّ بشرط ان يقوم في جهة ميلة الشجرة فقبل مرتينوس بهذا الشرط وهو مملو ايمانًا وقطعوا الشجرة فلما اوشكت ان تسقط رسم الاسقف القديس اشارة الصليب المقدس فتقومت وسقطت للجهة الاخرى فتعجب الوثنيون من ذلك والتمسوا العماد ولم يكن هذا الحبر القديس يكف عن التبشير والوعظ الاَّ لاجل مباشرة اعمال اخر خيرية فكان يمضي احيانًا ويتشفع لدى الولاة لاجل اليائسين ولهذه الغاية باشر سفرَين الى تراف حيث كان وقتئذٍ الملك مكسيموس ولكنهُ كان يلتمس منهُ هذه النعم بصفة اسقف وبكلام يشعر بجلال بوقرهِ الملك نفسهُ . فازداد مكسيموس اعتبارًا لديه ودعاه مرارًا شتى الى مائدتهِ . فابى اولاً مرتينوس لكنهُ رأى فيما بعد ان يجيب دعوته فسر مكسيموس سرورًا عظيمًا عند ما قبل

مرتينوس دعوته فدعا معهُ ايضاً اشرف اعوان بلاطهِ وصنع وليمة حفل القوم بها فكان الاسقف على المائدة ومعهُ كاهن من كهنة كنيسة تور كان برفقته دائماً . فلما اخذوا في الشرب اومأ الملك الى خادمهِ ليقدم الكاس الى مرتينوس ظاناً انهُ يتناولها منهُ فيما بعد اما الاسقف فاخذ الكاس من الخادم وقدمها الى كاهنهِ كانهُ اولى بالاكرام من جميع الجلاس فلم يغتظ الملك من هذا العمل بل اثنى على مرتينوس لتفضيلهِ حرمة كهنوت يسوع المسيح على كامل السلطة الملوكية . فاشتهر مرتينوس كثيراً في الكنيسة لفضائله العديدة المؤيدة بالمعجزات الباهرة التي ابرزها

الفصل التاسع والستون

في ان الملك يوليانوس اراد ان يعيد عبادة الاوثان

سنة ٣٦٢ للمسيح

وقد خلف يوليانوس قسطنس وترك المذهب المسيحي ومن ثم قد لقب بالكافر . فلما تبوأ سرير الملك شرع بمنح الحرية لكل احد بممارسة ديانتهِ وبترجيع الذين نفوا لهذه العلة . وكان قصده بهذا التصرف اكتساب مودة الشعب وبالاكثر ليجعل

حكم قسطنس ممقوتًا فاستغنم مار اثناسيوس الفرصة من هذه الحرية وعاد الى الاسكندرية وكان دخوله في هذه المدينة مع جمع حافل للغاية فبادر الشعب الى ملاقاتهِ مسافة يوم وكان عدده كبيرًا بهذا المقدار حتى خيل ان سكان مصر جميعهم قد اجتمعوا لاحتفال ملقاه . ولكن هذا الفرح الصادر عن عودتهِ لم يستقم مدة مستطيلة لان الملك مع ما كان عليهِ من المناقب الجليلة كان ذا عقل معوج وخسيف فعزم على اهلاك الدين المسيحي واعادة عبادة الاصنام ولكيما ينال مأربهُ هذا طرد مار اثناسيوس من الاسكندرية فاضطر هذا الحبر الجليل الى ان يحتجب خوفًا من ان يقاسي شر المعاملة

اما يوليانوس فلم يستعمل الاغتصاب بل المكر والخداع فاثار الانقسامات بين الكاثوليكيين والاراتقة لكيما يضعفهم بمقاتلة بعضهم بعضًا ثم يسحقهم جميعًا بضربة اخيرة فحرية الدين التي اذن بها تظاهرًا فقط لم تكن بحقيقة الامر سوى عبودية قاسية فلم يكن يحكم على المسيحيين بالقتل باوامر عمومية بل كان يتخذ طرائق تتكفل باهلاكهم فكان يتحف الوثنيين بجميع الانعامات اما المسيحيون فلم ينالوا من قبلهِ الّا امتهانًا وتظلمًا وسخطًا فافرغ مجهوده خاصةً في تذليل الاكليروس وكل ما يتعلق بالدين الذي كان يمقتهُ فلهذه الغاية نزع عن الكنائسيين

كامل امتيازاتهم وابطل العلوفات المعينة لاعالة الاكليريكيين والعذارى المكرسات لله . فكان يستهزئ بهم قائلاً ان قصده في ذلك ان يقودهم الى كمال حالهم واتقان الفقر الانجيلي . وعرّى الكنائس من زيناتها ونقل تحفها الى هياكل الاوثان التي كان يرممها على نفقات المسيحيين . فكان الكنائسيون يقاسون في هذه الاثناء عذابات شديدة اذ كانوا يُطرَحون في السجون ويُعذَّبون ليبينوا الانية المقدسة ويدفعوها الى الظالمين ويشتمون جهارًا ولم يكن احد يحامي عنهم من شر الكفرة . فنهبت الكفرة الكنائس وهدموها ودنسوها وخربوا مدافن القديسين ودنسوا ذخائرهم وبددوا رمادهم .

وكان يوليانوس يجدّ في اكتساب من كان ضعيفًا بالايمان بواسطة المواعيد وثبات الذين كانوا يقاومونهُ كان محسوبًا ذنبًا عليهم اما الذين كانوا ينغلبون للعذاب ويضحون ذمتهم لاجل المال فكانوا ينالون الكرامات والنعم . ففتح الكفر سبيلاً لجميع الوظائف وكان يستغني بهِ عن المناقب والاستحقاق ويستر كافة الذنوب ويمنح حقًّا لارتكاب غيرها بدون خوف من العقاب ثم سنّ يوليانوس سنةً ينفي بها المسيحيين من جميع وظائف الحكومة بحجة ان الانجيل يحرّم عليهم التقلد بالسيف ويمنعهم من جميع الحقوق التي يُخاصمون عليها ولم يسمح لهم ايضًا ان يدافعوا عن

نفوسهم في المحاكم . فكان يقول لهم : ان ديانتكم تحرم عليكم المخاصمات والمشاجرات : فالمدن التي كانت تغير على تأييد الوثنية كانت متاكدة حسن التفاته اليها اما المدن المسيحية فلم يكن لها قط منصفاً بل كان يأبى مواجهات معتمديها ويرفض اعراضاتها . وحرّم على المسيحيين ان يعلموا العلوم لعلمهِ بما فيها من الفائدة لاخزاء الضلال والمحاماة عن الحق بل كان يحتج ان المسيحيين ينبغي لهم ان يمكثوا في الجهل ويؤمنوا بدون برهان . لعمري ان هذا الاضطهاد لكان اكبر شرًّا للكنيسة لو لم يجعل الله موقبها حدودًا بقصر حيوة هذا الملك وهكذا قلب هذا القصد الجهنمي اذ اهلك صاحبه بنسمة من فيهِ

الفصل السبعون

في ان يوليانوس قد باشر اعادة هيكل اورشليم وفي موته

سنة ٣٦٣ للمسيح

لما كان الملك يوليانوس يجدّ في اهلاك الديانة المسيحية اتاها ببينة جديدة على الوهية منشئها وصحة وحيها . فكان يعلم النبوات التي انذرت بخراب هيكل اورشليم للابد وان يسوع المسيح قد كان تنبأ بان لا يبقى فيهِ حجر على حجر . فلكيما يكذّب

الكتب اخذ يهتم في اعادة بناء الهيكل وان لم يكن يحب اليهود قطعاً دعاهم هو نفسه الى المساعدة على هذا العمل وقدم النفقات اللازمة لاتمامهِ فارسل الى محل الشغل احد امنائهِ يقال لهُ اليبيوس ليعجل تتميم اوامرهِ وفي الحال تقاطرت اليهود من كل جهة واجتمع عدد لا يحصى من الفعلة في مكان الهيكل. فجرفوا المكان وحفروا في الارض وكانوا يشتغلون بكل نشاط في نزع الاساسات القديمة فكانت الشيوخ والاولاد والنساء يشتركون في الشغل ويتناولون في اطراف اردينهم الحجارة وتراب الردم اما كيريللوس اسقف اورشليم فكان يسخر بهم ويستهزئ باعمالهم ويقول علنًا انهُ قد اتى الزمن الذي فيهِ تتم نبوة المخلص حرفيًا اذ قال ان هذا البناء العظيم لا يبقى منهُ حجر على حجر. وبالحقيقة لما انتهوا من هدم الاساسات القديمة واوشكوا ان يضعوا الجديدة حدثت زلزلة شديدة ملأت الحفر ترابًا وبددت ادوات العمار التي جمعوها وهدمت البنايات المجاورة وقتلت بعضاً من الفعلة وجرحت بعضاً. اما الاشغال فقد كانت تلفت ولكن اليهود لم يرتدعوا عن عنادهم بل لما سكنت رعبتهم عادوا الى العمل فخرجت حينئذٍ من جوف الارض كرات نارية ورشقت الفعلة بالحجار التي كانوا يهمون بوضعها في الاساس واذابت الات البناء. وهذه الواقعة المهولة تكررت مرارًا شتى فكانت تظهر كلما شرعوا بالشغل

وتنتهي حينما كانوا يكفون عنهُ وهذا دليل واضح على انها كانت فعل رب الطبيعة. فتعجب الناس جميعهم من هذه المعجزة الباهرة وكثيرون من اليهود واكثر منهم من الوثنيين اعترفوا بالوهية يسوع المسيح وطلبوا العماد. اما الملك فكان اعمى البصيرة في بهرة هذا النور الساطع وبقي مصرًا على كفره. فهذه الحادثة محققة وعارية عن كل ريب وقد اتفق التخبير عنها ليس فقط عند المؤرخين الكنائسيين لذلك العصر بل ايضًا عند الوثنيين انفسهم منهم اميان مارشلين وقد اوردها جهارًا مار غريغوريوس النزينزي ومار يوحنا فم الذهب بحضرة جمهور غفير كان كثيرون منهُ شهود عيان لها ولم يصاددهما احد ثم احد علماء اليهود المشهورين قد كتب في الجيل التالي واتى بذكر هذه الواقعة على سياق تاريخ سني امتهِ مع انهُ كان يهمهُ كثيرًا ان يجر ذيل الصمت عليها. ويوليانوس نفسهُ قد اقرّ بانه حاول اعادة بناء هيكل اورشليم وصمته عن الموانع التي صدته عن البناء هي اقرار مضمر بما اخبره مؤرخو عصره. ثم اثار يوليانوس حينئذٍ حربًا على الفرس وهلك فيها هلاكًا مريعًا فاعتبر موته مفعول النقمة الالهية من هذا الملك الكافر ولطفًا من العناية بالكنيسة التي كان يضطهدها

انفصل الحادي والسبعون

في ان الملك يوفيانوس عضد الايمان الكاثوليكي

سنة ٣٦٣ للمسيح

وحالما توفي يوليانوس عقدت اكبر روساء العسكر مجمعاً وبايعوا الملك ليوفيانوس . فكان هذا رئيس محافظي رأس الملك فرقته مناقبه الشخصية الى قمة الاعتبار . فما عدا ما كان عليهِ من البسالة الشهيرة فكانت لهُ دراية عظمى وادارة حسنى في المواقع الخطرة وكان من ثم طبق المراد والاحتياج للعسكر الروماني الذي كان وقتئذٍ في وسط الفرس . اما من جهة منفعته للكنيسة فكان ايمانه نقيّاً واعلن في ايام سالفه ببينات جلية حسن تعلقه بالديانة المسيحية لان الملك يوليانوس عند ما كان متأهباً لمحاربة الفرس قال لهُ بصوت زاجر: ضحِّ للآلهة او ردَّ لي سيفك . ففي الحال خلع يوفيانوس سيفهُ ودفعهُ اليهِ اما الملك فرده لهُ حالاً لانهُ لم يشاء ان يخسر قائداً هكذا شهيراً في ظروف توجبه اليهِ اضطراراً فقبل ما تقلد يوفيانوس علائم المقام الملوكي جمع اليهِ العسكر واعلن لهم انهُ من كونهِ متمسكاً بالدين المسيحي لا يشاء انْ يكون بين عسكرهِ جنود وثنيين اذ ليس لهم وقاية من الله . فهتفت الجنود

جميعهم بصوت واحد قائلين : انعم بالاَّ ايها الملك اننا جميعنا مسيحيون تحت امرك فالشيوخ بيننا قد نصرهم قسطنطين الكبير وفقههم في الدين المسيحي والباقون نصرهم اولاده اما يوليانوس فكانت ايام حكمه قصيرة لم يتمكن من توطيد الكفر فيما بين الذين اغواهم به انفسهم : فسر يوفيانوس من هذا الجواب سروراً عظيماً وتقلد رياستهم ثم عاد بهم بحسن تدبيره الى امصار المملكة في برهة وجيزة

واخذ حينئذٍ هذا الملك الفاضل باشفاء الكلوم التي اثخن بها يوليانوس الكنيسة فكان من اول اهتماماته ترجيع مار اثناسيوس من منفاه واعادته الى كرسيهِ فحرر لهُ رسالة توضح احترامه العميق لهذا الحبر الجليل فبرز اثناسيوس من برية منفاه وظهر في الاسكندرية فكانت مصائبهُ نفس مصائب الكنيسة وانتصاره انتصارها ومع ذلك حاول الاريوسيون تغريض يوفيانوس ضده لكنهم لم ينجحوا بكيدهم بل ازداد الملك من ذلك اعتباراً للحبر القديس ولم يزل يكرّمهُ بدالة خصوصية فلكيما يثبت في الايمان ولا يشذ قط عن خطة دائرة اعتقاد الكنيسة طلب من مار اثناسيوس ان يرسل لهُ بياناً صريحاً وموجزاً في التعليم الكاثوليكي.فاوضح لهُ الايمان النيقاوي وبين لهُ ان الطريقة الوحيدة لكفّ الشرور عن الكنيسة هي السعي في الرضوخ لمراسيم

هذا المجمع فشرعت الكنيسة تتمتع براحة بعد ما قاست شدائد عديدة اذ كان يوفيانوس منعماً عليها انعاماً كانت فقدته منذ عهد قسطنطين. فرد هذا الملك الفاضل للاكليروس وللارامل والعذارى معافاتهم وامر ولاة الاقاليم بتأييد اجتماعات المؤمنين والسهر على اكرام العبادة الالهية وتعليم الشعوب. وبينما كان يؤمل التمتع زماناً مديداً بهذه النعم وُجد يوفيانوس ميتاً في سريره ولم يكن له من العمر سوى اثنين وثلاثين سنة. فيظن انه اختنق ببخار الفحم الذي اوقدوه في مخدعه لينشفوه من الرطوبة. فبوفاة هذا الملك الباكرة عادت الكنيسة تخوض في يم البلية والاكدار

الفصل الثاني والسبعون

في ان فالنص جدد بلابل المذهب الاريوسي
سنة ٣٦٧ للمسيح

ثم خلف فالنتيانوس يوفيانوس ولما تبوأ سرير الملك قسم المملكة بينه وبين فالنص اخيه. اما فالنتينيانوس فكان متمسكاً تمسكاً مخلصاً بعروة الايمان الكاثوليكي ومن ثم كانت الكنيسة رائعة بالسلم في كامل امصار ملكه ولكن فالنص الذي كان قسمه في

الملك امصار الشرق اثار فيها اضطهادًا مريعًا على الكاثوليكيين وجدد جميع البلايا التي حلت فيها على عهد الملك قسطنس . فشرع بنفي مار اثناسيوس الذي كان دائمًا هدفًا لسهام بغضة الاريوسيين واول من امسى ضحية غضبهم . فالضربات التي حلت في هذا الحبر الجليل كانت علامة لاضطهاد عمومي فمذ ذاك شرع الكاثوليكيون يقاسون كامل انواع الشرور فالشتائم وضبط الاموال والتقييد بالسلاسل والتعذيب كان بعضًا مما اجروه عليهم ولم يكن يُسمح لهم ان يتشكوا من هذا الظلم الفظيع بل كان تشكيهم محسوبًا ذنبًا عليهم يوجب قتلهم وهاك اشارة عما جاء في التخبير عن ضروب هذا الجور الجهنمي . ان المؤمنين في القسطنطينية لم يقدروا ان يقتنعوا بان الملك يؤيد هذه المظالم التي كانوا يكابدونها فارسلوا اليه ثمانين رجلًا من افاضل الاكليريكيين ليشكوا له حالهم من قبل هذه الشدائد المنزلة بهم فسمع فالنص شكواهم واخفى شدة غضبه عليهم لكنهُ امر سرًّا مودستوس رئيس جنوده ان يقتلهم فخاف هذا من حدوث هيجان في المدينة اذا قتلهم جهرًا فحكم عليهم بالنفي ورضخوا لهذا الحكم بفرح . فانزلوهم جميعهم في سفينة واحدة وامر مودستوس النوتية ان يحرقوا بهم السفينة متى توغلوا في البحر وانقطع عنهم الشاطئ . وهكذا كان فلم ينجُ احد من هولاء الكهنة الثمانين بل قُتلوا جميعًا بعضهم

بحريق النار وبعضهم غرق في مياه البحر

فلما علمت الحبساء بالخطر الملم بكنيسة الشرق راوا من الواجب عليهم ان يبادروا الى مساعدتها حسب استطاعتهم فتركوا صوامعهم واتوا يشجعون اخوتهم على احتمال الاضطهاد وكان منهم حبيس جليل القدر بشيخوخته وقداسته قد شاهده الملك في المدينة فقال لهُ: اين تذهب ولمَ لا تمكث في صومعتك بل تطوف المدن وتهيج الشعوب على العصيان. اجابهُ الشيخ القديس بعزم صادر عن حماسة الغيرة وقال: ايها الملك انني مكثت في صومعتي ريثما كانت خراف الراعي السماوي راتعة في حدائق السلام واما الآن فحيث شاهدتها مضطربة والذئاب اوشكت ان تفترسها أيليق بي ان امكث هادئًا في خاوتي. فلو كنتُ ابنة قائمة في بيت ابي ونظرت انسانًا يلقي فيهِ نارًا ليحرقهُ أيسوغ لي ان استكن مرتاحة واحترق انا والبيت معًا ألا ينبغي عليَّ ان انهض وانادي العون واسكب ماء وافرغ جهدي في اطفاء النيران. فهذا ما اصنعهُ الآن فانك قد القيت النار في بيت الرب وشاهدتُ الحريقة من صومعتي فبادرت مجتهدًا في اطفائها: فلم يجب الملك بشيء على هذا الخطاب المملو حكمة والمشعر باعظم البسالة بل قد ظهر متلطفًا بماراثناسيوس اذ اجاز لهُ ان يعود الى كنيستهِ وذلك ليس لانهُ غير عزمهُ بل لخوفهِ من

ان يغيظ اخاه فالنتينيانوس الذي كان يحترم هذا الاسقف القديس . فرجع اثناسيوس الى الاسكندرية وبعد ما اشتهر بجاهداتهِ العديدة لاجل الايمان اذ نُفي خمس دفعات وعاد من المنفى خمساً قضى في هذه المدينة الست سنين الاخيرة من حياتهِ براحةٍ ثم رقد بسلام الرب رزقنا الله خير شفاعتهِ

الفصل الثالث والسبعون

في بسالة مار باسيليوس اسقف قيصارية

سنة ٣٧٠ للمسيح

اما فالنص فلم يزل مجدًّا في قيام المذهب الاريوسي في امصار حكمهِ فطاف بنفسهِ اقاليم كثيرة ليطرد منها الاساقفة الكاثوليكيين لكنهُ صادف محامين اشداء عن الحق من جملتهم مار باسيليوس اسقف قيصارية الكابدوك . فهذا القديس قد امتاز بين الاخرين جميعاً بشدة عزمهِ وجلدهِ فكان حصناً منيعاً تحطمت على جدرانهِ كافة مساعي الارطقة . فقبل ما ذهب الملك الى قيصارية ارسل اليهِ مودستوس رئيس جنودهِ ليأخذه بالخداع والتمليق . او على ما قل ليخوفهُ ويلزمهُ بان يقبل الاريوسيين في

شركتهِ . فارسل رئيس الجنود يطلب الاسقف المذكور وكان قد اتخذ كامل زينة مقامهِ الذي هو اعظم مقام في المملكة فجلس على كرسي محكمتهِ واحدقت بهِ حشمه مدججين بالسلاح فتقدم باسيليوس بهيئة الرزانة والرواق فاحتفل الوالي ملقاه اولاً وقبله باكرام ثم اخذ يلح عليهِ بكلام التمليق ليذعن لرغبة الملك ويشترك مع الاريوسيين فلما لم ينجح بهذه الطريقة اخذ يتوعده قائلاً لهُ بصوت الغضب : أتقاوم ملكاً هكذا عظيماً يخرّ العالم لاوامرهِ . ألا تخشى مفاعيل غضبهِ . أليس هو مسلطاً على مالك فيعريك منهُ وينفيك وينزع منك الحيوة نفسها : اجاب باسيليوس فقال: ان هذا الوعيد لا تاثير لهُ فيَّ لان من لا يملك شيئاً لا يمكنهُ ان يفقد شيئاً الاَّ ان شئتم ان تعروني من هذه الاطمار المزدري بها وتسلبوا مني بعض كتب هي كل غناي . اما المنفى فلا اعرفه بتةً لانني لست متعلقاً بمكان من الامكنة اصالةً فالارض كلها لله وهي كلها وطني او بالحري مكان غربتي وأمَّا الموت فلا اخشى منه اصلاً بل اعتبره نعمةً اذ اجوز بهِ الى الحيوة الحقيقية . فانا ميت عن هذه الحيوة الحاضرة منذ زمن مديد ولا تقدر العذابات ان تزعزعني لان جسدي على حالة من النحول والضعف لا يتعذب زماناً طويلاً بل ان الضربة الاولى التي تنزل عليَّ تعدمني الحيوة وتنهي عذاباتي

فتعجب الوالي من هذا الحديث اذ لم يكن قط سمع مثله وهو في البلاط الملوكي فقال: لم يخاطبني قط انسان بمثل هذه الجسارة: اجابهُ الاسقف: لانهُ لم يتوقع لك عمل مع اسقف: فلم يتماسك الوالي عن الاندهاش من عزم هذه النفس التي تسامت شهامتها على الوعد والوعيد. فمضى يخبر الملك بخيبة وكالتهِ قائلاً لهُ: ايها الملك ان هذا الرجل وحده قد غلبنا فلا تؤمل انك ترعبهُ بالتهديد ولا انك تكتسبه بالتمليق فلم يبقَ لك الاَّ طريقة الاغتصاب: اما الملك فلم يرَ موافقًا ان يبادر الى هذه الطريقة حينئذٍ لانهُ كان يخشى شعب قيصارية وكان يشعر في نفسهِ اضطراريًا بالمهابة لهذا الحبر القديس

الفصل الرابع والسبعون

في شجاعة امرأة مسيحية

وليس الاساقفة والكهنة فقط بل اناس من عامة المؤمنين ومن النساء ايضًا قد امتازوا بايمانهم وبسالتهم في هذا الاضطهاد الذي اثارهُ فالنص وهاك اثبات ذلك بحادث من جملة الحوادث العديدة الغريبة. قد كان هذا الملك نفى اسقف أُرفا

وهي مدينة قيبا بين النهرين بسبب تعلقهِ بايمان نيقيا واقام عليها اسقفًا اخر. وكلف الوالي مودستوس بان يجبر الكهنة والشمامسة على الاشتراك مع الاسقف الجديد والّا فينفيهم الى اقاصي المملكة فجمعهم مودستوس وحاول اقناعهم لكنهُ لم يستفد منهم شيئًا بل اجابهُ احدهم باسم الجميع قائلاً : ان لنا راعيًا شرعيًا ولا نعرف راعيًا غيره : فأرسلوا جميعًا الى المنفى . فتشجع الشعب بمثلهم وابوا الاشتراك مع اسقف الزور . فكانوا يخرجون من المدينة وقت تلاوة الفرض ويجتمعون في البرية للصلوة . فلما علم الملك بذلك اغتاظ على الوالي ووبخهُ توبيخًا شديدًا لعدم اهتمامهِ في منع هذه الاجتماعات وامره بان يجمع كل ما كان عندهُ من الجنود ويشتت بهم هذا الجمع اما مودستوس ولئن كان مقاومًا للكاثوليكيين الّا انهُ لم يحب ان يبادر الى طرائق القساوة فانذر المؤمنين سرًّا بالّا يمضوا اليوم التالي الى مكان الاجتماع للصلوة لان الملك امر بان يعاقب الذين يجتمعون فيهِ. فكان يؤمل بان يمنع بهذا التهديد عقد الاجتماع ويهدّئ بهذه الطريقة غضب الملك اما الكاثوليكيون فقد ازدادوا بذلك سرعةً وتلهفًا للمضي الى مكان الصلوة فبادروا اليهِ باكرًا جدًّا وكانوا اكثر عددًا من ذي قبل

فلما أُخبر الوالي بذلك استولت عليهِ الحيرة ولم يدرِ ما

العمل الاّ انهُ اخذ في السير نحو هذا المكان وصحبته جنود كثيرون امرهم بان يقعقعوا ويضجوا ليرعبوا الشعب ويوجبوه الى الفرار فلما كان جائزًا في المدينة شاهد امرأة مسكينة تخرج مسرعة من بيتها ولا تبالي بغلق بابهِ وعلى يديها طفل وهي تهرول في سيرها وتجرّ ذيل ردائها على الارض ولا تهتم ان ترفعه عن الثرا حسب طريقة البلاد ومرت هكذا في وسط صفوف العساكر السائرة امام الوالي مجدّة في السير بدون ادنى خوف بتة فارقبها مودستوس وقال لها : اين تمضين مسرعةً ايتها الامرأة : اجابته انني ماضية الى الحقول حيث جمع المؤمنين : قال لها الوالي : ألا تعلمين بانهُ قد صدر امر الملك بقتل جميع الذين يُوجدون هناك : قالت لهُ : نعم اعلم ولهذا انا اجدّ في السير لابلغ الى ذاك المكان خوفًا من ان تفوتني فرصة احتمال الاستشهاد : قال لها : ولِمَ تأخذين هذا الطفل معكِ : قالت لهُ : لكيما يشترك معي بهذا المجد : فتعجب مودستوس من بسالة هذه الامرأة وعاد الى البلاط الملوكي واخبر الملك بما جرى واقنعه بالعدول عن هذا العمل حيث لم يكن لهُ امل بالنجاح فيهِ ولا يكون لهُ شرف في عاقبتهِ فمن هذه الحادثة وحدها بيان كافٍ لما كانت عليهِ المؤمنون الاقدمون من البغض للانشقاق والنفور منهُ . اذ كانوا متيقظين لقول ربنا يسوع المسيح بان الخراف تتبع الراعي الحقيقي وتهرب

من الغريب : وقائمين بموجب هذا القول . فلبثوا متحدين اتحادًا غير منفك بالاسقف التي كانت ارسلته الكنيسة وكانوا مستعدين لان يضحوا ما كان اعز لديهم في الدنيا ويفقدوا حياتهم احرى من ان يشتركوا مع اسقف الزور

الفصل الخامس والسبعون

في ان فالنص قد ارتجف امام مار باسيليوس

لما كان الملك في قيصارية يوم عيد الغطاس ذهب الى الكنيسة الكبيرة ليحضر فيها القداس فدخل فيها مصحوبًا بمحافظي واسه لكيما يرعب الحبر القديس بهذا الموكب المهاب لكنه لما شاهد ذاك النظام الفاخر واحتشام ذاك الشعب الغفير ومهابة مار باسيليوس الذي قام منتصبًا على قدميهِ تجاه المقدس جامدًا منخفض النظر وعقله غائص في بحر التامل ثم تفرس خدام الاقداس الذين كانوا محدقين بهِ شبيهين بالملائكة تاثر بهذا المشهد الديني ولبث منذهلاً ومرتعدًا مهابةً الاَّ انهُ بعد ما استيقظ من دهشتهِ اراد ان يقدم هدية للكنيسة انما لم يتقدم احد من خدام البيعة ليقتبلها منهُ حسب العادة لانهم لم يكونوا يعلموا

ان كان مار باسيليوس يريد ان يقتبلها فحينئذٍ استولت رجفة شديدة على الملك بديهاً وارتخت ركبتاه واوشك ان يُلقى صريعاً على الارض لو لم يتقدم احد الكهنة ويسنده عالماً بضعفهِ فرأى الحبر القديس ان يلطف معهُ حينئذٍ صرامة التهذيب الكنائسي فتنازل مقتبلاً هديته . فلانت صلابة الملك وحاول ان يستميل اليهِ مار باسيليوس فارسل اليه ولاةً واناساً من قواد جيوشهِ ومن اعظم رجال دولتهِ اخيرًا قد جرى حديث بينه وبين الاسقف فخاطبه مار باسيليوس بطلاقة الحرية الرسولية بدون ان يخرج من حدود الاحترام والاداب بل الزم بالصمت احد اعوان الملك كان قد تواقح عليهِ متهددًا اياه بحضرة الملك . فلم يغتظ الملك من حديثهِ بل سرَّ بهِ وكانت نتيجته منفعة لهذا الحبر القديس اذ اكرم الملك عليهِ بعقارات لانشاء دير للمرضى في قيصارية

اما الاريوسيون فلم يزالوا يلازمونه بتكرار الوشايات على باسيليوس حتى قلبوه عما كان عليهِ من حسن الاستعداد نحو القديس وحملوه على نفيهِ فلما عزم على ذلك مرض ابنه بحمى شديدة عجزت الاطباء عن اشفائهِ . فتيقن الملك ان هذا المرض كان عقاباً لهُ عما كان قصده ضد مار باسيليوس . فارسل استدعاه اليهِ وحالما دخل القديس في البلاط الملوكي اخذ الولد يتوجه نحو الصحة فاكد لهم بانهُ لا يموت ان تعهدوا بتربيتهِ على اصول التعليم

الكاثوليكي فتعهد والداه فصلى عليهِ القديس فشفي . اما الملك فلم يقم بقولهِ بل سمح لاسقف اريوسي بان يعمد ابنه فعاد الولد بمرض ثم مات بعد برهة وجيزة ولم يرعوِ فالنص عن غيهِ بل حكم على باسيليوس مرة ثانية بالنفي ولما قصد امضاء الحكم انكسر القلم بيدهِ اولاً وثانياً وثالثاً فاخذته من ذلك رجفة هكذا شديدة حتى انهُ لم يعد يستطيع ان يرسم حرفاً واحداً بالكتابة اخيراً انزل الله غضبه على هذا الملك الاثيم المصر على اثمهِ فهلك في موقعة القتال واختفى فيها فلم يجدوا جثته فيظن بانهُ قد اصابه سهم فجرحه فحملوه الى كوخ حرقته الاعداء فيهِ

الفصل السادس والسبعون

في فضائل مارغريغوريوس النزينزي

وكان مار باسيليوس مقيداً برباط صداقة متين مع القديس غريغوريوس النزينزي وكان هذا يشبهه غيرةً على طهارة الايمان . وقد تصادقا مذ كانا يدرسان العلوم معاً في مدرسة اثينا ولم تزل تزداد الصداقة بينهما واستمرت الى نهاية حياتهما. قال مارغريغوريوس في بيان سبب هذا التوادّ المقدس اننا كنا نطلب كلانا كنزاً واحداً وهو الفضيلة وكنا نسعى في ان

يصير اتحادنا مؤيدًا بتأهبنا الى السعادة الخالدة وكان كلٌّ منا معلمًا ورقيبًا للاخر اذ كنا نحث احدنا الاخر على اتقان التقوى ولم يكن لنا ادنى معاشرة مع من كانوا من رفاقنا على فساد في الاداب بل كنا نعاشر فقط من كانوا قادرين على مساعدتنا في عمل الخير باحتشامهم وحسن تهذيبهم وحكمتهم عالمين بان الامثال الرديئة تشبه الاوبئة التي تعدي من يقترب اليها . ولم نكن نعرف في اثينا الأ طريقين وهما طريق الكنيسة وطريق المدرسة وكنا نجهل على الاطلاق الطرقات المؤدية الى الملاعب والمراسح العالمية (انتهى قوله) . لعمري ما من احسن من هذين القديسين نموذجًا للشبان . طوبى لمن كانوا في ريعان العمر ولا يترابطون بصداقة الاّ ليتواطئوا على اتقان الفضيلة ويعقلوا منذ صباهم بطلان ملاذ العالم ومتنزهاته

فقضى مار غريغوريوس النزينزي اكثر ايام حياته في الاختلاء لانهُ كان راغبًا كثيرًا في هذه السيرة فلما أُخرج من خلوته بلجاجة صديقهِ المبرمة ورُقي رغمًا عنهُ الى الاسقفية أُرسل الى القسطنطينية في نواحي سنة ٣٧٩ ليسوس هذه الكنيسة ويناصب المذهب الاريوسي الذي كان وقتئذٍ مستوليًا على هذه المدينة الكبيرة . فكانت تقواه وعلمه وبلاغته تنبئ عن نجاح عمله . فحارب الارطقة في نفس مسكن الملوك الذين كانوا

يعضدونها . ولم يقاوم كافة المعاملات السيئة التي كان يتكبدها
الا بالصبر والوداعة . وكان يحب الجميع محبة عظمى بينما كان
يستسير سيرة قشفة جدًّا متحبًّا امامه تعالى في اعماق ضميره ومتاهبًا
لمباشرة الخدمة المقدسة بالصلوة والهذيذ بالكتب المقدسة . فهذه
السيرة اللائقة حقًّا بالدرجة الاسقفية اكسبته بزمن وجيز مودة
سكان القسطنطينية فتقدموا مذ ذاك بالاعتبار والاكرام
والاحترام لهذا الرجل القديس العلامة . فكان اعجوبة لكامل
المدينة بمعرفتهِ الثاقبة في الكتب المقدسة وسداد برهانهِ المفحم
واتساع تصورهِ وطلاوتهِ ونقاحة انشائهِ وتحكيمهِ . فناضل عن
الحق ظافرًا وافاد الناس مثالًا صالحًا بفضائله لكن قد اضطر
من جهة اخرى الى ان يلازم خلوته لما ثار عليهِ من المضادات
لقلة مجاراتهِ عظماء العالم على غاياتهم ولحسد الناس اياه لاجل
مناقبهِ الجليلة فاسرع بالبدار الى خلوتهِ وذاق فيها اعظم اللذات
الروحية كما قرر هو نفسه الى احد اصدقائهِ قائلًا : لا يمكنني ان
اقدّر تمام السعادة التي يسرتها لي اعدائي بحسدهم اياي لانهم
قد انتشلوني من اتون الاحتراق بانقاذهم اياي من اخطار
الاسقفية : فاكثر تآليف هذا القديس العلامة خطبه التي بلغت
الينا . فلم يُصنف قول بتةً يفوقها سموًا وجلالًا ولياقةً بعظمة
اسرارنا المقدسة ومن ثم قد استحقت له ان يلقب باللاهوتي اكتفاء

الفصل السابع والسبعون

في ارطقة المكدونيين

وقد انتهى بهلاك فالنص ما كان يبديه المذهب الاريوسي من الدمار في اقطار المشرق وذلك لاستناده على السلطة الملوكية ولكن قد انبعث من جوف هذه الارطقة ارطقة اخرى لم تكن اقل مناقضةً للثالوث الاقدس فكانت تنكر الوهية الروح القدس وكان منشئها مكدونيوس وهو نصف اريوسي قد اختلس كرسي القسطنطينية واحتجب مدة سنين عديدة تحت رداء المذهب الاريوسي ولم تكن له شهرة خصوصية في بهرة الاتجاس التي احدثها الاريوسيون ومع ذلك قد تنبه مار اثناسيوس الى هذه الارطقة منذ بداية حكم فالنص اذ لم يكن يغباه شيء مما يلاحظ الايمان وكان قد الف مقالة خصوصية لدحضها فاثبت هذا القديس العلامة في مؤلفهِ ان الكنيسة امنت وعلمت في كل ابن وآن ان الله سبحانه فيهِ ثلثة اقانيم وان هذه الثلثة لهم جوهر واحد بعينهِ وانهم اله واحد ثم ابان سندًا على ايات الكتاب المقدس ان الروح القدس هو الله وان كل ما ينسب اليهِ لا يليق الّا بالله وحده ككونه مقدسًا ومحييًا وصمدًا وعديم القياس ثم قرر في اخر مقالتهِ انه لم يقل شيئًا الّا ما

تعليمة الرسل. فلما شرع الاريوسيون بالانحطاط عما كانوا عليهِ من الاعتبار والنفوذ اخذ المكدونيون يتأيدون ويستبدون بمهلم فكانوا يتظاهرون باداب مرتبة وبظواهر التعقل وبسيرة التقشف وحيث من دأب الشعب ان يغوى بهذا التدين الظاهر قام المكدونيون بشيعة وكثر حزبهم في القسطنطينية ثم امتدت هذه الارطقة الى تراسيا في بيثينيا

فكان ثاودوسيوس الملك خلف فالنص فبذل جهده في بداية ملكه في توقيف سير الضلال وكان هذا الملك قد استحق باعمالهِ الباهرة الجليلة لاسيا بحسن تدينهِ ومحبتهِ للكنيسة ان يلقب بالكبير فعقب اعتماده بمدة يسيرة سنّ سنةً شهيرة عين بها الاشتراك مع الكنيسة علامةً اكيدة تدل على الكثلكة فقال: اننا نريد بان جميع الشعوب الخاضعين لولايتنا يتمسكون بالديانة التي علمها هامة الرسل للرومانيين والتي يتمسك بها الآن الحبر الاعظم داماروس فنؤمن بناء على تعليم الانجيل والتعاليم الرسولية بالوهية واحدة للآب والابن والروح القدس وبعظمة واحدة متساوية في ثالوث واحد يحق له التعبد. ونأمر بان المتمسكين بعروة هذا التعليم الطاهر يدعون كاثوليكيين وغيرهم الذين مرذل كفرهم الموعب وقاحةً وحمقاً يتسمون باسم اراطقة اسم للعار والخزي وان جماعاتهم لا تشرف قط بلقب كنيسة (انتهى

قوله) فبالحقيقة ان الايمان الكاثوليكي هو الايمان الذي علمهُ يسوع المسيح وانذرت بهِ الرسل وحفظتهُ الاباء . والكنيسة مبنية على هذا الايمان فاي من انفصل عنها ليس هو بكاثوليكي قطعاً . فاننا نخزي جميع الاراطقة اكيداً ببياننا لهم ان تعليمهم لا يأتي من ينبوع الحق بل انهُ مستجد . فالتعليم الحقيقي هو اقدم من الارطقات لان الرسل اقدم من منشئ الشيع فالحق سابق للضلال و بالتالي ان التعليم الالهي حقيقةً هو التعليم المقبول اولاً والتعليم الذي ينشأ بعدهُ هو كاذب وغريب

الفصل الثامن والسبعون

في المجمع القسطنطيني المسكوني

سنة ٣٨١ للمسيح

اما ثاودوسيوس فكان يعلم بان الحاجة تمسّ ايضاً الى شيءٍ اخر غير النظام الملوكي لقيام الاتحاد في الاعتقاد فحال ما تبوأ سرير الملك عزم على عقد مجمع من كافة اساقفة ملكه اقتفاءً باثر قسطنطين الكبير . لكنه كان منتظراً الهدو والسلم في مملكته لاتمام هذا المشروع فكتب اذاً الى جميع اساقفة الشرق يدعوهم

الى القسطنطينية التي اختارها محلاً للاجتماع لانهُ كان يروم ان يحضره ورتب من خزينتهِ ما يلزم من النفقة والمأوى للاساقفة فلم يكن ثاودوسيوس اقل كرماً مما كان قسطنطين نحو اباء مجمع نيقيا . فبادرت الاساقفة من كامل امصار الشرق وكان عددهم مائة وخمسين اسقفاً . وقد تعين مالاتيوس اسقف انطاكية للتصدر في هذا المجمع الجليل وكان الملك يرغب كثيراً ان يعرفهُ لشهرة قداستهِ ولكونه رآه في الحلم يقدم لهُ اي للملك البرفير بيدٍ والتاج بالاخرى وكان الملك يعظم شأنهُ كثيراً مذ ذاك الحين ولو لم ينظره . فحال ما وصلت الاساقفة مضوا جميعهم معاً يقدمون التحية للملك فاراد ان يمتحن هل يعرف مالاتيوس بينهم فنهاهم عن ان يدلوه عليهِ . وحيث بقت هيئة هذا الاسقف الجليل الذي ظهر لهُ في الحلم مطبوعة في عقلهِ ميزه من بين الجمهور فبادر اليهِ وصافحهُ بوداد ووقار وقبل يده التي كانت توّجتهُ سلفاً في المنام ثم سأل الاساقفة ان يعتمدوا على احسن الطرائق الموافقة لترجيع السلم للكنيسة ووعدهم بان يعضدهم بكامل سلطانه

فكان افتتاح المجمع باحتفال عظيم فحاولوا اولاً ترجيع المكدونيين الى الحق وحرضهم ثاودوروس نفسه على ان يعودوا الى ايمان الكنيسة وشركتها لكنهم ابوا واصروا على غيهم وخرجوا

من المجمع فحينئذٍ عاملهم المجمع معاملة الاراطقة المشتهرين فقرَّر مراسيم المجمع النيقاوي واثبت قانون ايمانهِ واضاف اليه فقط بعض اقوال لايضاح ما كان يتضمنه سابقًا في ما يتعلَّق بامر تجسد ابن الله والوهيّة الروح القدس . فعندما تكلم هذا القانون عن التجسد كان يقول فقط : نزل من السماء وتجسد وصار انسانًا وتألم وقام اليوم الثالث وصعد الى السماوات وسيأتي ليدين الاحياء والاموات : اما قانون المجمع القسطنطيني فقال : نزل من السماوات وتجسد بالروح القدس من مريم العذراء وتأنس وصُلب لاجلنا على عهد بيلاطوس البنطي وتألم وقبر وقام اليوم الثالث كما في الكتب وصعد الى السماوات وجلس عن يمين الاب وايضًا يأتي بمجد عظيم ليدين الاحياء والاموات وليس لملكهِ انقضاء : ونظرًا الى الاقنوم الثالث من الثالوث الاقدس لم يوضح المجمع النيقاوي الايمان بهِ الا بهذه الالفاظ : نؤمن بروح القدس : فالمجمع القسطنطيني اضاف اليهِ ردعًا للمكدونيين قائلاً : نؤمن بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الاب . الذي هو مع الاب والابن يسجد لهُ ويُمجد . الناطق بالانبياء : فقبل ثاودوسيوس هذا الحكم كانهُ خرج من فم الله نفسهِ وسنَّ سنةً يأمر فيها باجراء ما رتبه المجمع . ولكن هذا المجمع لم يكن مؤلفًا الا من اساقفة الشرق فتثبيت البابا اياه فيما بعد

يجعله ان يُعرَّف مجمعًا تيبليًا اي عامًا

الفصل التاسع والسبعون

في حلم ثاودوسيوس

سنة ٣٨٧ للمسيح

ان ثاودوسيوس كان حادّ الطباع وسريع الاحتدام لكنه كان يكظم حدة اخلاقه والتقوى المجمل بها تكبح شدة غضبهِ. فحدث سجس عظيم في مدينة انطاكية بعلة فريضة مال رُسمت على سكان هذه المدينة. فالشعب في ثورة غضبهِ رمى تمثالي الملكة والملك من محليهما واخذ يجرهما في الازقة باهانة فلما اخبر الملك عن هذه المعصية ثارت فيه حمية الغيظ وعمد باول حركة الغضب على ان يخرب المدينة ويدفن اهاليها تحت ردمها. ولكنهُ لما عاد الى الهدوء والسكينة عين معتمدَين من قِبلهِ ليبحثا عن المذنبين وفوضهما بقتلهم وكان شعب انطاكية في ذاك الحين استفاق من جهالتهِ وشعر بجسامة معصيتهِ وكان مرتعدًا فرقًا بانتظار حلول العقاب عليهِ وجميع سكان المدينة لم يكونوا يجراوا على الخروج من المدينة بل كانوا ينتظرون الموت فيها

بين اشد المخاوف المتواصلة وكان فلافيانوس اسقف انطاكية متعذبًا بامرّ الاوجاع واحشاؤه متفطرة باشد الغموم والكروب ويقضي النهارات والليالي منتحبًا امامهُ تعالى وطالبًا اليهِ ان يلين قلب هذا الملك على شعبهِ . اخيرًا ذهب هذا الشيخ الجليل بقداستهِ وسنهِ الى الملك يلتمس منه الصفح عن شعبه

فلما ظهر امام ثاودوسيوس وقف اولاً عن بعد طارقًا بصره في الارض كانه حامل وحده ذنب جميع اولادهِ . فلما نظره الملك حزينًا كئيبًا دنا منه واخذ يذكره بجميع الاحسانات التي غمر بها مدينة انطاكية وكان على ذكر كل منها يقول : اهذا هو جزاء احساني اهانة واحتقار . فتاثر فلافيانوس من هذه التوبيخات المحقة وتنهد الصعداء قائلاً : ايها الملك اننا لمستوجبون كل عذاب . اهدم انطاكية من اساساتها واحرقها واجعلها رمادًا . وهذا قليل علينا عقابًا انما يوجد علاج لجميع هذه الاسواء فلك ان تقتفي باثر جوديهِ تعالى فانه لما اهانته خليقته قد غفر لها وفتح لها ابواب السماء فان صفحت عن ذنبنا كان خلاصنا دينًا لك علينا اما رحمتك فتزيد مجدك بهاء وتتعجب الكفرة ويقولون ما اعظم اله النصارى فانه يرقي الناس الى ما فوق الطبيعة ويصيرهم شبيهين بالملائكة . فلا تخشينَّ ايها الملك من ان باقي المدن تطمع بالشر اذا ما عفوت عنا واحسرتاه ان حالتنا هذه الشقية قد ملأتهم رعبةً

لان الخوف المحدق بنا هو امرٌ من كافة العذابات . فلا تستحِ من التنازل لرضاء شيخ ضعيف فانك ان تنازلت وقبلت طلبه فالله نفسه تتنازل لانه تعالى قد ارسلني لاقدم لك الانجيل واقول لك باسمهِ ان لم تغفروا للناس سيئاتهم فلا ابوكم السماوي يغفر لكم زلاتكم . اذكر ايها الملك ذاك اليوم الرهيب المزمع ان تظهر فيهِ الملوك والرعايا امام منبر الديان العادل وتصور ان جميع اثامك تكون مغفورة حينئذٍ ان غفرت لنا

فرق ثاودوسيوس قلبه من هذا الخطاب حتى هطلت الدموع من عينيهِ فاجاب : ايسوغ لي ان أبي الصفح عن اناس مثلي بعد ان رب العالم قد لاشى ذاته واتخذ صورة العبد وسال اباه الصفح عن معذبيه الذين غمرهم باحساناتهِ: ثم اطلق الاسقف القديس الى شعبه قائلاً لهُ : امضِ يا ابني الى رعيتك وطمئن مدينة انطاكية فانها لا تطمئن بالتمام بعد هذه الزوبعة الشديدة حتى تشاهد راعيها

الفصل الثمانون

في سقطة ثاودوسيوس وتوبتهِ

سنة ٣٨٩ للمسيح

اما ثاودوسيوس فقد نسي ما كان ابداه من الرأفة واللطف في امر انطاكية بعد مدة واسلم قلبه الى الغضب الشديد في واقعة اخرى وهي ان مدينة تسالونيقيا قد كانت رفعت راية العصاوة وثار فيها سجس عظيم قُتل فيهِ واليها فلما بلغ خبرها الى الملك تسعرت نيران الغضب في احشائهِ فامر حالاً بقتل سكان هذه المدينة بدون اعفاء عن الابرياء. فهلك منهم سبعة الاف نفس وكان ثاودوسيوس وقتئذٍ في ميلان. فكتب مار امبروسيوس اسقف هذه المدينة للملك يبين له جسامة اثمه لبرعوي عنه وختم القول له بتحريضه اياه على تمحيضه بالتوبة والاَّ فيمنعه من حضور الاسرار المقدسة. اما ثاودوسيوس فلم يزل مع ذلك يمضي الى الكنيسة فالتقاه القديس الاسقف على الطريق وقال له: قف مكانك ايها الملك فانك لا تشعر بعد بفظاعة اثمك. امعن التبصر بهِ. الك عينان تنظران الهيكل المقدس بعد هذا الجور المريع. وكيف تدخل مقدس الله الرهيب

ويداك مضمخنان بدم زكي . افتجاسر ان تتناول جسد الرب .
ابتعد ايها الملك عن المائدة المقدسة ولا تزيدنَّ النفاق على قتل
نفوس كثيرة ارتكبته : ولما كان الملك يعتذر عن ذنبهِ بمثل
الملك داود الذي اجرم بالفسق والقتل . اجابه امبروسيوس
وقال : قد ماثلته باثمهِ فعليك ان تماثله بتوبتهِ

فقبل ثاودوسيوس هذا الحكم عليهِ كأنّه بارز من فم العلي
نفسه ومضى الى بلاطهِ وهو يتنهد الصعداء توبةً عن ذنبه وبقي
منزوياً في مخدعهِ ثمانية اشهر . ولما دنا عيد الميلاد تضاعف توجع
قلبه فقال : واحسرتاه ايكون هيكل الرب مفتوحاً بابه لاسافل
رعاياي ومغلوقاً عني : فذهب لا الى الكنيسة بل الى مخدع
مجاورها وهناك التمس من الاسقف ان يحله من اثامهِ فاعلن لهُ
امبروسيوس بان لا يسوغ لهُ ان يحضر الاسرار المقدسة ما لم يقم
بوفاء القانون المشتهر . فقبل ثاودوسيوس بهذا الشرط ثم طلب
الاسقف منه ايضاً ان يسن سنةً يتوقف بموجبها اجراء الحكم
بالقتل على المجرمين مدة ثلاثين يوماً وفي الحال امر بكتابة هذه
الشريعة وامضاها ووعد باجرائها فحينئذٍ شفق مار امبروسيوس
عليهِ لحسن طاعتهِ وحرارة ايمانهِ فرفع عنه الحرم واجاز لهُ الدخول
في الكنيسة . فدخلها وجثا على ركبتيه وعيناه تذرفان الدموع
ويقول بصوت عالٍ ما كان يقوله داود النبي لدى توبته : قد

لصقت نفسي بالتراب احيني يا رب حسب وعدك : فتخشع الشعب من هذا النموذج العظيم وكان يرافقه بصلاته وبكائه . فهذا الملك ذو الشوكة المقتدرة الذي كان غضبه يرعب المملكة باسرها كان وقتئذٍ يحرك القلوب بعواطف التشفق والتوجع عليه . اما مار امبروسيوس فقد تشفق عليه اكثر من الجميع ومن ثم رأى في هذه الحادثة ان يلطف صرامة القوانين المألوفة التي لم تكن تمنح الا عند الموت نعمة المصالحة لاجل ذنب القتل المتعمد . فهذا التائب الشريف قد نال هذه النعمة ونال معها زيادة التوجع على اثمه وبقي متقلبًا فيه باقي ايام حياته وكانت ثمانية سنين منذ هذه الحادثة الغريبة . ولم يزل ذكر هذا الملك محفوفًا بالاكرام في الكنيسة وتقدمه الكتبة الكنائسيون والمجامع نموذجًا للملوك المسيحيين

الفصل الحادي والثمانون

في انشقاق الدوناتيستيين

ان انشقاق الدوناتيستيين الذي اوعب كنيسة قرطاجنة حزنًا كانت بدايته منذ عهد الملك قسطنطين لكنه لم يكن

في ابتدائهِ سوى شرارة نار قد اضطرمت فيما بعد واشتد سعيرها حتى امست حراقة كبيرة فكانت بداية المسئلة في هل ان سسيليانس اسقف قرطاجنة كانت سيامته شرعية او لا فبعض الاساقفة وامامهم دوناتوس زعموا بانها غير شرعية وانفصلوا عن الاشتراك معه . فرُفعت الدعوى الى البابا فحكم بصحة رسامة سسيليانس وبرَّأه من كل وصمة وقد تعزز هذا الحكم فيما بعد بامر الملك قسطنطين . اما دوناتوس ومحازبوه فابوا ان يخضعوا لهُ واصرّوا على ابائهم واشادوا مذبحاً ضد مذبح اذ ساموا اسقفاً اخر على قرطاجنة وارسلوا رسائل الى جميع جهات افريقية ليحوّلوا المؤمنين عن الاشتراك مع سسيليانس فاتى هذا الانشقاق التعيس باسواء مريعة في افريقية

فالحرم الذي تطعن بهِ الكنيسة اولادها العصاة لم يردع الدوناتيستيين عن غيهم بل كانوا يسعون في فصل نفوسهم عن الكنيسة وقيامهم جمهوراً لوحدهم فلم يكن للحرم فعل في اناس كان ذنبهم قائماً في فسخ وحدة الكنيسة فازداد حزبهم رويداً رويداً حتى صاروا جمهوراً كبيراً ولما رأوا نفوسهم اقوياء اخذوا بالظلم والقهر قساوة وتوحشاً ولكان يعسر حقاً تصديق هذه الفظائع لو لم يعلمنا الاختبار من عوائد روح الارطقة والانشقاق ان يحمل اصحابه على ارتكاب اقبح القبائح وبالحقيقة ان عناد

الدوناتيستيين قد اتصل الى الاستجان فكانوا يستولون على الكنائس بالسيف ويطردون الاساقفة ويهدمون المذابح ويكسرون الانية المقدسة وقد بلغ من كفرهم الى ان اعادوا قهرًا عماد الذين تعمدوا خارج شيعتهم كأن الكنيسة قد هلكت في المسكونة ولم يبقَ لها وجود الاّ في زاوية صغيرة في افريقية يسكنها حزب هولاء الاشقياء. ولما كان الناس يأبون قبول عماد ثانٍ من ايديهم فكان جزاء الأبين اهانات وتعزيرًا شديدًا. ولم يكتفِ هولاء الروافض بان يثخنوا جراحًا من كانوا يأبون الاذعان لهم بل بلغوا بالتوحش الى ان جعلوا في عيونهم كلسًا وخلاً. وقد أُخبر انهُ في واقعة واحدة قد اعادوا العماد لثمانية واربعين شخصًا لم يطيقوا هذا العذاب بل انغلبوا لهُ فشلاً

اما الاساقفة الكاثوليكيون فلم يقاوموا في البداية قساوة المشاقين الوحشية الاّ بالوداعة والصبر وكانوا يأملون ان يكتسبوهم بهذه الواسطة فمار اغوسطينوس اسقف هيبون الذي اشتهر كثيرًا فيما بعد افرغ جهده في ترجيعهم الى الصواب لكي يعيدهم الى شركة الكنيسة فرجّع كثيرين منهم اما الباقون فازدادوا حنقًا ونصبوا مكائد للقديس حينما كان ذاهبًا ليفتقد الجماعات الكاثوليكية. فاوشك ذات يوم ان يقع بين ايديهم ولكان قُتل لامحالة لولم يضلّ قائدهُ عن الطريق حيث كان

هولاء الاشرار كامنين له . ولما كانوا يزدادون قحة وجورًا يومًا فيومًا رأت الاساقفة الكاثوليكيون ان يلتمسوا حماية الملك فسنّ سنةً تمنع هولاء المشاقين تحت طائلة عقاب الموت من عقد اجتماعات مشتهرة

الفصل الثاني والثمانون

في مذاكرة قرطاجنة الشهيرة ونهاية الانشقاق

سنة ٤١١ للمسيح

اما الاساقفة الكاثوليكيون فكانوا يهتمون في ردّ الدوناتيستيين الى الصواب اكثر من معاقبتهم فتوسلوا الى الملك ان يتصرف معهم بطرائق اللطف ليعيدهم الى حضن الكنيسة . فاعرضوا طريقة المباحثة في هذا الاختلاف فاستحسنها الملك وابرز امرًا لجميع اساقفة افريقية الكاثوليكيين والدوناتيستيين بأن يجتمعوا في قرطاجنة لكيما يُختار اساقفة من الطرفين ويتباحثوا معًا في المسئلة وفوّض الملك مرشالينوس وكيل الشعب بالمحافظة على النظام والهدوء في ميدان الجدال . ففي اليوم السادس عشر من ايار سنة ٤١١ عقدت هذه الجمعية الشهيرة واختار كل فريق

سبعة اساقفة من حزبهِ للمجادلة واربعة كتبة كتائسيين يسجلون
قول الطرفين ولزيادة الامن من التحريف قد اقيم اربعة
اساقفة منْ الطرفين يناظرون على المسجلين. فلما ترتب كل شيء
برزت الاساقفة في ميدان الجدال اما الكاثوليكيون فابدوا
نموذجاً عجيباً في الرواق والتنازل فاشرطوا على نفوسهم بالقول
والكتابة قائلين ان افحمتنا اخصامنا بالحجة تنازلنا لهم
عن كراسينا واجلسناهم فيها وقمنا تحت تدبيرهم واما ان افحمنا
الدوناتيستيين واتحدوا بالكنيسة اشركناهم بشرف الاسقفية: وقد
تمادوا بالجودة متعهدين بقولهم: ان شق على المؤمنين ان يشاهدوا
اسقفين جالسين على كرسي كنيسة واحدة معاً خلافاً للعادة
المالوفة اعتزلنا عن الاسقفية واخلينا الكرسي لهم. فيكفينا لاجل
خلاصنا ان نكون مسيحيين لاننا نسام اساقفة لاجل الشعب فان
كان من تنزُلنا فائدة للمؤمنين رضينا بهِ طوعاً واختياراً: فمن
العجب ان ما بين نحو ثلثمائة اسقف كاثوليكي لم يوجد الا اثنان
فقط لم يعجبهم هذا التعهد العجيب ومع ذلك رجعا حالاً فدخلا في
الارتباط مع باقي جمهور الاساقفة وكان مار اغوسطينوس الذي
سعى في انشاء هذه المذاكرة ليس فقط احد السبعة الاساقفة الذين
اختارهم الكاثوليكيون للمدافعة عن دعوى الكنيسة بل قد القت
الستة الاخرون عليهِ الاهتمام بالمجاوبة على مماحكات

الدوناتيستيين

فقد تم كل شيء في هذه الجمعية بكامل النظام والترتيب واثبت مار اغوسطينوس جليًا بان ما من علة شرعية توجب الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية بل ان الانقطاع عن وحدتها اثم جسيم وانهُ ينبغي على الانسان ان يكون في حضن الكنيسة ليخلص والاَّ فلا رجاء لهُ بالخلاص مطلقًا اذ لا يوجد خارجًا عن هذه الكنيسة الوحيدة لا قداسة حقيقية ولا برارة حقيقية وان الكنيسة الحقيقية التي هي وحدها عروسة يسوع المسيح هي ممتدة في اربعة اقطار المسكونة حسب وعده تعالى وليست بمنحصرة في زاوية من زوايا افريقية (او غيرها من البلدان) وانها على الارض مختلطة من الاخيار والاشرار وانهُ لا ينبغي حقًّا الاشتراك مع الاشرار باثامهم بل لا يجب الانفصال عنهم خارجًا. فبارك الله غيرة هذا القديس العلامة والمشاقون الذين بقي فيهم طلل من حب الحق والشعوب الذين بلغهم ما جرى في هذه الجمعية الشهيرة فتحوا عيونهم للنور واخذوا مذ ذاك يرجعون افواجًا الى الكنيسة فيتحدون بها

الفصل الثالث والثمانون

في ارطقة البيلاجيين

سنة ٤١٢ للمسيح

وبينما كان انشقاق الدوناتيستيين ينطفى رويدًا رويدًا الى ان زال من الكنيسة ظهرت لها اعداء جدد قاتلوها مقاتلات مستطيلة وذات اخطار واهوال فكان بيلاجيوس امامهم ولد في انكلترا وصار رئيس هذا الحزب المنسوب اليهِ. وكان على جانب كبير من المكر والحيل والرياء يعرف ان يبدل كلامه بدون ان يغير رأيه فأتى رومية ونفث فيها سرًا سم تعليم حديث ينكر فيهِ وجود الخطية الاصلية وضرورة نعمة الفادي فلم يتجرأ اولاً على ايضاح هذه البدعة جهارًا لئلا تمجها العقول لمضادتها الاعتقاد القديم العام لكنهُ كان يعبر عن اضاليلهِ بالفاظ ملتبسة لكي يؤهب الاذهان بالتمادي لقبولها فتلمذ لهُ رجلاً يقال لهُ سالستيوس وكان لهُ عونًا كبيرًا في تنجيح هذه الشيعة الكفرية ولما كان هذا اشد قحة من معلمهِ واكثر همة منهُ مضى الى افريقية وعلم فيها بدون تعارج خلافًا لتعليم الرسول مار بولس ان خطية ابينا الاول لم تتصل الى ذريتهِ وان الانسان يستطيع

بدون نعمة باطنة بل بمجرد قواه الطبيعية ان يتم وصايا الله ٠ فهذه البدعة الشنيعة اثارت بلابل كثيرة فدحضها مار اغوسطينوس دحضاً سديداً في مؤلفاتهِ واثبت بايات صريحة من الكتاب المقدس وبالمعمودية التي تمنح للاطفال باننا نولد مجرمين بخطية ابينا الاول ٠ وقد ابان من الصلوة التي علمناها الرب يسوع احتياجنا الى نعمة تتداركنا وتعين ارادتنا في كل ما نفعله مفيداً للخلاص فشُجب اذاً سالستيوس في قرطاجنة وأُعدِم الاشتراك الكنائسي

وقد كان بيلاجيوس وقتئذٍ حضر الى فلسطين وبلغ من مكرهِ واكاذيبهِ الى ان خدع اساقفة تلك البلاد فازداد عتوًا من ذلك وارسل لمار اغوسطينوسْ رسالة يحامي فيها عن بدعتهِ ويتباهى بما كان من الحكم على تعليمهِ في الشرق فحركت هذه المعثرة غيرة اساقفة افريقيا فعقدوا مجمعين احدهما في قرطاجنة والآخر في ميلاف وحددوا فيهما طبقًا للايمان الكاثوليكي ان خطية ادم قد اتصلت الى اولادهِ واننا لا نستطيع ان ناتي بخير فائق الطبيعة او مفيد للخلاص بدون نعمة باطنة تلهمنا الى حسن الارادة وكتبت اباء هذَين المجمعين الى البابا مار اينوشنسيوس يلتمسون منه تثبيت هذا الحكم بسلطان الكرسي الرسولي فاجاب الحبر الاعظم الى رسائل اساقفة افريقيا السينودسية مادحًا

غيرتهم على حفظ طهارة الايمان و وطد توطيداً متيناً التعليم القديم في شأن الخطية الاصلية وضرورة النعمة لكامل افعال التقوى المسيحية وحرم بيلاجيوس وشالستيوس وتبعتهما حرماً رسمياً وصرّح بانهم مقطوعون من شركة الكنيسة ما لم يرعووا عن اضاليلهم : فعقب حكم البابا هذا قد عدّ مار اغوسطينوس الدعوى منهية اذ قال : تكلمت رومية وقد أُرسل حكم اساقفة افريقية الى الكرسي الرسولي واتت رسائل البابا تثبته . فالدعوى قد انتهت عسى ان ينتهي الضلال ايضاً

الفصل الرابع والثمانون

في دسائس البيلاجيين وعنادهم

اما رغبة مار اغوسطينوس هذه فلم تتم لان الضلال لم يزل قائماً مع الحرم الذي انزل عليه فاخذ بيلاجيوس والقائلون بقولهِ يهتمون ليس بالخضوع للحكم الذي اخرج عليهم بل في ان يمحوا عنهم العار الذي التحق بهم من هذا الحكم فكان قد توفي اينوشنسيوس النسيب حرمهم فكتب بيلاجيوس كتابة مشعرة بوفور الوقار الى خليفتهِ البابا زوزيموس يبرئ نفسه فيها ومضى

ثالستيوس نفسهُ الى رومية وقدم لهُ صورة ايمان ملتبسة واعدًا بان يرذل ما يرذله الكرسي الرسولي فاكتفى البابا الجديد بان يطارحه ببعض اسئلة قد اجاب عليها بظواهر الخلوص والاستقامة المستتر بها المكر والخداع فلم يتمادَ البابا بالتحذر منهُ الى اكثر من ذلك بل حكم بانهُ بريٌّ لا كانهُ استصوب اضاليله انما لكون هذا المنافق قد كان صرَّح بخضوعهِ لحكم الكرسي الرسولي فكتب زوزيموس رسالة الى اساقفة افريقية يوضح فيها اقتناعه باخلاص بيلاجيوس وبلومهم بنوع ما على كيفية تصرفهم مع هذا المبدع لكنهُ لم يأتِ بكلمة ما تؤيد تعليمه الكاذب

فلما بلغت هذه الرسالة الى افريقية عرف الاساقفة ان البابا قد خدعهُ هولاء الماكرون فاسرعوا في عقد مجمع جديد فوجد فيهِ مائتان واربعة عشر اسقفًا . فاتوا ببيان صريح لهذه المسئلة واوضحوا كل ما كان جرى في افريقية وابانوا السم المكنون في صور ايمان هولاء الاراطقة وحيلهم ورسموا قوانين عقيدية ارسلوها الى رومية مع رسالة من المجمع هذا مآلها : ان الحكم الذي ابرزه اينوشنسيوس ضد بيلاجيوس وسالستيوس لايزال على مفعولهِ حتى يعترفا صريحًا بان نعمة يسوع المسيح ضرورية لان تعيننا ليس فقط على معرفة قوانين البرّ في كل فعل نفعله بل على اتباعها ايضًا بنوع اننا لا نستطيع بدون هذا المددان

ننال او نفتكر او نصنع او نقول شيئاً يختص بالتقوى ولا يكفي ان شالستيوس يخضع لحكم الكرسي خضوعاً مبهماً بل يُطلب منهُ ان يحرم بدون ادنى التباس او ابهام ما هو مشبوه في مؤلفهِ لئلا يظن الكثيرون بان المبدع لم يقلع عن اضاليلهِ بل ان الكرسي المقدس قد استصوبها (انتهى) . فجاء هذا الاعتراض في محل القبول لدى الكرسي الرسولي وفحص البابا زوزيموس كل شيء بتدقيق ولما تيقن ما كان عليهِ شالستيوس من سوء النية اخرج حكماً يثبت احكام اساقفة افريقية ويحرم بيلاجيوس وتبعته . فقبل العالم المسيحي باسره هذا الحكم بكل احترام ووقار . ورأوا حينئذٍ ما اقل صدق الاراطقة في تعهداتهم بالطاعة قبل اطلاق الحرم عليهم فاستغاث البيلاجيون من حكم البابا هذا الى المجمع العام اما مار اغوسطينوس فاثبت ان هذه الاستغاثة محمولة على الغرور وان الكنيسة اذا اجتمعت فلا تصنع شيئاً اخر الا ان تثبت ما حكمت بهِ اساقفة افريقية المتحدين مع البابا وان الارطقة قد حُرمت حرماً كافياً ولم يبقَ داعٍ لفحصها بل ينبغي ردعها . فأيد الملك اونوريوس حينئذٍ هذا الحكم واخرج حكماً بعقاب النفي للذين يصرون على تأييد الاضاليل المحرومة

الفصل الخامس والثمانون

في ضلال النصف بيلاجيين

فلما انزلت صواعق الحرم على ارطقة بيلاجيوس سقطت وفنيت بالتمادي ولكن قد خرج من رمها شيعة اخرى لطفت ما كان في الاولى من ظاهر الفظاعة فاتخذت حدًّا متوسطًا بين تعليم بيلاجيوس والايمان الارثودوكسي وكان مبدعها بعض كهنة من مرسيليا فانشأوا المذهب البيلاجياني الملطف فدُعوا نصف بيلاجيين فكانوا ينسبون للاختيار المعتوق بداية الايمان واول حركة الارادة البشرية نحو الخير فعلى زعمهم يمنح الله سبحانه نمو الايمان ونعمة الافعال الصالحة بالتبعية لهذه الحركات الاولى . ومن ثم كان النصف بيلاجيين يعتقدون كالكاثوليكيين بوجود الخطية الاصلية وبضرورة النعمة الباطنة لعمل الصلاح لكنهم كانوا يقولون ان الانسان يستطيع ان يستحق هذه النعمة ببداية ايمان واول حركة فضيلة وان هذه البداية والحركة الاولى ليستا من الله بل من الانسان

فنهض مار اغوسطينوس بعزم شديد يحارب هذا الضلال الردي ويعارض المذهب البيلاجياني الى اخر منقلبه فصنف في هذا الصدد كتابين اثبت فيهما بان ليس فقط نمو الايمان هو هبة

منهُ تعالى بل وبدأيته ايضًا وان النعمة الاولى لا يمكن ان تكون مسنودةً على استحقاقنا وانها لا تأتي منا بوجه من الوجوه اصالةً واتى بايات شتى من الكتاب المقدس ادلةً تثبت ان الله سبحانهُ يُعدّ الارادة للصلاح ويوجهها اليهِ وقد اسهب ببيان البرهان من اية الرسول مار بولس القائل فيها : ماذا لك ولم تأخذه : فانها تدل صريحًا على احتياج الانسان الى نعمتهِ تعالى لكي يبتدئ بالصلاح ويصنعه بما فيهِ الفائدة للخلاص وان الله لا يدعو الناس لانهم مؤمنون بل لكي يصيروا مؤمنين . وقد بين ان الكنيسة لا تزال تشهد بصلواتها على انها تنتظر النعمة من الرحمة الالهية لا من قبل استحقاقاتنا وان النعمة تبطل أن تكون نعمة إن لم تكن مجانيةً . اخيرًا قد اوضح هذه الحقيقة من عماد الاطفال الذين يُدعون الى هذه النعمة بدون ان يأتوا من قِبلهم بشيء يستحقها لهم فقال : اين الايمان اين الافعال التي تقدمت هذه النعمة

فلما أُخبر البابا سالستينوس بان كهنة مرسيليا متمسكون باراء مغايرة تعليم مار اغوسطينوس هذا قد حرمهم وحدّد ضدهم ان الله يفعل في قلوب البشر فعلاً هذا صفته حتى ان الفكر المقدس والقصد الصالح وبالتالي كل حركة الارادة الصالحة في رتبة الخلاص تأتي من الله واننا إن قدرنا على صلاح فما ذاك الاّ بواسطة من لا نستطيع على شيءٍ بدونهِ . اخيرًا قد انتهت كل

هذه المحاورات بقانون شهير رسمه مجمع اورنج الثاني الذي تصدر فيهِ القديس سيزاريوس من مدينة ارل وقد صرح بهذه الالفاظ : من قال ان نمو الايمان او بدايته نفسها واول حركة القلب التي بها نؤمن بمن يبرر الخاطئ ليست بمفعول هبة النعمة بل ان هذا الاستعداد يتكوّن طبيعيّاً فينا فانه يضاد العقائد الرسولية لكون الرسول ماربولس يقول : ولنا ثقة بان الذي ابتدأ فينا العمل الصالح يتممه الى يوم ربنا : وقال ايضاً : قد أُعطيتم ان تؤمنوا بيسوع المسيح فتخلصون منةً بواسطة الايمان وهذا ليس من قِبلكم بل هبة منهُ تعالى (افسس ٢ : ٨)

الفصل السادس والثمانون

في مار ايرونيموس

كان مار ايرونيموس من اكبر مشاهير علماء البيعة قد تواطأ مع مار اغوسطينوس على محاربة ارطقة بيلاجيوس . فولد في دالماسيا من والدين مسيحيين غنيين ومنذ حداثته اظهر من نفسهِ استعدادات سعيدة لاقتباس العلوم فرأى والده من الواجب عليهِ ان يُنمي هذا البذار الثمين بجميع الوسائط فارسله الى رومية

ونجح فيها نجاحًا عظيمًا في العلوم الرياضية والفصاحة ولكن لما كان اعتبار الناس غاية علومهِ وليس رغبة التقدم في علم الخلاص في الله ان يتورط في السداد اما تيهانه فلم يطل كثيرًا بل في نواحي سنة ٣٧٤ تنحى الى برية كلسيد في سورية وهي فلاة شاسعة محروقة بحرارة الشمس ومع ذلك كانت تسكنها بعض النساك الذين اقتادتهم اليها محبة الزهد. وكان ايرونيموس يرهب كثيرًا دينونة الله ومن ثم كان يهتم في خلوته باستدراك قساوتها. ففي ذاك الحين جاز بيلاجيوس الى فلسطين وكان يفرغ مجهوده في بث اضاليله فيها فارتعد الحبيس القديس فرقًا من الخطر الطارئ على الايمان ونهض بعزم شديد يقاوم هذا التعليم المحدث فاستشاط بيلاجيوس غيظًا عليهِ وكتب ليس فقط ليدافع عن اضاليله بل ليلقي في قلوب تلاميذه نيران العداوة لمار ايرونيموس فحملهم على ارتكاب اقبح القبائح فهجموا على الدير الذي كان القديس فيهِ ونهبوه وحرقوه فسافر مار ايرونيموس الى انطاكية وهناك سامهُ كاهنًا بولينوس اسقفها لكنهُ لم يشأ ان يقطن في هذه المدينة ولا ان يتعلق بكنيسة البتة لان مقصده كان ان يداوم على عيشة الزهد والانفراد فذهب الى القسطنطينية ومكث هناك زمانًا مع مار غريغوريوس النزينزي وعكف تحت تدبير هذا المعلم الفاضل على درس الكتب المقدسة وكان

هذا العمل اكبر ملذاته ثم مضى من هناك الى رومية حيث
البابا داماز وس عنده ليجاوب على من يستفتونه في الكتاب
لمقدس او في مسائل ادبية ولما توفي البابا المذكور عاد الى
فلسطين وجعل سكناه في بيت لحم

وفي تلك المدة اذ كان هذا القديس العلاّمة رانعاً بالراحة
التي كان يشتهيها صنف تصانيف كثيرة في تفسير الكتب المقدسة
وابدى للكنيسة اعظم الخدم واهمها فعزم على ترجمة الكتاب المقدس
الى اللغة اللاتينية ولهذه الغاية درس اللغة العبرانية درساً جهيداً
وبليغاً فاتقن معرفتها وكان معلمه فيها رجل يهودي بارع
جداً في العبرانية . ثم اخذ يسعى سعياً بلا كلل في حل عقد
الكتب المقدسة وليس فقط قد إتحف الكنيسة بترجمة جديدة
للكتب المقدسة بل الّف ايضاً مقالات لتسهيل ادراكها ولهذا
القديس العلاّمة تآليف كثيرة في تفسير الكتب المقدسة ففي
مقدمة كتابه الذي الّفه في النبي اشعيا الذي عاش سبعمائة سنة
قبل المسيح قال انه يعتبره ليس فقط نبياً بل رسولاً وبشيراً ايضاً
لانه يحوي في نبواته جميع اسرار المخلص وميلاده من عذرا
وعجائب حياته وعار موته ومجد انبعاثه وامتداد كنيسته في اربع
اقطار المسكونة . قال : ان اشعيا يتكلم بايضاح عن جميع هذه
الامور كانه يخبر عن امور ماضية ولا يتنبأ عن العتيدات

الفصل السابع والثمانون

في مار يوحنا فم الذهب وفضائلهِ وما قاساه من العذابات

سنة ٤٠٧ للمسيح

وكان في ذاك الحين نفسه مار يوحنا فم الذهب رئيس اساقفة القسطنطينية يكرم الديانة بغيرتهِ الرسولية على اصلاح اكليروس هذه المدينة الكبيرة وشعبها فكان يونّب بطلاقة الحرية الاغنياء على بخلهم والنساء على زهوهنَّ الباطل والعظما على كبرياتهم والبلاط الملوكي نفسهُ لم يخلُ من تأثير غيرته وقد تحدث غالبًا مع الملك وامراته اودوكسيا في امر واجباتهما . فسببت لهُ غيرتهُ هذه الرسولية اعداء مقتدرين لاسيما الملكة لانها قد احتدمت غيظًا عليهِ لخطبة خطبها ومن تاويلات اخصامه انه قصد بها الملكة فلذا اخذت تسعى في الانتقام منه ووجدت بثاوفيلوس اسقف اسكندرية مساعدًا مكّنها من انتشار بغضتها ومن ثم قد نُزّل مار يوحنا عن كرسيهِ وأُرسل الى المنفى ولكن قد حدثت اليوم التالي زلزلة شديدة في القسطنطينية أُعتبرت مفعول الغضب الالهي فارتعدت منها فرقًا اودوكسيا نفسها وطلبت من الملك ان يعيد مار يوحنا من المنفى فاعاده ودخل المدينة بمحفل

بالانتصار . وغب برهة وجيزة ثارت على هذا القديس زوبعة اخرى . وهي انهم كانوا نصبوا للملكة تمثالاً من فضة بالقرب من الكنيسة الكبرى في القسطنطينية وكانوا يحتفلون بملاعب مشتهرة ممزوجة بخرافات فخطب القديس خطبة ضد هذا الدليل القبيح . فلما علمت اودوكسيا بهذه الخطبة اتخذتها اهانة لشخصها فاغتاظت وحلفت بان تهلك هذا الحبر القديس . فحطوه ثانية عن كرسيهِ ونفوه الى كوكوز وهي مدينة صغيرة في ارمينيا

وكانت الملكة قد اختارت محل منفاه تلك البلاد الفقيرة القحلة لكي يشعر القديس بصرامة انتقامها فبقي يسير سبعين يوماً حتى وصل اليهِ وكابد من جراء امراضهِ واتعاب هذا السفر مزعجات شديدة للغاية لاسيما لان الجنود رفقاه كانوا يعاملونه بقساوة وحشية . فحالما شفي من امراضهِ اخذ يجدّ سعياً بغيرة جديدة في خير الكنيسة فكان يعلم شعب البلاد ويتصدق على البائسين ويفتدي المأسورين اما اعداؤه ولئنهم كانوا منتصرين عليهِ فقد حسدوه لاجل هذه الصالحات فابعدوه الى بيتيونت وهي مدينة غامرة في اخر تخوم المملكة على شاطئ بحر بونتوكسين الشرقي وقد اتى بهِ الى محل هذا المنفى الجديد اثنان من الشرط لا شفقة في قلوبهما ولا رحمة بل كانا يجدّان في ان يضاعفا اتعاب سفره المضنك والمستطيل بسوء معاملتهما اياه وكانا قد وُعدا بجزاء

جزيل ان مات القديس في الطريق وقد نالا هذا الجزاء بتوحشها لان الاسقف قد انهكته الاتعاب واضنكته العذابات فتوفي قبل ما بلغ الى محل منفاه . وبعد ما مشي مدة ثلثة اشهر بلغ الى نواحي كومان في بونطي وهناك ادركته حمى شديدة اوجبته ان يُحبس عن السير ولما كان الليلة التالية في دير مار باز يليسك اسقف كومنان الذي توفي شهيدًا ظهر لهُ هذا القديس وقال لهُ : تقوَّى يا اخي غدًا نكون سويةً : وكانت وفاته بالحقيقة اليوم التالي وهكذا فقدت الكنيسة بموتهِ اسقفًا من اقدس اساقفتها واشهر علمائها وقد لقب بكريزوزتوموس اي فم الذهب لاجل فصاحته التي كانت على ما اقل تعادل فصاحة افصح الفصحاء الاقدمين

الفصل الثامن والثمانون

في ارطقة نسطوريوس

ان روح الضلال بعد ما نقض حقيقة سرّ الثالوث الاقدس والتعليم الحقيقي بشان الخطية الاصلية والنعمة قد ضاعف اجتهاده في ان يزعزع الاعتقاد بسر التجسد . فقد أُعتقد في كل اين وان

بأن يسوع المسيح هو الكلمة المتجسد وان فيهِ طبيعتين باقنوم واحد اما نسطوريوس اسقف القسطنطينية فقد علّم بوجود اقنومين في يسوع المسيح وحيث لم يتجاسر على نقض العقيدة الكاثوليكية مصادمةً على وجه الاستقامة بل سار في نكرانها بالمواربة قائلاً ان العذراء القديسة لا ينبغي ان تُدعى ام الله بل ام المسيح مميزًا هكذا اقنوم المسيح عن اقنوم الكلمة فانشأ هذا التعليم الجديد عثرة كبيرة في الاكليروس والشعب فحالما سمع المؤمنون هذا التجديف في كنيسة القسطنطينية اخذوا بالفرار لئلا يشتركوا مع الكافر الذي تفوَّه بهِ ولعمري ان صياح الايمان باثر المبدعين امر يستحق الاعتبار على اننا نسمع في كل آين وآن هذا الصياح مرتفعًا لدى اتلاد جميع الارطقات اي كلما نهض ناهض ضد الاعتقاد الدائم . فكان لنسطوريوس ابهة في البلاط الملوكي ومن ثم لم يهمل ادنى سعي في تغريض الملك له لكيما يمكنهُ بهذه الوسيلة من بثّ اضاليله في سائر الجهات لكن الله سبحانه قد اعدّ دواء للداء ومدافعًا شهيرًا عن الايمان المنقوض

فكان ماركيريللوس اسقف اسكندرية صنديدًا لا يُغلب في الذبّ عن الايمان قد اقامته العناية الالهية بازاء المبدع فحالما اخبر هذا الاسقف القديس عن انسراب الكفر اشهر للعيان تآليفًا يوضح فيهِ جليًا حقيقة سر التجسد ومن قوله فيهِ : انني اتعجب

كيف يسوغ وقوع الريب في هل ان العذراء القديسة ينبغي أن تدعى والدة الله لانهُ ان كان ربنا يسوع المسيح الهًا والعذراء امه فهي اذًا ام الله وهذا هو الايمان الذي علمناه الرسل وهو تعليم اباءنا انما لا يُفهم بذلك ان طبيعة الكلمة او اللاهوت اخذ بدايته في مريم العذراء بل ان فيها قد تصور الجسد المقدس وتنفس بنفس ناطقة وبهِ اتحد الكلمة اتحادًا اقنوميًّا ومن ثم يقال ان الكلمة قد وُلد حسب الجسد. هكذا في نظام الطبيعة ولئن الامهات لا يشتركنَّ بنوع من الانواع بتة في خلقة النفس ومع ذلك لا يمتنع القول بانهنَّ امهات الانسان كلهِ وليس امهات الجسد فقط: فذاع حالاً تاليف مار كيريللوس هذا في كافة كنائس الشرق واجدى المؤمنين عزاء بعد ما اعترهم الضلال الجديد ثم كتب كيريللوس الى نسطوريوس خصوصًا ليردّه الى سبيل الحق والصواب وحرضه لينهي العثرة بتسميتهِ العذراء القديسة ام الله. ثم قال له: ومع ذلك تيقن انني مستعد لاحتمال كل سؤ وعذاب السجن والموت لاجل ايمان يسوع المسيح: اما هذه الرسالة فلم تأتِ بمفعول لان رجوع المبدع عن غيهِ من النوادر

فلما رأى الاسقف القديس ان الامل مقطوع من ترجيع نسطوريوس كتب الى البابا مار سالستينوس مطلعًا اياه على كل ما جرى وعلى الحالة التي كانت عليها كنيسة القسطنطينية

وناشده ان يأتي بدواء للداء وكان نسطوريوس ايضًا ارسل للبابا كتاباته ممضاة بخط يده. فعقد الحبر الاعظم في رومية مجمع اساقفة فحصت فيه كتب نسطوريوس ووُجد تعليمه مضادًا لتعليم الاباء فحرمه جميعهم بصوت واحد وكتب البابا الى اساقفة الكراسي الكبرى في الشرق يطلعهم على هذا الحكم وفي الرسالة التي وجهها الى مار كيريللوس يمدح غيرته وتيقظه ويوضح له بانهُ يثبت معتقده في امر التجسد وان نسطوريوس ان لبث مصرًّا على غيهِ في مقاومة التعليم الكاثوليكي ولا يحرم تعليمه الكفري في وقت عُين له يُقطع من جسم الكنيسة

الفصل التاسع والثمانون

في المجمع الافسوسي العام

سنة ٤٣١ للمسيح

اما نسطوريوس فلم يذعن الى حكم الكرسي المقدس بل قد ازداد جهدًا في بث ضلاله كدأب باقي المبتدعين ووجد له انصارًا في البلاط الملوكي. اما الملك ثاودوسيوس الصغير اذ كان يحب الديانة حبًّا مخلصًا ففتح عينيه للحق ولدى علمه بهيجان المؤمنين

في القسطنطينية صمم على عقد مجمع تيلي في افسس . فذاع خبر هذه الدعوة واوعب قلوب الكاثوليكيين فرحًا فتقاطرت الاساقفة اليهِ من كافة اقطار المسكونة وكان عددهم مائتي اسقف وكان مار كيريللوس متصدرًا فيهِ بالنيابة عن البابا وحضر نسطوريوس ايضًا الى افسس وبرفقتهِ الامير كنديديانوس الذي قلده الملك وقاية المجمع من البلبلة لكنهُ أيّد حزب نسطوريوس تأييدًا مشتهرًا . فلم يشاء المبدع ان يحضر الاجتماع بعد ما طلبوه قانونيًا ثلث دفعات بل كان يتعلل عن حضوره بغياب يوحنا اسقف انطاكية واساقفة ولايتهِ لانهم لم يكونوا وصلوا بعد فلما ظهر ان عاقة هؤلاء الاساقفة كانت مقصودة وان الاجل الذي عينهُ الملك لافتتاح المجمع قد مضى منذ خمسة عشر يومًا عقد اباء المجمع الجلسة الاولى . فجعلوا في وسط الكنيسة عرشًا عاليًا وضعوا عليهِ كتاب الاناجيل تمثيلاً لحضور يسوع المسيح الذي وعد بحضوره بين الرعاة المجتمعين باسمهِ . فكان ذلك مشهدًا مقدسًا وجليلاً اعطاه مجمع افسس مثالاً للمجامع الاتية فجلست الاساقفة على ناحيتين كل حسب مقام كرسيهِ . فلما ابى نسطوريوس الحضور واصرّ على اباءتهِ التزموا الى فحص تعليمهِ في مؤلفاتهِ فاخذوا يتلونها وحالما انتهوا من تلاوتها هتفوا قائلين : فلتكن محرومةً هذه الاضاليل الكفرية ومحرومًا من يتمسك بها

فانها تضاد الكتب المقدسة وتقليد الاباء : ثم تلوا رسالة البابا سالستينوس الى نسطوريوس ونبذًا عديدة من كتب الاباء القديسين الاحسن اعتبارًا واكرامًا كمار كبريانوس واثناسيوس وامبروسيوس وباسيليوس وجعلوها بازاء اقاويل المبدع وبعد ما شهد كل اسقف بايمان كنيستهِ صرّحوا باحتفال ان مريم العذراء هي ام الله وحكموا بتزيل المجدف

فلما علم شعب افسس بهذا الحكم هتف هتاف الفرح واجزلوا الدعاء والثناء لاباء المجمع وضجت كامل مدينة افسس بانغام واصوات المدائح لوالدة الله فكتبت الاساقفة للملك يطلعونه على حكمهم اما الامير كنديديانوس فحجز رسائلهم واتفق مع نسطوريوس فحرّض ثاودوسيوس ضدهم بتخبير كاذب بلغه اليه ولم تستطع رسائل المجمع ورسله سبيلاً للوصول الى الملك لان المراكب كانت محجوزة عنهم والطرقات مقطوعة ولكان الحق أبطل حكمه لو لم يؤيده الله سبحانه بالانتصار على جميع الموانع ويقهر كافة التعصبات الجارية عليه. فان رسولاً من رسل المجمع قد تزيا بثوب متسوّل وجعل الرسالة المتضمنة التقرير الصحيح داخل قصبة ودخل بها على الملك وقدمها له فلما وقف الملك على حقيقة ما جرى في افسس نفى نسطوريوس الى دير من اديرة انطاكية وحيث لم يزل هذا المجدف ينذر باضاليلهِ هناك نفاه الى

طاسيس في مصر ثم مات نسطوريوس في المنفى موتاً شقياً بعد اعوام قلائل

الفصل التسعون

في ارطقة اوطيخا

اما ارطقة نسطوريوس فاعطت سبيلاً لارطقة اخرى تبعتها على الاثر ولم تكن اقل منها مناقضة لعقيدة التجسد . فبينما كان اوطيخا يقاوم نسطوريوس ضلّ هو نفسه فكان يعلم ان في المسيح طبيعة واحدة بعد التجسد فهذا هو داب العقل البشري لا يتقي ضلالاً الاّ وتورط في غيره اما الكنيسة المدبرة من روحه تعالى فتتجنب جميع الاضاليل وترذلها فكان نسطوريوس قسم اقنوم يسوع المسيح اما اوطيخا فبلبل طبيعتيه وجعلها طبيعةً واحدة وكان هذا رئيس دير بالقرب من القسطنطينية وغار غيرةً عظيمة على حفظ الاعتقاد بوحدة الاقنوم ضد نسطوريوس فتباعد عن الارطقة النسطورية ورّطه في ارطقة نقيضتها وقد اثار هذا الضلال بلابل ليست باقل من تلك التي اثارها ضلال اريوس فهذا الملحد الجديد لم يوضح اولاً ارطقته الاّ لقوم من

اصدقائهِ في مذاكرات خصوصية لكنهُ اخذ فيما بعد يسعى في اذاعة ضلالهِ في اديرة القسطنطينية فافرغت اصدقاؤه مجهودهم في اهدائهِ الى الحق والصواب واستدراك خطب معثرٍ لكنهم لم يستفيدوا منهُ شيئًا بل لبث اوطيخا مصرًّا على عناده اصرارًا شديدًا فراوا حينئذٍ ان يعرضوا امره لمار فلافيانوس بطرك القسطنطينية . فبعد ما افرغ هذا الحبر كافة وسائط الملاطفة جمع الاساقفة التي كانت في المدينة المتملكة ودعا المبدع الى هذا المجمع فحضر بعد ما آبى زمانًا مديدًا . ولما بقي معاندًا في ارائهِ حرموا تعليمه ونزعوا عنهُ سياسة ديره

فوجد المبدع في البلاط الملوكي نصيرًا لهُ ضد اسقفهِ وهو كريزافوس احد وزراء الملك العظام فكان هذا يعضده بكامل سطوتهِ وكان رجلًا وحشيًا لئيمًا قاسيًا كافرًا مستجمعًا كامل الرذائل وكان قد تسلط على عقل الملك ويسوس وحده جميع امور المملكة فنال من ثاودوسيوس الاجازة بمراجعة الفحص عن مسئلة اوطيخا في مجمع اساقفة واقام رئيسًا على هذا المجمع ديوسقوروس اسقف اسكندرية صديق اوطيخا وعدو لمار فلافيانوس . فكان كريزافوس متسلطًا كل التسلط على هذا المجمع حيث تم كل امر بالقهر والاغتصاب وكان بالحري مجمعًا لصوصيًا وليس مجمعًا كنائسيًا . وكان فيهِ اثنان من معتمدي

الملك قد دخلاه مصحوبين بشرط وفي ايديهم قيود حديدية يتوعدون بشر العذاب من لا ينقادون لارادة عزيز الملك . ففي بهرة هذا الاضطراب نُبر اوطيخا وشُجب مار فلافيانوس . ولما كان كثيرون يابون الامضاء على هذا الحكم الجائر قفلوا الابواب وغصبوا الاساقفة على امضائهِ . فالذين منهم لم يتغلبوا للاغتصاب أُرسلوا الى المنفى ومن جملتهم مار فلافيانوس فهذا قد اضنوهُ بالضرب على الطريق حتى انهُ توفي من اجراء ذلك بعد ايام قلائل ثم الملك ثاودوسيوس الذي اسلم نفسهُ للانخداع لم يعش بعدهُ زماناً طويلاً ولما كان جاعلاً كل ثقته بدون تبصر برجل شرير هذه حاله كدر صفاوة مجد حكمهِ الذي كانت نهايته تعيسة كما كانت اوائله سعيدة . فخلفه الملك مرسيانوس وكان ملكاً ديناً جعل اول اهتماماته في المحافظة على طهارة الايمان

الفصل الحادي والتسعون

في المجمع الخلقيدوني العام

سنة ٤٥١ للمسيح

وكان وقتئذٍ مار لاون جالساً على السدة الرسولية فشعر بالجرح الذي اصاب الكنيسة ونالهُ من ذلك غم شديد واخذ

يجدُ في مداواتهِ فرأى ان احسن علاج له عقد مجمع تيبلي فالملك مرسيانوس نادى بالتمامهِ طبق رغبة الحبر الاعظم في خلقيدونيا احدى محلات القسطنطينية لانهُ اراد ان يحضرهُ بشخصهِ ويحفظ النظام فيهِ فبادرت الاساقفة اليها وكان عددهم ثلثمائة وستين اسقفاً واجتمعوا في كنيسة القديسة اوفاميا وعقدوا الجلسة الاولى في اليوم الثامن من تشرين اول سنة ٤٥١ اما البابا مار لاون فلم يتمكن من الاتيان اليهِ بشخصهِ بل ارسل قصاداً ثلثة يترأسون عليهِ بالنيابة عنهُ فجعلوا كتاب الاناجيل على عرش عالٍ في بهرة الجمع كما صنعوا في مجمع افسس وشرعوا في الفحص عن تصرف ديوسقوروس الجائر المغتصب مع مار فلافيانوس و وبخوه لكونه داس برجليهِ جميع القوانين وحكموا عليهِ بالعزل عن كرسيهِ ثم تلوا الرسالة البديعة التي وجهها البابا لاون الى فلافيانوس منذ بداية هذه الارطقة وفيها اوضح هذا العلامة القديس ايضاحاً سديداً جلياً الايمان الكاثوليكي بسر التجسد اي بوحدة الاقنوم وتمييز الطبيعتين في ربنا يسوع المسيح فوجد التعليم المتضمن فيها مطابقاً كل المطابقة لقانوني نيقيا والقسطنطينية فثبتوه اذاً بصوت واحد وعدّوه قانوناً للايمان معصوماً عن الخطاء وهكذا صرحت جميع الاساقفة قائلين هذا ما نؤمن بهِ وهذا هو ايمان الاباء هذا هو ايمان الرسل فان بطرس نفسه قد

تكلم بفم لاون فينبغي التمسك بهذا التعليم لمن اراد ان يكون ارثودوكسيًا ومن لا يؤمن هكذا فليكن محرومًا

ثم رسمت اباء المجمع صورة ايمان وبعد ما اوردوا فيها قانوني نيقيا والقسطنطينية قالوا هكذا: اننا نصرّح بوجوب الاعتقاد بربٍ واحد يسوع المسيح نفسه . فهو نفسه اله حق وانسان حق كامل في كلتا الطبيعتين مساوٍ للاب في الجوهر حسب اللاهوت ومساوٍ لنا حسب الناسوت . مولود من الاب قبل الدهور حسب اللاهوت ومولود من العذراء مريم في الزمان حسب الناسوت . يسوع المسيح ربنا واحد بعينهِ في طبيعتين بدون امتزاج ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال بدون ان الاتحاد يزيل فرق الطبيعتين بل بالعكس كلٌّ منهما حافظة خاصتها وقائمة في اقنوم واحد بنوع ان الابن الوحيد الكلمة ربنا يسوع المسيح هو هو واحد بعينهِ

فحضر الملك نفسه الجلسة السادسة واعلن على مثال قسطنطين انهُ لم يشا ان يدخل في هذا المجمع المقدس الاّ ليعضد بسلطانهِ الملوكي احكام المجمع لا ليقيد حرية الجالسين فهتفت جميع الاساقفة قائلين: فليحيى قسطنطين الجديد فليحيى الملك الديّن والملكة الارثودوكسية سنون عديدة . ومُلك سعيد لمرسيانوس خليل المسيح: فامر الملك بتلاوة تحديد الايمان المرسوم

من المجمع فتلوه ولما انتهوا من تلاوته سأل في هل انهم متفقون جميعًا على ما سمعه فاجابه الجميع : ان ايماننا واحد وتعليمنا واحد وهذا هو ايمان العلماء القديسين وهذا كان ايمان الرسل وهو الذي خلص العالم : ثم رجعوا يهتفون بالدعا له بمزيد الفرح ويكررون تسميته قسطنطين الجديد وتسمية زوجته هيلانة الجديدة وينعتونه بجميع الالقاب المعبرة عن محبتهم واكرامهم له . فسنّ الملك سنة امر فيها باجراء مراسيم المجمع قائلاً فيها : ان من يعيد البحث بعد هذا الحكم يسعى في اثر الكذب

الفصل الثاني والتسعون

في مناقب ماري لاون البابا الجليلة

فاقام تعالى ماري لاون ليحارب ارطقة اوطيخا فجاوب هذا الحبر الجليل على دعوته تعالى احسن مجاوبة قائمًا بمهام البيعة المقدسة احسن قيام ايضًا فانه قد نجى شعبه مرتين من خطوب مهلكة قد كان انقطع امل النجاة منها . لان اتيلا ملك الهونيين الذي كان يُسمي نفسه ضربة الله بعد ما اجتاح ايطاليا ودمرها تقدم نحو رومية لينزل فيها الدمار ايضًا اما الملك فاذ لم يكن

وقتئذٍ في حالة تمكنه من المدافعة عنها استشار ديوان الندوة بما ينبغي الاعتماد عليهِ فلم يجدوا طريقة اخرى الاَّ ان يرسلوا لهذا الملك البربري سفيرًا يحاول استجلابهُ الى عقد الصلح . فاذ كان البابا مارلاون موقنًا بانهُ تعالى يعد القلوب الاشد صلابة حسب مشيئتهِ كلف نفسه بهذا التواسط المخطر واجراه ببأس القى هيبتهُ في قلب هذا الفتاح البربري . اما انيلا فلم يكن ذا مهابة في ظاهرهِ بل كل ما فيهِ كان مرعبًا ودالاً على توحش اصلهِ . قصير القامة واسع الصدر كبير الراس بتكوين غير منظوم عيناه قادحتان كانهما لهبتان قليل الشعر في رأسهِ شيبته اهوال الحروب قبل اوانهِ افطس الانف اسمر اللون متشامخ في سيرهِ . فكان مارلاون متقلدًا سلاح قدرة غير منظورة تسمو جميع قوات البشر فظهر بهيئة الطمانينة امام هذا الملك الذي كانت الاقيال تبعته ينظرون اليهِ مرتعدين فرقًا من صولتهِ فخاطبه باحترام وعزم ليحمله على الهدوّ والسكينة في ايطاليا فتعجب هذا الملك العاتي من بسالة الحبر وقال للذين حوله : لا ادري كيف وقع كلام هذا الكاهن في قلبي موقع التأثير والاقناع : فلانت صلابته ونعمت خشونته واجاب طلب مارلاون وكفَّ عن العداوات والخصومات واخرج عسكره من ايطاليا

فها ك سطوة الفضيلة فانها تلين القلوب الاشد توحشًا وبعد

ذلك بنحو ثلث سنوات اختبر هذا الحبر القديس قوة الفضيلة في واقعة اخرى وهو ان جنصاريك ملك الفندليين اتى بجحافله ودمر ايطاليا وترك في كامل امصارها اثار قساوته فلما دنا من اسوار رومية تقدم مار لاون اليه وسأله ان يعفو عن دم العباد فخاطبه بهابة وحكمة لينتا قلب هذا الفاتك سفاك الدماء فنال منه ما طلبه وكف جنصاريك عن القتل والحريق فسلمت بنايات هذه المدينة العظيمة وسكانها من الهلكة . اما مار لاون فلم تكن نتيجة مساعيه هذه الا تأجيل سقوط المملكة الرومانية في الغرب الى ايام قلائل لان امصارها المختلفة قد امست بعد زمن قليل فريسة لشعوب بربرية عديدة شنت الغارات عليها بالتوالي فاستولى اودوكر ملك الهاروليين على ايطاليا سنة ٤٧٦ ودمر هذه المملكة وكانت نهاية دمارها باستيلائه على رومية فمحى اسم مملكة رومانية في الغرب باتخاذه لنفسه لقب ملك ايطاليا وربما حكم بان هذا اللقب اشرف له من لقب قيصر ففي بهرة ذاك الاضطراب العمومي الذي عقب هذه الحادثة العظيمة اندفقت الامم البربرية على الاقاليم وطافتها واحدًا واحدًا لتشترك في افتراس هذا الجسم الكبير وهكذا اعظم ممالك الدنيا قد دمرت نحو سنة ١٢٢٨ منذ وضع رومولوس اساساتها . فهذه عبرة باهرة لمن يعتبر فان الممالك

البشرية الاحسن توطدًا في اركانها كالشعوب والملوك تجوز وتفنى ولا ثبات الاّ للملكة التي اشادها يسوع المسيح بصليبهِ فهي تبقى للابد

الفصل الثالث والتسعون
في تنصر الافرنسيين
سنة ٤٩٦ للمسيح

لما آن اوان سقوط المملكة الرومانية في الغرب لم يترك الله غاليا تلك البلاد الشريفة بالنصرانية تحت ولاية الملوك الوثنيين بل دعا الى الايمان كلوفيس ملك الافرنسيين فكان هذا الشعب خرج من جرمانيا وتوطن في غاليا وقد تزوج كلوفيس وهو وثني بامرأة مسيحية فاضلة جدًّا اسمها كلوتيلد فكانت تحدثه غالبًا عن الديانة المسيحية وتبين لهُ بطلان المذهب الوثني في مذاكرات خصوصية اما الملك فكان يشق عليهِ التسليم لها في صحة معتقدها الاّ انهُ قد اجاز لها ان تعمد ولدًا اتاه منها فعمدته وغب عماده بزمن وجيز مرض ومات فاغتاظ كلوفيس على الملكة وعدّ موته مفعول غضب الهتهِ الكذبة اما كلوتيلد فلم

ترتخِ عزيمتها بل عزّاها ايمانها على فقد ولدها وكفكف العبرات التي كانت تسكبها وعضدها في احزانها فرُزقت ولدًا اخر وعمدته ثم مرض الولد وكان الملك يقول لها انهُ لابد من موتهِ كاخيهِ لانهُ تعمد مثله فبادرت كلوتيلد الى الصلوة واذ كان الله سبحانه قد اكتفى بامتحان ايمانها في المرة الاولى جازاها على فضلهِ فبرأ الولد من مرضهِ واعاده الى العافية . فمناقب كلوفيس الجليلة والآمال القريبة بتنصرهِ عطفت قلوب رعاياه اليهِ حبًّا فكان يُقدّم الدعاء لله لاجلهِ من صميم الفواد في كامل امصار المملكة ليمنّ سبحانه عليهِ بالهدى الى الايمان القويم فاستجيب هذا الدعاء اخيرًا

وقد ارادت العناية الالهية ان تنصر هذا الملك الموكول عليهِ تنصر كامل امة الافرنسيين بصير بمعجزة كتلك التي هدت سابقًا قسطنطين الكبير الى الايمان بيسوع المسيح فان هذين الملكين قد حُملا على اعتناق الدين المسيحي بنصرة عجيبة فازا بها على اعدائهما كان الاليمانيون شعب جرمانيا التي سميت فيما بعد باسمهم رجالاً صناديد في الحروب جازوا نهر الرين وتقدموا نحو غاليا ليجتاحوها فزحف كلوفيس اليهم بعساكره وقابلهم في سواحل توليياك من معاملة جيوليار وكانت كلوتيلد قالت لهُ قبل سفره : ان شئت نصرًا على اعدائك فعليك بطلب

الغوث من اله المسيحيين . فلما انتشب القتال بينهم شرعت عساكر كلوفيس تلتوي الى الوراء وتخلل الاضطراب صفوفها فتجسّر عند ذلك الالمانيون وتيقنوا النصرة لنفوسهم . فذكر كلوفيس في هذه الشدة العظيمة كلام كلوتيلد فالتجأ الى اله قرينته الفاضلة وهتف بصوت عالٍ قائلاً : ايها الاله الذي تعبده كلوتيلد هلمّ الى اغاثتي فان ظفرتني باعدائي لا اعبد الهاً سواك : فكان الله سبحانه عين هذا الحين ليهدي كلوفيس الى معرفته باحسانه فما انهى صلاته الاّ وقد اجتاز النصر الى جهته . فولى الالمانيون مدبرين واكثر الافرنسيون القتلى منهم اما الذين نجوا من حد السيف فاسلموا نفوسهم لرحمة الظافرين

الفصل الرابع والتسعون
في عماد الملك كلوفيس

فلا ريب ان النصر كان من العلا وتيقن الافرنسيون الاشداء في الحرب ان اله كلوتيلد هو اله الجنود الحقيقي فعاد كلوفيس بعسكره الى غاليا ليفي النذر الذي نذره جهاراً على نفسه . فثارت فيه الرغبة المقدسة في تعلم اسرار ديانتنا وهو بعد

في سفر الطريق فلما مرّ بمدينة تول اصحب معهُ لهذه الغاية كاهنًا تقيًّا يقال لهُ واست شهيرًا بالفضل والقداسة . فاستطارت كلوتيلد فرحًا لما علمت بالنصرة التي حازها كلوفيس وخاصةً بارتداده الى الديانة المسيحية فخرجت لملاقاتهِ الى رامس وهنأته على ما رأت فيهِ من التأهبات الصالحة اكثر مما هنأته على فوزه وحسن نجاحهِ في الحرب . وكان مار رامي اسقف هذه المدينة رجلًا زينه الله بمناقب وفضائل جليلة ورقاه على هذا الكرسي العظيم ليجعله رسول الافرنسيين فبهذا تم تعليم الملك حقائق الدين المسيحي . اما كلوفيس فلم يتوقف عن انجاز قصدهِ ووفاء نذره بل جمع لديهِ جنوده وحرضهم على اقتفاء اثرهِ اي على ان يكفروا بالاصنام الباطلة ويعبدوا الله الذي منَّ عليهم بالظفر فبينما كان يحدثهم بهذا المعنى قبل ان ينتهي من كلامهِ صاحت الجنود الافرنسيون قائلين : قد كفرنا بالالهة الكاذبة ونحن مستعدون لان نعبد الاله الحقيقي الذي ينذرنا بهِ رامي : فسرّ كلوفيس جدًّا عندما رأى عسكرهُ متفقًا معهُ بالراي وعين مع مار رامي يومًا لنوال المعمودية فاتفقا على ان يكون يوم بيرمون عيد الميلاد فعهد رامي على ان يبهج مناظر الافرنسيين بكل ما في ديانتنا من افخر الرتب واجلها فلم يهمل شيئًا مما يزيد رتبة العماد بهرًا وعظمة ومن ثم امر بان تفرش الكنيسة وجرن

المعمودية بافخر الاقمشة واجملها ثم اوقد مصابيح كثيرة فيها الشموع ممزوجة بعطر ذكي الرائحة فتأرجت الكنيسة منهُ وصارت كانها رائحة سماوية

وما اجمل ما روي عن مسير الموعوظين الجدد الى الكنيسة فان الازقة والاماكن المشاعة كانت مفروشة بالاقمشة فاتوا بزياح من البلاط الملوكي الى الكنيسة وقدامهم الاناجيل المقدسة والصليب وهم يرتلون التسابيح والطلبات وكان مار رامي ماسكاً الملك بيده والملكة واختا كلوفيس وراءها واكثر من ثلثة الاف عسكري واغلبهم ضباط كان كسبهم الملك بمثالهِ ليسوع المسيح فلما وصل الملك الى جرن المعمودية طلب العماد فقال لهُ الاسقف ايها الملك العاتي احنِ هامتك تحت نير الرب واسجد لما حرقتهُ واحرق ما سجدت لهُ: ثم بعدما اعترف معتقداً بالثالوث الاقدس عمدهُ ودهنهُ بالميرون المقدس. وتعمد معهُ ايضاً الثلثة الالاف الافرنسيين الذين رافقوهُ ما عدا النساء والاولاد وكان معمدهم الاساقفة وباقي الخدام الكنائسيين الذين حضروا الى رامس لاجل هذا الاحتفال واما اختا كلوفيس فاحداها قبلت العماد والاخرى كانت مسيحية لكنها قد كانت تورطت بالارطقة فرجعت حينئذٍ الى الايمان المستقيم ومُسحت بالميرون المقدس فذاع خبر تنصر كلوفيس واوعب قلوب جميع المسيحيين فرحاً

لاسيما قلب البابا انستاسيوس لامله بهذا الملك انه يكون محامياً قديراً عن الكنيسة لانه كان وحده وقتئذٍ ملكاً كاثوليكياً. فمذ اعتناقه الايمان الحقيقي لم يتهاون قط عن محاماته وقد اقتفى خلفاؤه مثاله منذ اربعة عشر جيلاً واستحقوا ان يُلقبوا بالملوك المسيحيين حقاً

الفصل الخامس والتسعون

في فضائل القديسة جانفيف

وكان كلوفيس يكرم كثيراً ابنة قديسة يقال لها جانفيف كانت في ايامه واشتهرت في كامل امصار غاليا بطهارة سيرتها وبهرة عجائبها فولدت في نتير بالقرب من باريس. فلما مرّ مار جرمانوس اسقف اوكسار بهذا المكان رأى في هذه الابنة شيئاً خارق العادة فحرضها على ان تكرس لله بكارتها فاتى بها الى الكنيسة ومنحها بركة العذرى واليوم التالي سالها هل كانت تذكر وعدها فاجابته انها تفيه بنعمته تعالى فاعطاها ايقونةً من نحاس عليها صورة الصليب وامرها ان تنقلها في عنقها ونهاها عن كل زينة ذهب كانت ام فضة او حجارة كريمة فاخذت جانفيف مذ ذلك تتقدم في الفضيلة واضافت على بكارتها صرامة التوبة

والتقشف الشديد فكانت تاكل مرتين في السبة فقط ولم يكن طعامها الا خبز شعير او بعضًا من القطانة وكانت مع هذا الصوم الشديد تلازم الصلوة بحرارة وورع وتسكب بحضرته تعالى دموعًا هكذا غزيرة حتى كانت تسقي بها الثراء ولم تنجها فضيلتها من شر سهام النمائم لكنها قد استهدفت لها بالوداعة والصبر فان الله سبحانه قد بررها من كل ما أتهمت به فاشهر قداستها بالمعجزات والنبوات التي اجراها على يدها . فلما توجه انيلا البربري بعسكره نحو باريس القى الرعبة الشديدة في قلوب سكان المدينة فحرضتهم جانفيف على ان يهدئوا غضب الله بالصلوة والسهر والصوم واتحدت معهم بهذه الرياضات فأُوحي لها بان هذه المصيبة لا تدخل باريس وكان كما تنبأت ونجت باريس من الاعداء

فمذ هذه الحادثة تبددت غيوم الاوهام الكاذبة والافتراء وعقبها في القلوب شعائر الاعتبار والثقة فكانت الناس تتقاطر اليها من كل فج يلتمسون عونها ولم تكن تستصعب شيئًا في امر عبادته تعالى ومنفعة القريب فبلغت بسطوة فضيلتها الى ان اشادت كنيسة اكرامًا لمار ديونيسيوس ورفقائه ولما حلت المجاعة في باريس ذات عام عانت سفرًا طويلاً الى بلدان بعيدة فاتت بالقوت الى اهل باريس فكانت القداسة في هذه الابنة الفاضلة

على احسن ما يكون من الاكرام والاعتبار حتى ان حاسديها الذين كانوا اولاً يضطهدونها قد اضطروا الى ان يجفوها باعظم الثناء. ومع ما كانت تمارسهُ من الاماتة والتقشف قد بلغت من العمر الى شيخوخة هرمة فبعد ما قضت من السن تسعين عامًا في مباشرة كل نوع من الاعمال الصالحة رقدت بسلام الرب سنة ٥١١ ودُفنت جثتها حذاجثة كلوفيس في كنيسة مار بطرس وبولس الرسولين وهي الان تسمى كنيسة القديسة جانفيف . اما المساعدات التي كانت تأتي بها هذه الابنة القديسة لمدينة باريس فلم تنتهِ بوفاتها بل داومت بعد ذلك على محاماتها عن هذه العاصمة التي تكرمها بمنزلة شفيعة لها وهي خازنة ذخائرها الثمينة كترس وقاية لها ولم تلتجئ اليها عند حلول النكبات العمومية الاَّ ونالت الخلاص منها

الفصل السادس والتسعون

في ماري بناديكتوس (مُبارَك)

سنة ٤٨٠ للمسيح

ان الله سبحانهُ قد جعل بناديكتوس ابًا للسيرة الرهبانية في الغرب او على ما قل قد اقامهُ ليحسن هذه الحالة المكرمة . فولد

من والدين شريفين في نورسي من ايطاليا فلما بلغ عمر اقتباس العلوم أُرسل الى مدارس رومية العمومية . ولما كان قلبهُ طاهرًا ولم يتدنس قط بمجاة الرذيلة كان يخشى على طهارتهِ وهو عائش بين شبان منهم كثيرون يسيرون سيرة مفسودة فمضى الى كهف ضيق جدًّا يبعد عن رومية اربعين ميلاً ومكث فيهِ ثلث سنوات ولم يعلم بحاله الاَّ ناسك قديس يقال لهُ رومانوس كان يأتيه بقليل من الخبز ليقتات بهِ فعُرف بعد هذه المدة واشتهر في كامل البلدان المجاورة فحينئذٍ طلبتهُ رهبان دير في جوارهِ ان يكون رئيسًا عليهم . اما هو فقد أَبى زمنًا مديدًا وانباهم بانهم لا يرتضون بكينية سيرتهِ وكان كما تنبأ . فلما ابرموا عليهِ باللجاجة اجاب طلبهم وحمل على نفسهِ ثقل سياسة الدير اما هولاء الاشقياء فلم يحتملوا ضبطه في مراعاة القوانين ومن ثم عمدوا على قتلهِ بالسم فوضعوا سمًّا في كاس ماء وقدموها لهُ ليشرب على الطعام فرسم بناديكتوس اشارة الصليب المقدس على الكأس حسب عادتهِ فتكسرت في يدهِ واريق الماء فشعر حينئذٍ رجل الله بعلة انكسارها وعلم بالخطر الجسيم الذي نجا منهُ فقام وقال للرهبان بهدو ورواق : لماذا يا اخوتي اردتم ان تعاملوني هذه المعاملة أَما انبأتكم بانكم سوف تندمون على انتخابكم اياي فاطلبوا لكم اذًا رئيسًا يوافقكم

ثم عاد الى خلوته وجدّ ان يختفي فيها ولكن شهرة قداسته اعلنته وصارت بريته محل مسكن ولما كان أنام كثيرون يطلبون اليهِ ويناشدونهُ ليدربهم في سبل الله رأى نفسهُ مضطرًا الى ان يقبلهم تلاميذ لهُ. فبنى اثنى عشر ديرًا ووضع في كلٍ منها اثني عشر راهبًا تحت ادارة رئيس وجعل تحت تدبيرهِ من كانوا بعد محتاجين الى ارشاداتهِ. وكانت الناس تتقاطر اليهِ افواجًا واشرف عيال رومية تدفع لهُ اولادها ليربيهم ومن جملة من وافوا اليهِ موروس وبلاسيدوس سليلا عظماء رجال الدولة فهذان قد تربيا في مدرستهِ وصارا قديسين عظيمين ونشأ من غيرتهما قديسون كثيرون غيرهما فلما ذهب بلاسيدوس ذات يوم ليستقي ماء من بحيرة وكان ولدًا صغير السن وقع فيها فعلم بناديكتوس بالهام الهي وهو في الدير ما جرى للولد فقال لموروس يا اخي اذهب سريعًا الى البحيرة فان بلاسيدوس وقع فيها : فاسرع موروس وتقدم ماشيًا على الماء الى حيث جرتهُ المياه فتناولهُ بشعر رأسهِ ورجع بهِ مسرعًا فلما وصل الى الارض اليابسة نظر الى ورائهِ فرأى انهُ مشي على المياه فارتعد اندهالاً وقص القصة على مار بناديكتوس وهذا نسب الاعجوبة لحسن طاعتهِ اما موروس فكان ينسبها لصلوات مار بناديكتوس. وقد روى هذه المعجزة مار غريغوريوس الكبير

الفصل السابع والتسعون

في انشاء دير كاسينوس

وكان اكبر اديرة مار بناديكتوس دير جبل كاسينوس في مملكة نابولي وصار مركز رهبنتهِ فلما اتاه هذا الرئيس القديس المرة الاولى كان باقياً على هذا الجبل هيكل قديم لاله ابولّون وكان القريبون في جواره يعبدونهُ فحطم بناديكتوس الصنم وهدم مذبحه وبلغ بخطبهِ ومعجزاته الى ان اهدى دين الحق هذا الشعب المسكين فحينئذٍ ايد الله عبدهُ بالنبوة واشهر قداسته بمعجزات عديدة اجراها على يدهِ فعلم بهِ طوطيلا ملك الغططيين وتعجب من كل ما رووهُ عنهُ فاراد ان ينظرهُ فاتى جبل كاسينوس ولكيما يمتحن هل يعرف الخفيات كما كانوا اخبروهُ عنهُ ارسل اليهِ يقول لهُ انهُ آتٍ لزيارتهِ فارسل اولاً الى الدير رئيساً من روساء عسكرهِ قد البسه ثيابه الملوكية واصحبه بموكب عظيم فلم يكن بناديكتوس نظر طوطيلا قط ومع ذلك حالما لمح الضابط لم يحفل بملقاه بل صاح بهِ قائلاً: دع عنك يا ابني هذا الثوب فانهُ لا يخصك: فاخذت الضابط وارفاقه هزة التعجب ومضوا يقولون للملك ما جرى لم فتيقن حينئذٍ ان في هذا

الرجل امرًا عجيبًا ومضى بنفسهِ اليهِ وقابله بهابة واحترام فخرَّ على قدميهِ وبقي راكعًا حتى انهضه القديس فاتحفهُ بناديكتوس بنصائح خلاصية وانباه عن اخص حوادث حياتهِ فساله طوطيلا الدعا لاجله وصار مذ ذاك انيسًا اكثر من ذي قبل ولما فتح مدينة نابولي بعد برهة وجيزة عامل المأسورين بجودة لم تكن منتظرة من ملك بربري مظفر

فارسل بناديكتوس الى فرنسا كثيرين من تلاميذه ليشيدوا فيها اديرة وتنبأ على موتهِ بزمن قبل حلول المرض فيهِ فحفر قبره وحالاً بعد ذلك اعترته حمى شديدة كانت تزداد عليهِ يومًا فيومًا فسال ان ينقلوه الى الكنيسة فنقلوه وهناك تناول جسد ودم يسوع المسيح ثم رفع عينيه الى السماء واسلم الروح وكان له من العمر ثلث وستون سنة . فترك بناديكتوس لتلاميذه قانونًا عجيبًا مدحه البابا مار غريغوريوس فيظهر منهُ ان واضعه كان مكملاً بعلم الخلاص ومقامًا من روح الله ليرشد النفوس الى اسمى درجات الكمال . فوجد هذا القانون متقنًا بالحكمة والتعقل حتى رغبته جميع رهبان الغرب ونذروا على نفوسهم اتباعه . وكان كوموس دي مادبسي الشهير وكثيرون غيره من جهرة المشترعين يتلونه تواترًا ويعتبرونه كنزًا غنيًا بقواعد شانها ان تفقه الولاة في فنّ سياسة الناس ومن ثم قد غدا

هذا الدير ينبوع فوائد ثمينة من كل نوع فما عدا ما تلألأ فيهِ من نموذجات الفضيلة حفظت في حماه اكثر اخبار الحوادث التاريخية التي حدثت في مدة الاجيال الاولى للحكومة الفرنسية وفيهِ تخلدت العلوم بعد ما دمرت البرابرة الامصار

الفصل الثامن والتسعون

في المجمع الخامس التيبلي في مسئلة الفصول الثلثة

سنة ٥٥٣ للمسيح

وبعد ما توفي الملك مرسيانوس تقوى حزب اوطاخي في مصر وارتكبت تبعته فيها فواحش مريعة ولم يجسر احد على مقاومتهم لكثرة عديدهم وشدة سطوتهم . فافرغوا جهدهم في تضعيف سلطة المجمع الخلقيدوني الذي كان حرمهم وهاك ما استعملوه من الوسائط لبلوغ مآربهم فانه قد ظهر على عهد نسطوريوس ثلثة مؤلفات تايد هذا المبدع وهي تاليف لثاودوراتوس اسقف سيروس ضد مار كيريللوس ورسالة ايباس اسقف أُرفا وتاليف ثاودورس اسقف موبصواست فهذه التآليف الثلثة المسماة بالثلثة فصول كانت بالحقيقة ملومة اما اصحابها فيستبين انهم نقضوها واعترفوا بالايمان الارثودكسي في

المجمع الخلقيدوني فاباه هذا المجمع حيث لم يجتمعوا لهذه الغاية لم يفحصوا عن الفصول الثلثة بل اكتفوا بان يقتضوا من اصحابها ان يحرموا نسطوريوس فحرمهُ ثاودوراتوس وايباس اما الثالث فقد كان توفي . فبناء على هذا البيان قد رضوا عن الاشخاص ولم ياتوا بحكم على تآليفهم

فلما كان الاوطاخيون يجدّون سعيًا في التعييب على المجمع الخلقيدوني ارادوا ان يلقوا شائبة عليهِ في صمتهِ عن الثلثة فصول واعتباره صحة ايمان اصحابها فجدّوا في تحريم الثلثة فصول واما لوا الملك يوستينيانوس الى غرضهم فلما كان هذا الملك يروم ان يوسع سلطانه على امور الدين اخرج امرًا فيهِ يحرم هذه التآليف الثلثة اما الكاثوليكيون فلئن لم يستحسنوا ما تضمنته هذه التآليف من التعليم بل اقروا بوقوع الشائبة عليها فمع ذلك كانوا يخشون من ايقاع الخلل في سلطة المجمع الخلقيدوني اذا ما اعابوا هذه التآليف ومن ان يصير تحريمها علة لانتصار الاوطاخيين فكثرت الاشاعات في هذه المسئلة . فرفض البابا فيجيليوس اولاً امر الملك ضد الفصول الثلثة ثم املاً بالقاء السلامة حرمها هو نفسه مع هذا القيد وهو : مع حفظ سلطان المجمع الخلقيدوني سالمًا : اخيرًا وقع الاعتماد على التئام مجمع عام في القسطنطينية فعقدوه وفحصوا فيهِ عن التآليف الثلثة التي كانت تسعر نيران

المحاورات الشديدة وحرموها انما بدون ان يعيبوا المجمع الخلقيدوني
لا بل ان الاباء قد قرروا جليًا بانهم يجعلون ايمان المجمع
الخلقيدوني في نفس منزلة ايمان الثلثة المجامع الاخر وحكموا
بامكان تحريم التاليف عدلاً بدون تحريم شخص اصحابها فالبابا
فيجيليوس بعد ما قاوم زمانًا ثبت هذا الحكم وقبلته جميع الكنائس
الشرقية والغربية وهكذا عُدّ هذا المجمع مسكونيًا خامسًا فيرى فيه
مثال واضح في بيان سلطان الكنيسة على تحريم التآليف والحكم
بمعنى الكتب واقتضائها من المؤمنين الخضوع لحكمها . لعمري ان
هذا السلطان ضروري لها لحفظ الايمان لان من الوسائط الاشد
فاعلية لحفظ وديعة الحقائق التي تعلمها هي اطلاعها المؤمنين على
الينابيع الطاهرة الواجب ان يستقوا منها مياه الحق وعلى الابار
المفسودة بسم الضلال الواجب عليهم ان ينبذوها و يرذلوها .
فلما خولها معلمها بان تعلم التعليم الحقيقي تقلدت منهُ في الوقت
نفسه سلطانًا لوقاية اولادها من التعليم القبيح ولمنع تلاوة الكتب
المتضمنته والتي شانها ان تفسد طهارة الايمان

الفصل التاسع والتسعون

في تنصر انكلترا

سنة ٥٩٦ للمسيح

ان انكلترا قد كانت نُذِرت بالايمان منذ الجيل الثاني ولكن قد درست اثاره فيها مذ اجتاحها الصكصونيون عبدة الاوثان وطردوا منها سكانها القدماء فلما كان مار غريغوريوس الكبير شماساً قصد اعادة المذهب المسيحي الى هذه البلاد فبينما كان ذات يوم مارًّا في اسواق رومية رأى عبيدًا انكليز بين معرضين للبيع فتفرس بهم وتعجب من حسن قامتهم وجمال طلعتهم وعلم انهم وثنيون فقال: حيفًا على هذا الشعب الحسن الصورة ان يكون تحت سلطان ابليس: ولكان باشر الرسالة نفسه لولم يمسكوه عنها لكنهُ لم ينسها قط بل حال ما تبوَّأ كرسي مار بطرس جعل اول اهتمامهِ اتمام ما كان عازمًا عليهِ منذ زمن مديد فارسل الى انكلترا اربعين رسولاً ورئيسهم اغوسطينوس الذي كان رئيس دير مار اندراوس . فسافر هذا العسكر الرسولي ممتطيًا متن الغيرة والبسالة لينشر يسوع المسيح شعبًا جديدًا فاقبلوا الى بلاد كَنت وكان ملكها يقال لهُ اتالبرت

فانعم عليهم بمواجهته فاتوه سائرين بنظام ناقلين صليبًا من ذهب وايقونة المخلص وطالبين منهُ تعالى خلاص الشعوب الذين لاجلهم وافوا من امصار بعيدة

فلما دخلوا على الملك امرهم بالجلوس ليسمع كلامهم على مهل فقال لهُ اغوسطينوس اننا نبشرك ايها الملك باسعد الامور فان الاله الذي ارسلنا اليك يقدّم لك بعد هذه الحيوة مملكة الفخر والمجد بما لا يقدر من مملكة انكلترا : اجابهم الملك ما احسن هذه المواعيد ولكن من حيث انها جديدة لا يمكنني ان اعدل عما حفظته زمانًا مديدًا مع كامل طائفة الانكليز ومع ذلك لا امنعكم من ان تجتذبوا لديانتكم من تستطيعون ان تقنعوهم بصحتها وحيث وافيتم من بلدان بعيدة لتنذرونا بما تعتقدونهُ افضل من دياناتنا فاريد ان اقدم لكم ما هو ضروري لاعالتكم . فشرع المرسلون القديسون ينذرون بالانجيل وكانت سيرتهم شبيهة بسيرة الرسل فطهارة سيرتهم وزهدهم وتقشفهم وموهبة المعجزات التي ايدهم بها الله سبحانهُ خشعت قلوب كثيرين من عبدة الاوثان واقبلت بهم الى الكفر بخرافاتهم فطلبوا العماد . ثم الملك نفسه قد تعجب من بهرة فضائلهم ومن الايات التي كانوا يصنعونها فتنصر وعقب تنصره تنصر جمهور لا يحصى من رعاياه وبعد ما نال المعمودية امتلأ غيرةً على تنجيح الديانة المسيحية في مملكتهِ لكنهُ لم يغصب احدًا

اليها لانه تعلم من المرسلين ان عبادة يسوع المسيح ينبغي ان تكون بالاختيار فكان يكتفي بان يشمل الذين اعتنقوا الديانة الحقيقية بمزة خصوصية ويجعل عليهم اعتماده

الفصل المائة

في ان مار اغوسطينوس سيم رئيس اساقفة كنتوربري

فلما لزم الامر الى وضع صورة لكنيسة انكلترا الحديثة وتوطيدها على طريقة تمكنها من الثبات ذهب مار اغوسطينوس الى فرنسا وسيم اسقفاً من يدي اسقف ارل الذي كان نائب الكرسي المقدس في غاليا . ثم عاد الى انكلترا واتى انذاره فيها باثمار عظيمة جدًّا لان الله جلّ شانهُ كان يؤيدهُ بالمعجزات الباهرة العديدة فعمّد اكثر من الفي نفس في كنتوربري يوم عيد الميلاد فبلغت الى رومية اخبار المعجزات التي كان يصنعها اغوسطينوس في انكلترا واتحفه البابا مار غريغوريوس الكبير برسالة ذات نصائح خلاصية ويعلمه ان يخاف مرتعدًا في بهرة الايات التي كان سبحانه مجريها على يدهِ فبعد ما هنّاه على تنصر الانكليز قال لهُ : ايها الاخ العزيز ان هذا الفرح

ينبغي ان يكون ممتزجًا بالخوف لانني اعلم ان الله تبارك اسمه قد صنع على يدك اموراً عظيمة في وسط هذه الطائفة فاذكر اذًا ان الرسل لما كانوا يقولون لمعلّمهم الالهي : يارب والشياطين ايضًا تخضع لنا باسمك : اجابهم قائلاً لا تفرحوا بهذا بل افرحوا لان اسماءكم مكتوبة في السماء فبينما يصنع الرب هذه على يدك في الخارج يجب عليك ايها الاخ العزيز ان تدين نفسك في الباطن دينونة صارمة وتعلم ما انت عليهِ . فان ذكرت انك اغظته تعالى بالاقوال او بالافعال فاجعل هذه الزلات نصب عيني عقلك دائمًا لكي تردع مسرة الطبيعة الخفية التي قد يمكن ان تتسرب في قلبك فافتكر ان موهبة الايات هذه لم تعطها لاجلك بل لاجل من تلتزم بتخليصهم ولا يغباك ما قالهُ الحق بالذات في الانجيل · كثيرون يقولون لي باسمك قد صنعنا العجائب فاقول لهم انني لا اعرفكم (انتهى) . لعمري ان هذه النصائح السديدة التي قدمها مار غريغوريوس هي احسن دليل لصحة المعجزات التي اجراها مار اغوسطينوس

وطال ما تكاثر التنصر في انكلترا كان البابا يرسل اليها فعلة جددًا يحرثون هذا الحقل التي حلت فيهِ نعمته تعالى واكثرت خصبهُ فاستدعى الى رومية شبانًا انكليزيين فعلموهم في الاديرة ثم أرسلوهم الى بلادهم ليبثوا فيها الديانة المسيحية وكان هذا البابا

القديس يشمل الكنيسة كلها بغيرتهِ وبالاهتمام في كامل احتياجاتها
ولم يكن يعطي لنفسه راحة في اعمالهِ الرسولية مع ما كان عليهِ من
نحافة الجسم فكان يصلح الاسواء ويحافظ على طهارة التهذيب
ويعضد الضعفاء ويساعد الفقراء ويكرم عليهم بصدقات وافرة
حتى انهُ كان يحسن عليهم احيانًا بما كان ضروريًا لهُ ولو انهُ كان
مثقلاً باعباء الاشغال من تعليم شعبهِ بل كان يعلمهم تارةً بالكلام
وتارةً بالكتابة فصنف كتبًا كثيرة اوضح فيها ايضاحًا جليًّا
وراهنًا أصول الاداب المسيحية وقواعدها فتراكم الاشغال عليهِ
ودوام اجتهادهِ فيها اتلفا صحتهُ فاوصلاه الى السعادة التي كان
يشتهيها واما تلميذه العزيز ماراغوسطينوس فلم يعش من بعده
سوى ثلث سنوات فانتقل الى الحيوة الاخرة حيث يتمتع ومعلمه
بغبطة ابدية

الفصل المائة والواحد

في ان كسرى ملك الفرس اجتاح مدينة اورشليم

سنة ٦١٤ للمسيح

ان الفرس قد حاربوا مملكة الشرق حربًا شديدًا تحت
راية كسرى ملكهم فجازوا نهر الفراة وفتحوا مدينة حلب

وخربوا البلدان حتى ابواب انطاكية واهلكوا جيشاً رومانياً صادفوه في مسيرهم ودخلوا فلسطين وجازوا نهر الاردن ودمروا جميع ارياف هذا النهر . وانهزمت سكان القرى اما النساك الذين لم يخرجوا من قلاليهم فاحتملوا اولاً عذابات مريعة من قبل جنود الفرس ثم قُتلوا اخيرًا بقساوة وحشية واخذ العسكر في المسير الى اورشليم فدخلها بدون معارضة لان الحراس كانوا تركوا المدينة وحلت الرعبة في قلوب جميع سكانها فدمرها الفرس وجعلتها قاعًا صفصفًا وقُتل فيها كثير من الكهنة والرهبان والراهبات لانهم كانوا خاصةً موضوع عدوان هذا الشعب الوثني عدو الدين المسيحي والذين بقوا من سكان المدينة رجالاً ونساء واولادًا كبلوا بالقيود وأُخذوا اسرى الى ما وراء نهر الدجلة اما اليهود وحدهم فقد عُفي عنهم لاجل بغضهم للمسيحيين الذي ابدوه في تلك الواقعة وفاقوا به الوثنيين انفسهم فاشتروا من الفرس كل مَن قدروا ان يشتروه من الاسرى ليشرحوا صدورهم بقتلهم على مرادهم فقتلوا على هذا النحو ثمانين الفاً من المسيحيين

وأُخذ الاسقف ذكريا اسيرًا ونُهب القبر المقدس وكنائس اورشليم ثم أُسلمت لحريق النار وسُلبت الانية المقدسة وكامل الامتعة الثمينة التي جمعها المؤمنون الاتقياء نذورًا في هذه الاماكن

المقدسة اما الامر الذي غمَّ المسيحيين اكثر من كل ما سواه فهو خسارة الصليب الحقيقي فلكان كل منهم افتداه بثمن حياتهِ لو امكنه . فاخذته الفرس في الحالة التي وجدوه فيها اي موضوعاً في بيت وعليهِ ختم الاسقف ولكن قد نجت من النهب الاسفنجة التي قُدِّمت ليسوع المسيح وهو على الصليب مبتلة خلاً ليشرب منها والحربة التي طعن بها جنبه الاقدس فان احد روساء العسكر المسيحي اشترى هذه الذخائر المقدسة بمبلغ دراهم وافر من احد الفرس واتى بها الى القسطنطينية حيث صمدت مدة اربعة ايام وكان المؤمنون يكرمونها ويسقونها بدموعهم تخشعاً اما الصليب المقدس فقد وُضع في قلعة توريس من ارمينيا تلك التي ما برحت اثارها معروفة الى يومنا هذا فكانت هذه الذخيرة الثمينة اقل اعتباراً عندهم من باقي غنيمتهم

فلما اخلت الاعداء المدينة عاد اليها المسيحيون الذين نجوا هرباً من حد سيف الفرس ورجز اليهود وتقلد الكاهن مودستوس سياسة هذه الكنيسة في غيبوبة الاسقف ذكريا واخذ يجدّ سعياً في ترميم الاماكن ونال لاجل هذا العمل اسعافات وافرة من يوحنا بطرك الاسكندرية الملقب بالمحسن . وقد التجأ الى هذه المدينة عاصمة مصر عدد غفير من سكان فلسطين فقبلهم هذا الحبر القديس بحنية ابوية وانزلهم في اديرة الاحسان وكان يذهب

اليهم بشخصهِ ويضمد جراحاتهم ويمسح عبراتهم ويوزع عليهم القوت وكان احسانه الجليل يعم الجميع ويسد عوزهم فارسل الى اورشليم دراهم وحنطة وملابس واصلح على قدر امكانهِ حال هولاء المنكوبين

الفصل المائة والثاني

في استرجاع الصليب المقدس ونقلهِ الى اورشليم

سنة ٦٢٨ للمسيح

فارسل الملك هرقل سفارةً الى كسرى يطلب الصلح اما هذا الملك الوثني فاشترط عليهِ ان يكفر بالدين المسيحي ويعبد الشمس التي كانت اخص معبودات الفرس، فرفض هرقل هذا الطلب بغضب وعزم على مقاتلة الفرس لاجل الديانة والمملكة حتى الموت فجمع عسكرًا وزحف بهِ لمحاربة العدو واتى الله سبحانهُ لمساعدة شعبه وفي المعركة الاولى انتصر الملك على الفرس انتصارًا عظيمًا فتجسّرت رجاله بهذا الفوز الاول ولم يكفوا عن مقاتلة الاعداء مدة اربع سنوات متوالية حتى عزم الملك هرقل على ان يقاتلهم قتالاً فيهِ النهاية فجمع جنوده واخذ يشجعهم

على القتال مبينًا لهم جميع النكبات التي انزلتها الفرس في المملكة والقرى التي دمرتها والمدن التي نهبتها والمذابح التي دنستها والكنائس التي حرقتها قائلاً لهم : أرأيتم من هم أعداءكم انهم يحاربون الله نفسه فاسلطوا هياكله ومذابحه طعامًا للنار فالله سبحانه يحارب عنكم تسلحوا بالاتكال عليهِ فان الايمان يقوى على جميع المخاوف وينتصر على الموت نفسه : فاثر هذا الكلام تأثيرًا عظيمًا في جميع القلوب واضرم فيها نيران البسالة فحملوا على الفرس حملة الاسد الضارية وتقحم الملك الى بهرة المعركة فانجرح جواده واصابته سهام كثيرة فلم تؤذهِ ودام القتال من الصباح الى المساء فقتل من الفرس ثلثة من مشاهير قوادهم وهلك نصف عسكرهم اما الرومانيون فلم يُقتل منهم الاَّ خمسون نفرًا

فانهزم كسرى من امام هرقل وبقي هاربًا مسافة ثمانية اميال الى ان وجد كوخًا حقيرًا ضيقًا دخل فيهِ زحفًا على بطنهِ وبات فيهِ تلك الليلة . فلما آل الامر الى الشدة القصيا واعتراه مرض في امعائهِ وتيقن اذ ذاك دنو المنايا اقام خليفة له احد اولاده الصغار فحنق عليهِ ابنه البكر والقاه في السجن حتى اهلكه جوعًا واستولى على الملك . فطلب هذا الملك الجديد عقد المصالحة مع هرقل وارسل له جميع المسيحيين الذين كانوا اسرى في بلاد فارس ومن جملتهم البطرك ذكريا ثم عود الصليب الذي كان

أُخذ منذ اربع عشرة سنة وكان في هذا الزمان كله باقياً في علبتهِ ولم تفك الفرس ختمه وقد عرف البطرك هذا الختم فاسلموه عود الصليب في الحالة نفسها التي كان عليها لما اخذته الفرس . فتعجبوا من عنايتهِ تعالى بهذه الذخيرة الثمينة . ودخل الملك القسطنطينية بكامل ابهة الانتصار راكباً عجلةً تجرها اربعة افيال والصليب المقدس محمول امامه وكان افخر غنائم نصراتهِ . ثم سافر هرقل الى اورشليم في اوائل الربيع ليسدي الشكر لله سبحانه على ما انعم عليه من الفوز في الحروب ولكي يرجع الصليب المقدس الى كنيسة القيامة فاراد ان يمشي على اثار خطوات المخلص ويحمل هو نفسه الصليب على عاتقهِ الى اعلى الجلجلة . وقد امتازت هذه الحادثة العظيمة باية عجيبة وهو انهُ لما كان الملك قد حمل الصليب على عاتقهِ وسار بهِ حتى باب المدينة المودي الى الجلجلة كأن يد قوية اوقفتهُ عن السير الى ما قدام وكان كلما سعى ان يخطو تمكنت قدماه في الارض حتى اندهش والحاضرون لذلك فعندها تقدم اليهِ الجليل ذكريا بطريرك اورشليم وقال لهُ : حذارِ ايها الملك من ان تحمل صليب الفقر والاتضاع وقد توشحت بالملابس الملوكية والحلى البهية فاطاع الملك هذا الانذار وخفف عنهُ ملابسهُ البهية وتجلبب بادنى الملبوس ورفع الصليب على منكبيهِ فسرت خطواته حتى المكان الذي كان الفرس ختلفوا منهُ

خشبة الخلاص فاقامها هنالك . وكان ذلك عيداً حافلاً لجميع المسيحيين والكنيسة المقدسة تحتفل ايضاً تذكار ارتفاع الصليب في ١٤ ايلول

الفصل المائة والثالث

في ارطقة المونوطاليتيين

سنة ٦٣٠ للمسيح

ان الفرح الذي شمل قلب الكنيسة باسترجاعها عود الصليب الحقيقي قد نغصته نائبة شديدة حلت فيها في المشرق . على انهُ قد اتلدت فيهِ ارطقة جديدة او بالحري قد تجددت ارطقة اوطيخا متنكرة بهيئة اخرى وباسم اخر ومختلفة قليلاً عن اصلها الاول . فان قوماً من تباع هذا الملحد المحتجبين علموا بوجود ارادة واحدة وفعل واحد في يسوع المسيح وهذا معنى اللفظة اليونانية مونوطوليسم التي سميت بها هذه الشيعة . اما الكنيسة الكاثوليكية فانها تعرف في يسوع المسيح طبيعتين ومشيئتين ايضاً مشيئة الهية ومشيئة انسانية غير متضادتين ولكن مميزتين . وقد انتصر لضلال المونوطوليتيين بعناد سرجيوس بطرك

القسطنطينية وبذل جهده في تأييدهِ فادخله بمكر في عقل الملك هرقل والملك ايده ببراءة مشتهرة ابرزها بصفة بيان او اعراض اما مار سفرونيوس بطرك اورشليم فقد قاوم بعزم شديد هذه الارطقة الجديدة واشهر كتابة اثبت فيها تمييز الطبيعتين في يسوع المسيح واوضح جليًّا تعليم الكنيسة الثابت بالمشيئتين والفعلين فخاف سرجيوس من ان يحذروا البابا هونوريوس من بدعتهِ فصمم على ان يكتب له ليمنعهُ من أن يرذل تعليمهُ الحديث فكتب لهُ قائلاً بمكرٍ انهُ لم ينكر في المسيح الاَّ الارادتين المتضادتين اللتين تتقاتلان فينا فاننا بها ما نريدهُ من الخير لا نعملهُ بل ما نكرههُ من الشرّ أيَّاه نعمل

فانخدع هونوريوس باقوال سرجيوس ومع انهُ علَّم بان في سيدنا طبيعتين وهما الالهية والانسانية ولكلٍ منهما افعالها الخاصة اضرب عن استعمال لفظة الارادتين ولم يرذل البدعة الحديثة واذا وَهم البعض بانهُ وافق الضلال مع انهُ لم يقل بهِ قط اخيرًا كشف مار سفرونيوس بهمتهِ حيل الاراطقة ومكرهم واطلع البابا على تقدم البدعة فكان هونوريوس قد توفي فحرم خليفته الضلال وبراءة الملك التي كانت تؤيدهُ وقد اثبت هذا الحكم فيما بعد البابا مار مرتينوس . وتكبد لاجل غيرتهِ على حفظ طهارة الايمان فقد حريته وحياته ايضًا لان الملك قونسطن خليفة هرقل

قد ابرز براءة ثانية تأييدًا لبدعة المونوطوليتيين وأُخرج هذا البابا القديس من رومية فاتوا بهِ مكبلاً بالقيود الى القسطنطينية حيث كابد عذابات لاتقدَّر ثم أُرسل الى المنفى وتوفي فيهِ بعد سنتين قضاها بالاسر والعذاب وهو محتمل بدون ان يتشكى من امرٍ البتة ولا يتراخى عزمهُ قطعًا في واجبات خدمتهِ وقد اقتفى اثر البابا بغيرتهِ احد روساء الرهبنات في القسطنطينية المدعو مكسيموس فهذا تكبد هذه المعاملة نفسها من قبل الاراطقة فضرب ضربًا شديدًا باعصاب البقر وقُطع لسانه من اصله وتمم جهاده في منفى شديد العذاب

الفصل المائة والرابع

في المجمع السادس التيبلي

سنة ٦٨٠ للمسيح

اما الملك قسطنطين الملقب بيوغونات فعزَّى الكنيسة في احزانها واصلح الاسواء التي انزلتها فيها خلفاؤه فرأى هذا الملك ان احسن ما يمكنهُ من الاجراآت بسلطانهِ ان يعقد مجمعًا عامًّا فكتب بهذا الصدد الى البابا اغاتون والبابا اعلم اساقفة الغرب

بمقاصد هذا الملك الصالحة وعين ثلثة قصاد من طرفهِ يتصدرون في المجمع باسمهِ. اما البدعة الجديدة فلم تكن دخلت في الغرب بل كانت الاساقفة جميعهم على اتفاق بالاعتقاد بطبيعتين ومشيئتين في يسوع المسيح فقبل الملك قصاد الكرسي المقدس مترحبًا بهم وافتتح المجمع في قاعة من قاعات البلاط الملوكي فوُضع كتاب الاناجيل حسب العادة في بهرة المجمع وحضره الملك مع ثلثة عشر من اكبر اعوانهِ. فتقدمت قصاد البابا بالكلام اولاً واعرضوا موضوع المجمع فقالوا: انهُ منذ اكثر من اربعين سنة علم سرجيوس وغيره بوجود مشيئة واحدة في سيدنا يسوع المسيح وفعل واحد فنبذ الكرسي المقدس هذا الضلال وامرهم بالاقلاع عنهُ لكنهم لم يذعنوا للامر فمن ثمَّ نطلب ان نقرر المسئلة في هذا التعليم: فاخذ اذًا الاساقفة يفحصون باجتهاد عن قوانين المجامع السابقة ونصوص الاباء ووجدوا التعليم الحديث مغايرًا للانجيل والتقليد. واثبتوا على المونوطوليتيين بانهم جذعوا نصوص الاباء التي اتوا بها تأييدًا لاضاليلهم وفحصوا ايضًا رسالة مار سفرونيوس الذي كان قاومهم في بدعتهم فوجدوها طبق الايمان الحقيقي وتعليم الرسل والاباء

فبعد هذا الفحص رسموا صورة الايمان وصرَّحوا فيها بتمسكهم بالمجامع السابقة ثم اخرجوا الحكم بهذا القول: اننا نحكم بان في

يسوع المسيح مشيئتين وفعلين طبيعيين ونهي عن التعليم المخالف ونمقت ونرفض العقائد الكفرية عقائد الاراطقة القائلين بمشيئة واحدة وفعل واحد في يسوع المسيح اذ وجدناها مضادةً لتعليم الرسل ومراسيم المجامع واراء جميع الاباء: ثم اطلق المجمع المقدس الحرم على اصحاب الشيعة ولم يعف عن هونوريوس نفسه الذي تلطف معهم بالمداراة وكان الملك حاضراً ختام المجمع فنال من الكرامة ما نالهُ سابقاً قسطنطين الكبير وثاودوسيوس ومرشيانوس وامضى القصاد وجميع الاساقفة على اعمال المجمع وكان عددهم مائة وستين اسقفاً وامضاها ايضاً الملك وامر باجرائها وعضدها بكامل سلطتهِ وهكذا قد سقط الضلال سريعاً وزالت البلابل

الفصل المائة والخامس
في تنصر المانيا
سنة ٧٢٣ للمسيح

ان مصباح الايمان هو كالشمس يغيب عن قطر ليشرق على قطر اخر كما قد تبين لنا في سياق اخبار الكنيسة فبينما كان

نور الانجيل يضعف في الشرق بفتوحات المسلمين كان يتمد متلألئًا في جهات الشمال بمساعي المرسلين الجهيدة وكان اشهر جميع هولاء المرسلين مار بونيفاسيوس الذي صار اسقفًا على ماينص ورسول المانيا فكان من طائفة الانكليز وظهرت فيهِ منذ صغرهِ علائم جلية تدل على اهليته للاعمال السامية التي نُدِبَ اليها وتمَّمها فيما بعد . فلما اتى الى ابيهِ بعض المرسلين وحدثوهُ فيما لله والامور السماوية سمعهم بونيفاسيوس واثَّرت سيرتهم الفاضلة وارشادهم تأثيرًا القى في فوادهِ رغبة حارة في الاقتداء بهم والتكرس لله سبحانه نظيرهم وحال كونه وقتئذٍ ولدًا صغير السن لم تضمحلَّ من عقلهِ تأثيرات الفضيلة التي طبعت فيهِ فدخل في احد الاديرة وتأهب منذ صباه لمباشرة الرسالة فلما سيم كاهنًا في عمر ثلثين سنة شعر في نفسهِ بانقاد نيران الغيرة التي حملته على تعليم الشعوب والسعي في تخليص النفوس وكان يتنهد الصعداء حزنًا نهارًا وليلاً على حال اولئك الذين لم يزالوا غرقى في ظلام عبادة الاوثان . فاذ كان راسخًا في هذه الاستعدادات التقوية ذهب الى البابا غريغوريوس الثاني وانطرح على قدميه طالبًا منهُ الاجازة للانذار بالانجيل فبعد ما تحقق الحبر المذكور ان دعوة بونيفاسيوس كانت من العلا منحهُ سلطانًا تامًّا لانذار شعب المانيا بالانجيل المقدس . فصادف هذا الرسول القديس

مشقات كثيرة في تخليق قلوب هولاء الشعوب البرابرة بشعائر الوداعة والتدين المأمورين في الانجيل ولكن قد استوفى اثمارًا على قدر اتعابه وكان الحصاد كثيرًا

فمضى اولاً الى بفيارا وتوريتج وعمد فيها كثيرين من الغير المؤمنين فهدمت في كل جهة هياكل الاوثان واقيمت مكانها كنائس لعبادة الاله الحقيقي اما هذا الرسول القديس فقد كابد مشقات كثيرة لاسيما في توريتج لان الصكصونيين قد كانوا دمروا هذه البلاد منذ زمن وجيز فامست شعوبها في فاقة هكذا شديدة حتى اضطر الرسول المذكور الى ان يحصل معاشه بشغل يديه ومن هناك انطلق الى بلاد فريز حيث بقي ثلث سنوات يباشر الاعمال الرسولية وربح ليسوع المسيح نفوسًا لا يُحصى عددها . فوقتئذٍ علم البابا بما صنعه من الخير العظيم فامره بالاتيان الى رومية ليرقيه الى الدرجة الاسقفية فاتى وسيم اسقفًا وعند عودته من هذا السفر شرع ينذر بالايمان في بلاد هس وفاز بانذاره فوزًا عجيبًا فاشاد فيها كنائس واديرة واصلح شرورًا شتى كانت انسربت فيها ووجد فيها اناسًا خداعين كانوا يغوون الشعب بمكرهم ويعثرونه بفسادهم فرد بعضًا منهم الى الصواب وطرد بعضًا وهكذا وطد الايمان والاداب في هذه البلاد فاقامه البابا نائبه في المانيا وفوّض اليه اجراء جميع النظامات التي يراها

واجبة ليجعل صورة لهذه الكنيسة الحديثة على هيئة باقي الكنائس المنتظمة

الفصل المائة والسادس

في جهاد مار بونيفاسيوس

نشاع صيت مار بونيفاسيوس في اكثر امصار اوربا وحدث خاصةً في اعمالهِ الرسولية فاتاه عدد غفير من عباد الله واشتركوا بهذه الرسالة وقاسموه اتعابه فخففوا ثقلها عنهُ . فرأى هذا القديس رئيس الاساقفة نفسه وقتئذٍ قد طعن في السن وتزايدت امراضه فاخذ يهتم بقيام خلفٍ لهُ فاقامهُ وبعد ما سامهُ رئيس اساقفة على ما روى الذي عليهِ ثقل الاهتمام بهذه الكنيسة الخصوصية لكي يتجرد بكامل حريتهِ لوفاء حق الدعوة التي نُدب اليها من العلاء ويعكف بكليتهِ على تنصير الكفرة فلم يذق طعم الراحة طال ما وجد نفسًا لا تعرف بعد يسوع المسيح وكان يتلظى بجذوات الاشتياق ليسفك دمه لاجل الايمان وكان عالمًا في سريرتهِ ان وفاته لم تكن بعيدة فرتب اذًا امور كنيسته ومضى مع بعض ارفاق لهُ غيورين بنذر بالانجيل شعبًا كان بعد وثنيًا

في اقاصي بلاد فريز فنصر هناك كثيرين من عبدة الاصنام وعمدهم وعين يوماً ليمنحهم فيه سر التثبيت ولما لم تسعهم الكنيسة عين مكاناً في برية مجاورة لياتوا اليه ويقبلوا فيه هذا السرّ ونصب فيه مظالاً واتى اليه في اليوم المعيَّن فبينما كان يصلي منتظراً قدوم المسيحيين الجدد واذا بجيش غفير لا من الذين ينتظرهم بل من عبدة الاوثان مسلحين بسيوف وحراب شنوا الغارة على الاسقف القديس وهجموا على مظالهِ فاخذت خدامه تتأهب لدفع البرابرة بالسلاح اما بونيفاسيوس فلما سمع الضوضاء استدعى اكليروسه وتناول بيده الذخائر التي كان ينقلها دائماً وخرج من مظالته وقال لقومهِ: يابنيَّ كفوا عن القتال لان الكتاب المقدس ينهينا عن مكافاة الشر بالشر فقد حضر اليوم الذي انا منتظره منذ زمن مديد فلنرجونَّ به تعالى وهو ينقذ نفوسنا: ثم اخذ يحث كهنته وارفاقه على ان يحتملوا بصبر موتاً زمنياً ينقلهم الى ملك مخلَّد. وقد قوَّاهم بمثلهِ اكثر من وعظهِ. فحال ما انتهى من كلامهِ راى البرابرة هاجمين عليهِ وقد انتظرهم بعزم وبأس فقتله هولاء الاشرار حالاً وقتلوا جميع الذين كانوا برفقتهِ وكان عددهم اثنين وخمسين وهكذا بونيفاسيوس انهى بموت مجيد حيوةً كانت له جهاداً متواصلاً ونال هذا الاكليل الثمين جزاء اعمالهِ الفاضلة التي باشرها والاثمار التي جنتها منها الكنيسة. فنُقل جسد الشهيد

الى دير فولد الذي كان انشأه ومجد الله عبده فيهِ بايات عديدة اجراها على يدهِ

الفصل المائة والسابع

في ارطقة الايكونوكلستيين اي مُنافي الايقونات

سنة ٧٢٧ للمسيح

وقد تواتر اضطراب الكنيسة في الشرق بالارطقات الحديثة التي وليت هدنة قصيرة المدة اما الارطقة التي ظهرت في القرن الثامن فكانت اشد خطرًا من غيرها لان الملك نفسه كان مبدعها فقد وجد قبل ذلك ملوك يعضدون الضلال اما في الجيل الثامن فوجد ملك جعل نفسه إمام شيعة وهو لاون الايسوري . فهذا قد بلغ الى سرير الملك بمناقبهِ الحربية فوُلد على نوع ما وتربى في مواقع الحروب وكان ذا جهل عميق ومع ذلك قد ساقه جنون الكبرياء الى ان يدّعي باصلاح الديانة فسبق الابروتستانت بتعصبهِ ضد تكريم الايقونات المقدسة وكان يسميه عبادة وثنية فعمد للاشاتهِ واخرج براءة يأمر بها بنزع ايقونات سيدنا يسوع المسيح ومريم العذراء والقديسين من

الكنائس فلما كان هذا العمل مضاداً لتصرف الكنيسة الثابت العام رفضهُ جميع المؤمنين عقلاً وقلباً وتذمَّر منهُ شعب القسطنطينية جهاراً . اما جرمانوس بطرك هذه المدينة فقاوم البدعة الجديدة بحماسة الغيرة وحاول اولاً ان يهدي هذا الملك الصواب في مذاكرات خصوصية فقال لهُ ان العبادة التي تُقدَّم للايقونات المقدسة ترجع الى الشخص الذي تمثله كما يُكرَّم تمثال الملك وان هذه العبادة الاضافية لم تزل الكنيسة تقدمها في كل اين وآن لصور ربنا يسوع المسيح ووالدتهِ القديسة منذ ايام الرسل وان مناقضة هذا التقليد القديم وقاحة كفرية اما الملك فحيث كان يجهل اصول التعليم المسيحي لبث مصراً على ضلالهِ

فحينئذٍ اعلم البطرك البابا بما كان جارياً في القسطنطينية فاجابه الحبر الاعظم مثنياً على بسالتهِ في مقاومة الارطقة الحديثة وعقد في رومية مجمع اساقفة حرمها فيهِ وكتب ايضاً للملك يأمره ان يرجع بيرآتهِ وينذره بان الملوك لا يعنيهم ان يرسموا شيئاً في الدين ولا ان يجددوا شيئاً مما ينوط بتهذيب الكنيسة فوقعت هذه التونيبات موقع النفور في قلب الملك فازداد منها احتداداً في اجراء البرآة وكان يحرق الايقونات في الساحات العمومية ويمحو من حيطان الكنائس الصور المزدانة بها . وكان

على باب البلاط الملوكي صليب كبير اقامهُ قسطنطين بعد انتصارهِ فامر الملك لاون احد ضباط العسكر ان يكسرهُ بالفاس ويجندله وكان جمهور من النساء قائمات هناك يتوسلنَ الى الضابط المأمور باجراء امر الملك ان يعدل عن ارتكاب هذا الكفر فلم يجب طلباتهنَّ بل صعد هو نفسه على السلم وضرب وجه المصلوب بالفاس ثلث ضربات فعندها استشاطت النساء غضبًا عليهِ فازحن اسفل السلم عنفًا فتجندل الضابط من اعلاه وتهشم ومات من سقطتهِ فحكم الملك على هولاء النساء بالقتل وعلى عشرة انفار غيرهنَّ قد تهمهم الملك بتهييج هذه الفتنة وطرد البطرك مارجرمانوس من كرسيهِ ومات في المنفى ولهُ من العمر تسعون سنة

الفصل المائة والثامن

في فواحش الايكونوكلستيين

ثم تبع قسطنطين الملقب بالزبلي ابن الملك لاون وخليفته اثار ابيهِ وفاقه فحشًا وكفرًا فقد تربى على الكفر وزاد عليهِ الوقاحة والجور الموافقة اخلاقه الشرسة المطبوعة على السخط

والاحتدام فاثار اضطهادًا شديدًا على من كانوا يكرمون الايقونات المقدسة فامست القسطنطينية مشهد العذابات فكانوا يفقئون عيون الكاثوليكيين ويقطعون انوفهم ويمزقون لحمانهم بضرب السياط ويطرحونهم في البحر والملك يصب سخطه خاصةً على الرهبان فلم يكن عذاب ولا اهانة الاَّ وانزلها فيهم فكانوا يطلون لحاهم بالزفت ويحرقونها ويكسرون صور الخشب على رؤوسهم ويتلون على الملك قصص هذه الفواحش وهو على المائدة فيلتذ بسماعها اكثر من الطعام فلم يكتفِ بالقساوة الوحشية التي كان يجريها بواسطة اعوانه بل كان يريد ان يتصدر بشخصهِ على اجرائها ويشاهد بعينيهِ الدماء التي يسفكها فنصب محكمة عند ابواب القسطنطينية وكان يقوم هناك في وسط الجلادين والموكب الملوكي يعذب الكاثوليكيين ويشرح انظاره وصدره بهذا المشهد المريع على كل ناظر الاَّ عليهِ وعلى اعوانهِ

كان بالقرب من نيقوميديا رئيس رهبان قديس يقال لهُ اسطفانوس يكرمهُ الشعب كثيرًا لاجل قداستهِ فاستدعاه الملك الى القسطنطينية واخذ يطارحه بالمسائل املاً بان يربكه في الجدال لان هذا الملك كان يدعي بالبراعة في المنطق فدخل اذًا مع هذا الراهب القديس في ميدان المحاورة قائلاً لهُ : ايها الرجل الجاهل كيف لاترى ان الانسان يمكنهُ ان يدوس برجلهِ صورة

يسوع المسيح ولا يغيظ يسوع المسيح نفسه : فحينئذٍ تقدم اليهِ اسطفانوس واراه دينارًا من المتاملة كانت عليهِ صورتهُ واجابهُ قائلاً : فيسوغ لي اذًا ان اصنع بهذه الصورة ما ذكرت بدون ان اخلَّ من الاكرام المتوجب لك عليَّ : قال هذا والقى الدينار على الارض وداسهُ برجلهِ فوثب عليهِ حينئذٍ رهط الملك ليعزروهُ فاجابهم اسطفانوس متنهدًا الصعداء قائلاً : اي نعم من يحتقر صورة ملك ارضي يجترم جرمًا يستوجب العذاب ولا ذنب على من يطرح صورة ملك السماء في النار : فلم يقدروا يجيبوهُ على ذلك عما فيهِ اثر الصواب بل جزموا على قتلهِ فجروهُ الى السجن وقتلوهُ بعد برهة وجيزة . وقد شكوا على ثمانية عشر من رؤساء العسكر بانهم كانوا مرتبطين مع الشهيد برباط الصداقة واثنوا على ثباتهِ في منقع العذاب فعُذِبوا واثنان من اشرفهم مقامًا قُطع راساهما بامر الملك . وامتد الاضطهاد الى الاقاليم وكانت الولاة يتغايرون بكفرهم وتوحشهم ضد الكاثوليكيين في كامل امصار المملكة لكي يرضوا الملك بهذه الخدمة ويحاربون ليس فقط ايقونات القديسين بل ذخائرهم ايضًا اذ ينزعونها من الهياكل ويطرحونها في الاكنفة وفي الانهر ويحرقونها مع عظام البهائم لكي لا يتميز رمادها

الفصل المائة والتاسع

في المجمع التيبلي السابع وهو النيقاوي الثاني

سنة ٧٨٧ للمسيح

فبعد ما توفي قسطنطين الزبلي وابنه لاون تسلمت ايرينا زمام الحكم بالنيابة عن ابنها القاصر فشرعت الكنيسة وقتئذٍ تذوق الراحة بعد ما كان الايكونوكلستيون الكفرة عذبوها منذ زمن مديد . فلما كانت هذه الملكة متمسكة بعروة التعليم الكاثوليكي اخذت تجدّ في اصلاح الشرور التي صدرت عن سياسة الملوك الاخرين الاشرار فبمشورة تراز بطرك القسطنطينية كتبت للبابا ادريانوس تساله ان يأمر بالتئام مجمع عام فاستصوب البابا قصدها وارسل من طرفهِ قاصدين ليتصدرا في المجمع باسمهِ وكانوا اولاً قد اختاروا القسطنطينية محلاً للاجتماع ولكن حيث كانت كسّارة الصور كثيرين في هذه المدينة وشرعوا يثيرون فيها البلبلة والهيجان نُقل المجمع الى نيقيا وهي مدينة قد اشتهرت بالمجمع التيبلي الاول الذي عُقد فيها . فاجتمعت فيها الاساقفة من كامل امصار المملكة وكان عددهم ثلثمائة وسبعة وسبعين اسقفاً وكان اثنان من معتمدي

الملك يحفظان النظام فيهِ وكانت للاساقفة فيهِ حرية تامة

فعقدت ثماني جلسات ففي الاولى تلوا رسالة البابا التي فيها يبين تقليد الكنيسة في امر تكريم الايقونات المقدسة ويوضح كنه هذه العبادة وتلوا ايضاً صورة ايمان بطاركة الشرق الذين لم يتمكنوا من الاتيان الى المجمع لانهم كانوا تحت حكم المسلمين وكان تعليمهم مطابقاً كل المطابقة لتعليم البابا ثم اتوا بايات الكتب المقدسة ونصوص الاباء المثبتة جواز استعمال الايقونات واكرامها ردحضوا اعتراضات الايكونوكلستيين واخزوا الاراطقة وافحموهم . اخيرًا بعد ما صرَّحت الاباء بقبول المجامع السابقة واحترامها اخرجوا حكمهم بهذا القول : اننا نحكم بان توضع الصور ليس فقط في الكنائس وعلى الانية المكرسة وعلى الملابس الكهنوتية وجدران الكنيسة بل في البيوت ايضاً وعلى الطرقات لاننا طالما نشاهد ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسل وباقي القديسين في صورهم نشعر باشد ميل الى الافتكار بعناصرها وتكريم هذه العناصر فينبغي ان تُؤدَّى التحية والاكرام لهذه الايقونات لاعبادة اللاتريا التي لا تليق الاَّ بالطبيعة الالهية . فيطلق البخور امام هذه الايقونات وتوقد المصابيح كالعادة في صنيع ذلك نظرًا الى الصليب والانجيل وباقي الاشياء المقدسة لان اكرام الصورة يعود الى الموضوع الذي تمثله . فهذا هو تعليم

الاباء والكنيسة الكاثوليكية : ثم اطلقوا الحرم على محاربي الايقونات وامضى هذا الحكم القاصدان وجميع الاساقفة . ثم انتقلت الاباء الى القسطنطينية وعقدوا فيها الجلسة الثامنة بحضرة الملك وامه فامضيا تحديد المجمع فتهلل الحاضرون جميعًا فرحًا وهكذا محيت وقتئذٍ هذه الارطقة سفاحة الدماء . اما المصلحون الاخيرون (اي الابروتستانت) فقد ساروا على اثر هولاء الرفاض الاقدمين وجددوها في الجيل السادس عشر بجميع فظائع الكفر والقساوة الوحشية والاستجنان نفسهِ

الفصل المائة والعاشر

في مناقب كارلوس الكبير ملك فرنسا وغيرته

سنة ٧٦٨ للمسيح

اما كارلوس الكبير فكان بتدينهِ علة فرح الكنيسة اذ لم يزل يحميها في مدة حكمهِ المستطيل الفاخر . فقد تبوأ سرير الملك وهو صغير السن الا انهُ لم يكن لهُ من الشبيبة الا العزم والنشاط وكانت الحكمة تدرب جميع مساعيه فاصرف اقتدارهُ في توسيع دائرة مملكة يسوع المسيح وابرز براءة حسب طلب

الاساقفة لاجل حفظ التهذيب الكنائسي وحمى الكرسي المقدس من تعديات ملوك اللومبرديين. وكان الصكصونيون منذ زمن مديد يشنون الغارات على اراضي حكمه فحاربهم مدبيًا ليردعهم وكانت عاقبة الحرب تنصُّر هولاء الشعوب الامر الذي كان يعدّه اثمن فوز نالهُ من فتوحهِ. وكان يرغب في ان يقبلوا الى نور الايمان اكثر ما كان يشتهي ان يخضعوا لحكمهِ. ففاوضت هذه الشعوب الوثنية مقاصده زمانًا طويلاً لكنهم اخيرًا اعتنقوا الديانة المسيحية وكان ذلك كافيًا ليصفح لهم عن تمرداتهم المتواصلة ولما كان كارلوس الكبير يتحذر من تقلبهم وظهر له ان كثيرين منهم لم يطلبوا العماد الاَّ مجاراةً للامور السياسية ارسل اليهم رسلاً غيورين ليثبتوهم في الايمان

اما فيتيكند الشهير بين روسائهم فلم يسلم في الحرب بل قد اغتاظ لدوران دوائرها عليهِ اكثر من ان تلينهُ. فلما لم يتمكن كارلوس من ضبطه بقوة الاسلحة لم يقنط من اكتسابهِ بسبيل المصالحة فدعاه الى المخابرة في مدينة اتيني مركز البلاط الملوكي حيث كان وقتئذٍ فاتى فيتيكند اليها وهناك تمكن كارلوس بجلالته وجودته مما لم يتمكن عليهِ بحروبهِ ونصراتهِ فالقى زعيم العصاة السلاح من يدهِ امام عرش هذا الملك العظيم وخضع له طوعًا واختيارًا وليس هذا فقط بل في مدة اقامتهِ في فرنسا قد فحص عن الديانة المسيحية فحصًا

جهيدًا وحالما عرفها اعجبته ففتح عينيهِ لنور النعمة التي كانت تنيره باطنًا ومقت المذهب الوثني وطلب العماد وناله وكان كرلوس الكبير عرّابه واذ كان فيتيكند متصفًا بخلوص الطوية كما كان متصفًا بالشجاعة اعطى ادلة باهرة على اخلاص تنصره اذ قد ابدى غيرة فيما بعد على انتشار الايمان بقدر ما كان قد اظهر من العناد في توقيف سير نجاحهِ . اما كارلوس الكبير فكان يرجع لله سبحانه مجد فتوحاته . فاسدى لهُ فعل الشكر باحتفال على تنصر الصكصونيين ورئيسهم

الفصل المائة والحادي عشر

في ان كارلوس الكبير احيى العلوم

ولما تبوّأ كارلوس الكبير سرير الملك كان ظلام الجهل منسدلاً في كافة امصار فرنسا . فتفقدت لذة العلوم وخلت من معلمين ومن مدارس عمومية . اما كارلوس فلم يخفَ عليهِ ان العلوم والفنون لا تفيد لصالح الديانة اقل مما تفيد المملكة فخرًا فجدّ في احيائها في المملكة ولكيما يبلغ مأربه اقتضى لهُ الامر

ان يفتح مدارس و يرغب الناس في اقتباس العلوم ثم احتاج لمعلمين فيهم الاهلية للتعليم فبحث عنهم في كامل امصار فرنسا ولم يجدهم فالتزم بان يستجلب الى بلاطه من جميع البلدان الغريبة احسن واشهر ما يوجد من الناس المتفقهين وثبتهم في امصار مملكته باجور تليق عطاه من الملك واخذاً من العلماء الذين تركوا اوطانهم . فلم يكن يستغلي قط مشترى انام يقدرون ان يشرفوا فرنسا والدين بمناقبهم وكان الشهير الكوينوس المعلم الانكليزي احسن من افاد الملك خدمةً بهذا الخصوص فغمره بالمال والشرف وكان هذا الرجل معتبراً كاعلم اهل عصره وقد علّم في بلاده العلوم المقدسة والعالمية ونجح في تعليمهِ نجاحاً عظيماً فلبى دعوة كارلوس الكبير واشار عليهِ بان يقيم مدارس في الاديرة الكبيرة في مملكتهِ فاستصوب الملك رايه وكتب بهذا الصدد الى الاساقفة ورؤساء الاديرة يحثهم على انشاء المدارس الجزيلة فوائدها

فلما كانت الاشولات المشروحة شفاهاً غير كافية بل لزم ايضاً انشاء الكتب التي هي حارسة العلوم وخازنتها فاتخذ الملك الاحتياطات اللازمة ليمنع من ان يُفسد ينبوع العلوم العمومي هذا بغفلة وتهاون الناسخين المضطر لاستعمالهم وقتئذٍ قبل استنباط المطابع . فامر ببراءة عمومية ان لا يُستعمل لنقل الكتب

الاّ اناس من اذكياء الفهم ومن بالغي سنّ الحكمة . فوجّه انتباهه خاصةً الى علم الديانة فامر ان يعاد النظر على نسخ الكتب المقدسة للعهدي القديم والجديد المنقولة خطّاً وتصلح بكل ضبط وتدقيق وجعل اهتمامه ايضاً في اصلاح الصلوات المؤلف منها الفرض الالهي لئلا يوجد فيها شيء غير لائق بالعزة الالهية واستدعى من رومية مرتلين قد علموا في فرنسا الترتيل الروماني بكامل نقاوته وامر جميع معلمي الترتيل في المملكة ان يأتوهم بكتب تراتيلهم ليصححوها ويتعلموا منهم من الترتيل ولكيما يعطي هو نفسه مثالاً للاجتهاد في اقتباس العلوم وينشط الرغبة فيه قد اقام في بلاطهِ مجمع علماء كانت انجاله وعظماء مملكتهِ يأتونه ليقتبسوا منهُ علوماً ثم الملك نفسه لم يأنف احياناً من النزول عن سرير الملك والانضمام الى مصاف تلامذة الكوينوس . فاجتنت فرنسا اعظم الفوائد من هذه البداية وعظمت رغبة التعلم في قلوب الجميع وكان كل يتلهف شوقاً لاقتباس المعارف فاجتمعت في زمن وجيز عصبة علماء يتعاطون فيما بينهم اموراً علمية ويتهادون المعارف فيظن انها كانت مهداً لمدرسة باريس الكلية اقدم مدارس اوربا الكلية جميعها واشهرها

فهرس

وجه

وجه

وجه

وجه

وجه

وجه

وجه


Bibliotheca Alexandrina
02145556